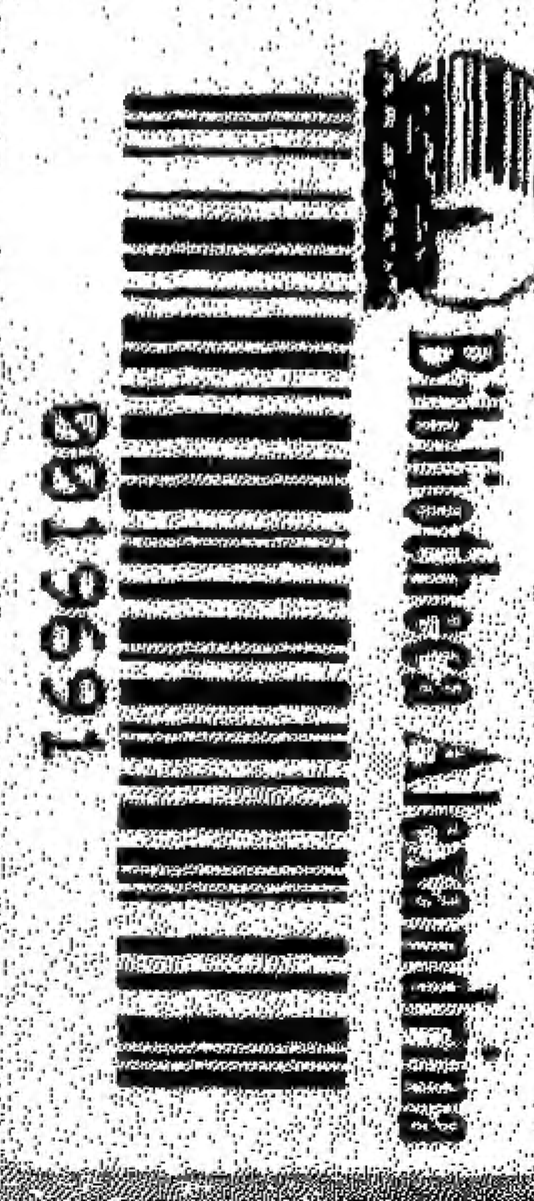
إسرائيل

التوراة .. التاريخ التضليل


دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع
عبده غريب



إسرائيل

التوراة .. التاريخ

التضليل



سيد القمني

الناشر
دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع
عبده غريب

الكتـــــاب : إســرائيـل

التوراة ... التاريخ ... التضليل

المـؤلـــــف : سيد القمنى

ت و ف : ٣٨٦٧٨٧٦ الجيزة

تاريخ النشـــر: ١٩٩٨م

الناشــــــر : دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع

عبده غريب

شركة مساهمة مصرية

المركز الرئيسى : مدينة العاشر من رمضان

والمطابـــــع المنطقة الصناعية (C1)

ت: ٠١٥/٣٦٢٧٢٧

الإدارة : ٥٨ شارع الحجاز - عمارة برج آمون

الدور الأول - شقة٦

ت ، ف : ٢٤٧٤٠٣٨

التــــوزيـــــع : ١٠ ش كامل صدقى (الفجالة) ـ القاهرة

ت : ٥٩١٧٥٣٢

رقـم الإيــــداع : ٩٧/١١٧٦٠

الترقيـم الـدولـى : ISBN

977-5810-779

الإهداء

إلى مجد ومحمود :

لازلت أنتظركما فرسانا

فى ساحة البحث العلمى

فلا تتأخرا



تمهيد

في التجربة المستمرة للتعامل مع طروحات الأيديولوجيا الصهيونية، المؤسسة على أعمدة تاريخية ودينية قدسية، كنت على يقين دوماً بمدى تهافت كثير من أعمالنا الفكرية وترنحها إزاء تلك الطروحات، رغم كم الشعارات والجمل الساخنة، والإطالة المفرطة، حيث كانت تلك الأعمال تلقى بنا في النهاية على حجر الفكر الصهيوني وقبضة منظومته الفكرية، بعد الإقرار لها بكل تأسيساتها التاريخية والقدسية، برداء إسلامي يعيد إنتاج عناصر الأيديولوجيا الصهيونية، وهو ناتج ضروري، ولزوم حتمي عن التسليم الإيماني بقدسية التاريخ الإسرائيلي، كمادة أولى وأساس في النص المقدس، وكمادة أولى في قانون الإيمان (بالله وملائكته ورسله وكتبه)، وكان الواضح أن أولئك الرسل جميعاً من بني إسرائيل نسباً وشرفاً وعقيدة، وإن تم سحب المصداقية عن مقدسهم المتداول بين الأيدي الآن بعد وصمه بالتحريف، بعد اكتشاف يهود يثرب والنبي محمد صلى الله عليه وسلم، اختلاف توجهاتهم على البعد الاستراتيجي، ومن ثم تغير التكتيك المرحلي زمن الدعوة، بالنسخ القدسي، ليتم الكشف عن الإسلام كبعد تاريخي قديم، وأن الإسلام كان مستبطناً باليهودية التاريخية، ومن ثم تمت إعادة التاريخ دورة كاملة إلى عهد النبي محمد صلى الله عليه وسلم، كما تحول جميع أنبياء وملوك دولة

إسرائيل القديمة إلى أنبياء مسلمين، كانوا يدعون بدعوة الإسلام، وإن ظلت الشهادات المنسوخة متواجدة بالمقدس الإسلامى، بكل تفاصيلها التاريخية الإسرائيلية كما هى فى المنظومة التوراتية، وظلت التوارة بصفتها الحاملة للهدى والنور، وظلت الآيات التى تذكر بهم كشعب مختار متميز فضلهم الله على العالمين، وغير ذلك لاتجد سوى تنويعات عروبية نادرة ويتيمة، عن القرى العربية البائدة، وأنبياء مثل هود وصالح، أما النسب الإسلامى والعربى، فقد ظل بدوره اسرائيلياً، بإعلان نبى الإسلام عليه الصلاة والسلام، أنه الحفيد النبوى الأخير لسلسلة إسرائيلية استعربت بعد إبراهيم، باستعراب ولده إسماعيل، واكتسابه الجنسية العربية بسكناه بلاد الحجاز، عبوراً على عمومة مؤكدة لإسحق شقيق إسماعيل، الذى أنجب اسرائيل (يعقوب) وبنيه وسلساله الطويل من أنبياء، توارثوا النبوة خلفاً عن سلف.

هذا ناهيك عن تطابق المنمنمات الدقيقة حول الإله وقدراته، وقصص الأولين الأولى بدءاً من قصة الخليقة وآدم مروراً بنوح والطوفان، حتى قيام مملكة شعب الرب (مملكة إسرائيل القديمة) فى فلسطين، ومالحق ذلك من قصص الأنبياء والمرسلين، وكلهم من ذات النسل المبارك، ثم ما أضيف فى عصر التدوين الإسلامى للسير والتاريخ، تلك المدونات التى عملت مستضيئة بحديث النبى محمد عليه الصلاة والسلام : «حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج»، والتزاماً

بقانون الإيمان، وما فرضه كل ذلك من سيادة المأثور الإسرائيلى على الحقل العربى وروحه، بعد أن غص مأثوره بالإسرائيليات.

أما الشق الثانى من عناصر الأمة، والذى يمثله المسيحيون العرب، فمعلوم منذ البدء أنهم قد سلموا لإسرائيل وتوراتها، عبر إسرائيلية المسيح وتلامذته جميعاً، نسباً، بل وبالشق الأعظم من العقيدة المسيحية، وذلك اتباعاً لأمر إيمانى، يطلب الإيمان بالمقدس الإسرائيلى القديم، والتاريخ الإسرائيلى، إعمالاً لتوجيهات يسوعية بدأت بالإعلان: « ما جئت لأنقض الناموس، بل جئت لأكمل»، ولهذا ركز المسيح تعاليمه على الجانب الأخلاقى التشريعى، وترك مادون ذلك للمؤمن يبحث عنه فى المقدس الإسرائيلى، لذلك تم ضم الكتاب اليهودى المقدس (التوراة ومجموعة الأسفار القديمة) إلى الكتاب المسيحى المقدس (الأناجيل ومجموعة رسائل التلاميذ) فى كتاب واحد مقرر على المسيحى المؤمن، يحمل عنوان (الكتاب المقدس) بشقيه (العهد القديم) و(العهد الجديد).

وإعمالا لذلك سلم المسيحيون بتاريخ إسرائيل وقدسيته وحتميتا القدرية، ونهايته المرسوم فى التقدير الإلهى لقيام مجد إسرائيل فى فلسطين مرة أخرى، بل أصبح المسيحيون هم مادة التطور الكبرى، لقيام مملكة داود وسليمان فى فلسطين بزعامة الرب يسوع صاحب الملكوت، لأنه امتداد لملوك إسرائيل القديمة، باعتباره من نسل

سليمان وأبيه داود، فهو إن إلا حفيد ملوك، تجرى فى عروقه دماء إسرائيلية ملكية، ارتفع فى المسيحية من كرسى النجارة الأرضية فى مدينة الجليل، حيث كان يمارس حرفته، إلى كرسى الألوهية فى السماء، لكن ليظل وفياً لرحمه وعشيرته، يمركز كل الحقوق التاريخية والدينية لإسرائيل فى فلسطين، لأنه هو ذاته إله اليهود، (يهوه) القائد الربانى المظفر الذى قاد شعب إسرائيل من مصر ليقيم مملكة فى فلسطين، نعم هو (يهوه) ولكن بعد أن تجلى لخرافه الضالة فى صيغة بشرية.

ومن ثم تنافس العربان، عتاة العقيدة العاضون بالنواجز على الإيمان، مسيحية وإسلام، فى تشريف تاريخ إسرائيل وتكريمه، وبينما باتت عودة المسيح لإقامة مملكة أبيه داود، والجلوس على عرش سلفه سليمان فى فلسطين، مشروعاً مسيحياً، فلا زال المسلمون ينتظرون المسيح ليقتل الدجال، ويقيم ذات المملكة، وبعدها يقف اسرافيل ينفخ فى البوق من صخرة بيت المقدس، لقيام مملكة الحق الإسلامية الخالدة، مشروعاً إسلامياً.

والأمر بهذا الشكل مشكلة إيمانية، وأزمة فكرية طاحنة، يتغافل عنها الجميع وفق صيغهم السياسية، وتكتيكاتهم المرحلية، وأهدافهم الاستراتيجية، لكن المأساة الحقيقة أنها تتجاوز ذلك الإطار إلى مستوى الأزمة الوطنية والقومية والاجتماعية، بحالة تبدو مستعصية

علـى الحـل تمامـاً، اللهـم إلا فـى عـالم الحلـم الثـورى الآتـى، وهو ـ بالركون إليه ـ يعـادل تمـاماً انتظـار المسيح قـاتل الدجـال ثـم دخـول الجنـات فـى المشـروع الإسـلامى، كمـا يعـادل انتظـار عـودة المسيح الإله وقيام المملكة المجيدة فى المشروع المسيحى واليهـودى، علـى حـد سـواء، والمـدرك لأبعـاد تلـك الأزمـة المروعـة فـى الفكـر والسلوك العربى، سيجد كماً من الإحباط الفكرى والنفسـى، والواقعـى (فى التعايش مع ذلك الفكر السـائد)، كفيـل وحـده بإلجائـه إلـى إهمـال الأمر برمته، ونفض يديه منـه، بيـأس كـامل ومطبق، لـولا بقيـة مـن روح قتالية تتشبث بالمحاولة، لوضـع لبنة حقيقية فى بناء الأمل الآتى، ضمـن لبنـات أخـرى نتمناهـا ونرجوهـا ونسـتحثها، مـن الباحثين المخلصين.

وضمـن تلـك المحـاولات يـأتى كتابنـا هـذا، الـذى جهدنـا عليـه بـالمعنى السـالف، ولا نعلـم مـدى مـا حققنـاه فيـه، الأمـر متروك فـى النهايـة للجدل القـائم الآن علـى مستوى التعـامل مـع الـتراث لتحديـد الهويـة، فقط نريـد الآن لفت نظـر القـارئ إلـى أن لـب هـذا الكتـاب وعمدته الأساس، هو بابه الثـالث، الـذى هـو هـدف الكتـاب الرئيسـى؛ لأنه معنى بالرد على تنظيرة بنى إسرائيل التاريخية، المعتمدة رسمياً وقدسياً من المؤسسة الصهيونية.

وقد رأينا أن نمهد لذلك الباب الأخير، بالبابين الأولين: التوراة، والتاريخ، لنضع بيد القارئ المفاتيح والأدوات اللازمة للتعامل مع الباب الأخير (التضليل)، بأقل قدر لازم من المشقة، وبحيث يمتلك القارئ قدراً من المعرفة المبسطة بالكتاب اليهودى المقدس، ومايكفيه من مؤونة للعلم بالمرحلة الزمنية من تاريخ اسرائيل، التى ركزت عليها تنظيرة بنى اسرائيل عملها، وسعيها.

ومن ثم، فقد تعرضنا فى الباب الأول (التوراة)، لمجموعة من الشروح حول ذلك المقدس وأهميته التاريخية، ومتى تمت صياغته بشكله الحالى، وبأى الأدوات، ولتحقيق أى أغراض؟ مع محاولة متعجلة لوضعه على محك المصداقية التاريخية، ثم أردفناه بالباب الثانى (التاريخ)، لعرض الفترة الزمنية المتعلقة برحلة الدخول الاسرائيلى إلى مصر، ثم رحلة الخروج منها إلى فلسطين، حيث تم تأسيس مملكة إسرائيل القديمة.

وعليه، أضع هذا الجهد، الذى ربما كان متعجلاً فى بعض مواضعه، كناتج محاولة المسارعة بالخروج إلى الساحة، بعد تأخر طويل، راجياً أن أكون بذلك قد وضعت بين يدى القارئ مساهمة على طريق التعامل العلمى مع طروحات الأيديولوجيا الصهيونية، مع

قناعة خاصة، أو اعتقاد، أنى أقدم به واحدة من الأدوات اللازمة، فـى الصـراع القومـى والحضـارى، الملتبـس دومــاً بالاجتمــاعى، والـذى تخوضه فصائل أمتنا الواعية اليوم.

سيد القمنى

البـاب الأول

التـــوراة



تأسيس

على الصفحة الأولى للكتاب المقدس

(النسخة العربية)

نقرأ إعلاناً أفتتاحياً يقول :

الكتاب المقدس : أى كتاب العهد القديم والعهد الجديد وقد ترجم من اللغات الأصلية وهى؛ اللغة العبرانية، واللغة الكلدانية، واللغة اليونانية.

والعهد القديم يشمل مجموعة الكتب اليهودية المقدسة، التى يشار إليها فى مجموعها ـ مجازاً ـ باسم التوراة، وهو الاصطلاح الذى استخدمناه فى عنونة كتابنا هذا للدلالة على مجموعة كتب العهد القديم، رغم أن التوراة تقتصر على الكتب الخمسة الأولى من العهد القديم، لكن الاصطلاح صار دارجاً للدلالة على مجموع الكتب اليهودية التى يشملها ذلك العهد بكامله، وهو المختص فى صفحة عنوان الكتاب المقدس، بالترجمة عن اللغة العبرانية واللغة الكلدانية، أما العهد الجديد فيشمل مجموعة الكتب المقدس للعقيدة المسيحية، وهو فقط من بين مجموع كتب الكتاب المقدس، المترجم عن اللغة اليونانية.

ويطلق على كتب العهدين اصطلاحاً لفظة (أسفار) جمع (سفر) أو كتاب، وتعنى السور أو المحيط بالمحتوى، و (سفر) هى المقابل العبرى لكلمة (سورة) فى اللغة العربية، حيث يتبادل الحرفان (ف) و(و) بين العبرية والعربية، كما فى (ليفى) العبرية، ومقابلها (لاوى) فى العربية، وقد اعتبرت تلك السور أو الأسفار عند أصحابها كتباً مقدسة، أى موحى بها، أما كلمة العهد فى التسميتين (العهد القديم) و (العهد الجديد) فتعنى الميثاق، بمعنى أن كلا المجموعتين من الكتابات عبارة عن ميثاق أخذه الله على البشر، وارتبطوا به مع الله، فكان العهد القديم ميثاق العقيدة اليهودية، بينما أصبح العهد الجديد ميثاق العقيدة المسيحية.

وكتب العهد الجديد تمثل مجموعة الأناجيل وعددها أربعة أناجيل هى على الترتيب : إنجيل متى، إنجيل مرقس، إنجيل لوقا، إنجيل يوحنا، هذا اضافة إلى سفر أعمال الرسل، ومجموعة رسائل تخص تلامذة المسيح والتى بشروا بها الأمم، وهى :

- رسائل بولس الرسول : رسالة إلى رومية، ورسالتين إلى كورنثوس، ورسالة إلى غيلاطية، ورسالة إلى إفسيس، ورسالة إلى فيلبى، ورسالة إلى كولوسى، ورسالتين إلى تسالونيكى، ورسالتين إلى تيموثاوس، ورسالة إلى تيطس، ورسالة إلى فيلمون، ورسالة إلى العبرانيين.

- رسالة يعقوب الرسول.
- رسالتين لبطرس الرسول.
- ثلاثة رسائل ليوحنا الرسول.
- رسالة ليهوذا.
- سفر الرؤيا، وهو سفر خاص ناتئ يخص رؤيا ليوحنا اللاهوتى.

وتلك الأسفار والرسائل فى مجموعها إضافة إلى الأناجيل تشكل سبعة وعشرين كتاباً أو سفراً، تكوَّن منظومة المقدس المسيحى أناجيل ورسائل مقدسة.

لكن الأهم، والذى يعنينا هنا، هو القسم الأول من الكتاب المقدس، وهو القسم الأكبر والأضخم (العهد القديم) أو التوراة، ويتضمن تسعة وثلاثين سفراً ضخماً هى على الترتيب :

سفر التكوين، سفر الخروج، سفر اللاويين، سفر العدد، سفر التثنية، سفر يشوع، سفر القضاة، سفر راعوث، سفر صموئيل الأول، سفر صموئيل الثانى، سفر أعمال الملوك الأول، سفر أعمال الملوك

الثانى، سفر أخبار الايام الأول، سفر أخبار الأيام الثانى، سفر عـزرا، سـفر نحميا، سـفر إستير، سـفر أيـوب، سـفر مزامـير النبـى داود (المعروف إسلامياً باسم الزبور لاختلاط حرفى الباء والميم بين اللسان العبرانى واللسـان العربـى)، وسـفر الأمثـال، وسـفر الجامعـة، وسـفر نشيد الانشـاد الـذى لسليمان، وسـفر إشـعيا (وهـو مجموعـة نبوءات)، وسفر دانيال، وسفر هوشع، وسـفر يوئيل، وسفر عـاموس، وسفر عوبيديـا، وسـفر يونـان، وسـفر ميخـا، وسفر نـاحوم، وسـفر حبقوق، وسفر صفينا، وسفر حجى، وسفر زكريا، وسفر ملاخى.

وعادة ما يتم تقسيم هذه المجموعة من الأسفار إلى أربعة أقسام هى على الترتيب:

القسم الأول : المعروف باسم التورة، أو كتب موسى الخمسـة، أو البانتـاتك Pentateuque ويشمل خمسـة أسـفار هـى : التكويـن Cenesis والخـروج Exodus واللاوييـن Leviticus والعـدد Nambers والتثنية Deuteronomy. وتعد تلك الأسفار الخمسة أهم أجزاء العهد القديم، وتنسب بجملتها إلى النبى موسى بوحى من الله.

ويحكى السفر الأول منهـا (التكويـن) تـاريخ العـالم من لحظـة البدء بخلق السماوات والأرض، ثم آدم ونسله، ويسير مع ذلـك النسل

حتى يصل إلى أولاد يعقوب المعروف بإسرائيل، وهم إثنى عشر ولداً يعرفون بالأسباط أو بنى إسرائيل، وينتهى السفر باستقرار هؤلاء ضيوفاً على أرض مصر، فى زمن حلت به المجاعة بالمنطقة بكاملها، ومن المرجح عند العلماء أن هذا السفر قد تم تأليفه حوالى القرن التاسع قبل الميلاد، أى بعد موسى بحوالى خمسة قرون، وهو افتراض علمى لا يأخذ بعين الاعتبار مسألة نسبته للوحى أو لموسى من الأساس.

أما السفر الثانى (الخروج) فيعرض للأحداث التى مرت بها القبيلة الإسرائيلية فى مصر، وقصة النبى موسى وقيادته لبنى إسرائيل فى رحلة خروج ـ أو هروب ـ كبرى، ويحكى السفر أحداث الرحلة بتدقيق وتفصيل شديدين، ويشير إلى أسماء ومواضع الحل والترحال بكثافة وإصرار، إضافة لما يحويه ذلك السفر من بعض أحكام الشريعة اليهودية فى العبادات والمعاملات والعقوبات، ويرجح أنه قد تم تأليفه زمن تأليف سفر التكوين.

والسفر الثالث هو سفر (التثنية)، الذى شغل معظمه بأحكام الشريعة اليهودية الخاصة بالحرب والسياسة والاقتصاد، والمعاملات والعقوبات والعبادات، وقد سمى التثنية لأنه ثنى أو أعاد ذكر التعاليم التى يفترض أن موسى تلقاها من ربه، لكن العلماء يرجحون أن هذا

السفر قد تم تأليفه فى أواخر القرن السابع قبل الميلاد، أى بعد موسى بحوالى سبعة قرون، وذلك أثناء وجود القبيلة الإسرائيلية فى المنفى البابلى.

والسفر الرابع هو سفر (اللاويين) أو الليفيين، نسبة إلى لاوي أو ليفى Levi أحد الأسباط، والإشارة هنا إلى أبناء ليفى أو سلسلة نسله من أحفاد الأحفاد، الذين اشتغلوا بالكهانة اليهودية، ومن هؤلاء الأبناء كان النبى موسى، وقد شغل معظم هذا السفر بشؤون العبادة وطقوسها، خاصة ما تعلق منها بطرق تقديم الأضاحى والقرابين.

أما السفر الخامس وهو سفر (العدد)، فقد اهتم باحصائيات عن عدد قبائل بنى إسرائيل، وجيوشهم، وأموالهم، وأى أمر كان يمكن إحصاؤه فى شؤونهم، لذلك سمى (العدد) من عملية العد والإحصاء.

القسم الثانى : ويعرف بالأسفار التاريخية، وعددها أثنى عشر سفراً، قامت بعرض تاريخ بنى إسرائيل بعد استيلائهم على كنعان (فلسطين)، وهى أسفار: يشوع Josue (ويشوع هو خليفة موسى على قيادة بنى إسرائيل إلى فلسطين بعد موت موسى، بعد استيلائهم على بعض أرض فلسطين)، ثم سفر راعوث Ruth (وهو اسم جدة داود من جهة أبيه)، ثم سفر صموئيل الأول، وصموئيل الثانى (وصموئيل هو آخر قضاة إسرائيل قبل انتهاء النظام القبلى وقيام

المملكة المركزية)، ثم يلى ذلك سفران بعنوان أعمال الملوك أول وثانى، ويحكى تاريخ ملوك بنى إسرائيل بدءاً من أول ملوكهم (شاؤول) مروراً بداود وولده سليمان وسلسلة الملوك من بعدهم، ويلى ذلك سفران بعنوان أخبار الأيام، وهما أول وثانى بدورهما، ويعرضان على الترتيب شجرة النسب من آدم إلى يعقوب إسرائيل، وهو تكرار سبق عرضه فى سفر التكوين، ثم بعد ذلك يتم تقديم عرض لتاريخ داود، ثم ولده سليمان، ثم عرض لتاريخ إسرائيل السياسى بعد سليمان.

ويأتى بعد ذلك سفر عزرا Esdras وينسب إلى عزرا النبى الذى تمكن من إعادةالاسرائيليين من منفاهم فى بابل إلى فلسطين، وذلك حوالى القرن الخامس قبل الميلاد، وإليه تنسب محاولة إعادة تجديد الديانة ونفخ الروح فى القومية الإسرائيلية، إضافة إلى قيامه بتجديد بناء الهيكل، وينسب إلى عزرا النشط هذا تحرير كثير من أسفار العهد القديم، حتى بلغ منزلة عظيمة الشأن، عند بنى إسرائيل.

ومن بين تلك الأسفار التاريخية يأتى أيضاً سفر نحميا Nehemie نسبة إلى نحميا، أحد وجهاء بنى إسرائيل، والذى تمكن بمساعدة عزرا من إقناع ملك الفرس، بالسماح لهم ببناء الهيكل مرة أخرى، ويلى نحميا سفر إستير Esther وهو سفر صغير يشتمل على

تسعة إصحاحات فقط، يروى قصة الإسرائيلية الجميلة إستير، التى تمكنت من إغواء أخشويريش ملك الفرس فتزوجها، كما تمكنت من إحباط مؤامرات وزيره هامان ضد بنى ملتها، ودبرت مع عمها الكاهن مردخاى مكيدة قضت عليه وعلى أنصاره، حتى سمح لهم الملك الفارسى بالولوغ فى الدم كيف شاءوا، فقام الإسرائيليون بذبح الآلاف من قوم هامان ونساءهم وأطفالهم، وحتى اليوم يحتفل أصحاب الملة اليهودية بذكرى تلك المذبحة الدموية فى عيد البوريم، أو عيد إستير، وذلك فى شهر مارس من كل عام.

القسم الثالث : ويعرف بمجموعة أسفار الأناشيد أو الأسفار الشعرية، ويشمل أسفاراً فى صيغ الأناشيد والمواعظ الدينية المؤلفة تأليفاً شعرياً وهى خمسة أشعار أولها أيوب Jop ثم المزامير Bsaumes وبعده سفر أمثال سليمان Bruverbes ثم سفر الجامعة Ecclesiastes وهو منسوب بدوره لسليمان، ومن بعده سفر نشيد الإنشاد Canuque des Cantigues وهو بدوره من أعمال سليمان حسب عنوانه (نشيد الإنشاد الذى لسليمان).

القسم الرابع : ويسمى بمجموعة أسفار الأنبياء (النبيم)، ويشمل سبعة وعشرين سفراً تعرض لتاريخ أنبياء إسرائيل بعد موسى، وهى إشعيا Esaie وإرميا Jeremie ومراثى إرميا، وحزقيال Ezechiel،

ودانيال Daniel وهوشع Osee ويوئيل Joe وعاموس Amos وعوبديا Abdias ويونس Jonas وميخا Michee وناحوم Nahum وحبقوق Habakuk وصفنيا Sophonie وحجى Ajjee وزكريا Zacharie وملاخى Malachie.

ويرجح العلماء أن معظم تلك الأسفار قد تم تأليفها بين النصف الأخير من القرن التاسع قبل الميلاد، وأوائل القرن السادس قبل الميلاد، وأن بعضها يمكن تزمينه بأواخر القرن الرابع قبل الميلاد.



علاقة النبى موسى بالتوراة :

بات معلوماً ـ اليوم ـ أن نسبة الأسفار الخمسة الأولى (التوراة) إلى النبى موسى، أمراً مشكوكاً فيه تماماً، وغير علمى بالمرة، بل أصبح من العلمية القطع بتأليفه على يد عدد من الكتاب الذين اختلفت مشاربهم وأمزجتهم وثقافتهم ومواقعهم الاجتماعية وتوجهاتهم العقائدية، وهو الأمر الذى فرض نفسه فى النهاية على المؤسسات الدينية ذاتها،حتى أنك تجد فى مقدمة الطبعة الكاثولوكية للكتاب المقدس، الصادرة فى عام ١٩٦٠ مانصه :

> ما من عالم كاثوليكى فى عصرنا، يعتقد أن موسى ذاته كتب كل التوراة، منذ قصة الخليقة، أو أنه أشرف حتى على وضع النص، لأن ذلك النص قد كتبه عديدون بعده، لذلك يجب القول : إن ازدياداً تدريجياً قد حدث، وسببته مناسبات العصور التالية، الاجتماعية والدينية.

وقد كان السبب فى إطلاق اصطلاح (أسفار موسى الخمسة) على التوراة، هو افتراض إيمانى ينسب تأليفها إلى النبى موسى، حتى صار ذاك الافتراض عقيدة يهودية منذ عهد فيلون السكندرى ويوسفيوس فى القرن الأول قبل الميلاد، اللذان عاصراً المسيح،

وأعلنا أن موسى هو مؤلف التوراة، وهي العقيدة التى ظلت تأخذ بها الكنيسة إلى زمن قريب، ولا تزال سائدة فى كثير من الكنائس.

إلا أن التوراة نفسها تقدم لمن يبحثها شواهد تقطع بأن تلك النسبة إلى موسى باطلة تماماً، ومن تلك الشواهد على سبيل المثال.

- هناك عبارات تتعلق بموسى فى التوراة، ويستحيل أن تصدر عنه وذلك مثل الآية التى تقول : « وأما الرجل موسى فكان حليماً جداً أكثر من جميع جميع الناس الذين على وجه الأرض ــ عدد ١٢ : ٣ » فهنا واضح تماماً أن الكاتب شخص آخر يتحدث عن موسى، ويذهب إلى تأكيد حلم (الرجل موسى)، كما لو كانت محاولة للتنصل من أحداث فى سيرة ذلك النبى التوراتية، تنفى عنه صفة الحلم بالمرة، ومثل تلك الآية، أخرى تقول: « وأيضاً الرجل موسى كان عظيماً جداً فى أرض مصر، فى عيون فرعون وعيون الشعب ـ خروج ١١ : ٣ ». هذا ناهيك عن الخبر الخاص بوفاة موسى والذى يقول: « فمات هناك موسى عبد الله فى أرض مواب حسب قول الله، ودفنه فى الجواء فى أرض موآب ـ تثنية ٣٤ : ٥ »، وبالطبع يستحيل أن يكتب موسى عن نفسه أنه قد مات، بل ويحدد موضع دفنه.

- إنك تجد فى التوراة أسماء لمواضع جغرافيية يستحيل أن يكون لدى موسى علم بها، لأنها فى عمق أرض فلسطين وموسى مات ولم تطأ قدمه أرضى فلسطين، إضافة إلىأن أكثر تلك الاسماء لم تكن قد سميت زمن موسى، بل تمت تسميتها حسب ظروف ومستجدات حدثت بعد موسى بثلاثة أو أربعة قرون، مثل اسم مدينة دان (تكوين ١٤:١٤، تثنية ٣٤ : ١)، ومثل مجموعة القرى المعروفة باسم يائير (عدد ٣٢ : ٤١ ، تثنية ٣ : ١٤)، وهى القرى التى لم تظهر أصلاً فى الوجود إلا فى عصر القضاة بعد زمن موسى بقرون (أنظر القضاة ١٠ : ١٤).
- وفى قصة يوسف خطأ تاريخى هائل، يطلق على فلسطين أرض العبريين (تك ٤٠ : ١٥) وهو الاسم الذى لم يطلق إلا بعد ذلك بزمان، بينما قبل ذلك - بتأكيد التوراة نفسها - كانت تسمى أرض الفلسطينيين، وأرض الكنعانيين.
- وفى سفر التكوين سقطة فاضحة تؤكد كتابة التوراة بعد قيام الملكية المركزية لاسرائيل، أى بعد أربعة قرون من زمن النبى موسى، والسقطة تتضح فى حديث التوراة، وقولها أن ما ترويه عن زمن موسى، كان « قبل أن يملك ملك من ابناء

اسـرائيل ـ تكويـن ٣٦ : ٣١، عـدد٢٤ :٧ » وهـى جملـة لا يكتبها إلا شـخص عـاصر العهـد الملكـى وعـرف بقيـام المملكة، إنها بالقطع لا يمكن أن تكتب إلا فى العصر الملكـى لإسرائيل.

- هناك تعبير متواتر فى التوراة هو (حتى اليوم)، يلحـق قـص بعض الأحداث، كالقول أنه تم تسمية مدينـة كذا بهذا الاسـم وهذا اسمها (حتى اليوم)، أو أن الحـدث الفلانـى قد أدى إلـى تدمـير مدينـة كذا وظلـت علـى حالهـا ذلـك (حتـى اليـوم)، والملاحـظ أن كل التسميات والأحـداث التـى لحق بها هـذا التعبير، تمت بعد عصر موسى بقـرون، إضافـة إلـى مسـاحة زمنية أخرى يضيفها تعبير (حتى اليوم)، أى حتى يـوم كتابـة الحدث وتدوينه، وهو ما يشير باليقين إلى مسافة زمنية أخرى تفصل بين الحدث وبين زمن التدوين، مما يبعد بزمـن كتابـة التوراة عن زمن موسـى مسـافات أخـرى، ونموذجـاً لذلـك التعبـير المتواتـر مـا يمكنـك أن تجده فـى عـدة مواضـع مثـل (تكويـن ٣٥ : ٢٠، تكويـن ٤٧ : ٢٦، تكويـن ٤٨ : ١٥، وخـروج ١٠ : ٦، وعـدد ٢٢ : ٣٠، وتثنيـة ٢ : ٢٢، وتثنية١٠ : ٨ وتثنية ١١ : ٤).

● أما تعبير (ولم يظهر نبى مثل موسى ـ تثنية ٣٤ : ١٠) فهو يشير إلى معرفة الكاتب بظهور أنبياء بعد موسى، والمفترض أن ذلك لم يكن معلوماً زمن موسى، علماً أن هؤلاء الأنبياء لم يبدأ تواجداهم الفعلى إلابعدعهد صموئيل ومع قيام المملكة الإسرئيلية.

وعلى مثل تلك الملاحظات التى يمكن لقارئ مدقق أن يراها فى التوراة، تتالت التأكيدات التى ترفض نسبة التوراة إلى موسى، فكان تأكيد توماس هوبز الفيلسوف الإنجليزى (١٥٨٨ ــ ١٦٧٩): أن تدوين التوراة قد تم بعد موت موسى بزمن طويل، ثم تبعه الفيلسوف اليهودى باروخ اسبينوزا (١٦٣٢ ــ ١٦٧٧) الذى انتهى إلى إنكار أى احتمال يمكن بموجبه نسبة التوراة إلى موسى، وقدم على ذلك شواهد عديدة، وقدم عدداً من القرائن التى تشير إلى ان كتب العهد القديم بدءاً من سفر التكوين وحتى سفر الملوك الثانى، قد كتبها عزرا الذى عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد. وكان الطبيب الفرنسى جاك أوستراك (١٦٨٤ ــ ١٧٦٦) أول من كشف عن احتواء سفر التكوين على روايتين مختلفتين، وأوضح حقيقة وجود اسمين مختلفين للإله فى ذلك السفر وفى قسم من سفر الخروج، هما (إلوهيم = الآلهة) و(يهوه). وقد ربط (أوستراك) بين ذلك وبين روايات التوراة فاكتشف أن الأجزاء التى تستخدم اسم إلوهيم تروى رواية مختلفة عن تلك التى تستخدم اسم يهوه.

ويأتى الألمانى (جراف ــ ١٨٦٥) ليكمل تلك الدراسات، فيقوم بعملية عكس وقلب شامل للتصور التقليدى، الذى شاع عن كون القصة الإلوهيمية هى الأقدم، ليؤكد أن القصة اليهوية كانت هى الأقدم، بينما دونت القصة الإلوهيمية فى فترة العودة من المنفى البابلى زمن عزرا، وذلك خلال القرن الخامس قبل الميلاد. [١]

ولعل أهم ما ينفى نسبة التوراة إلى موسى. أنها لم تكن أبداً موضوعاً واحداً متكاملاً دفعة واحدة، يؤكد ذلك التكرار الذى يمكنك ملاحظته فى قصة الخلق، مما يشير إلى اختلاف المؤلفين، بل أنك تجد فى ذلك التكرار مخالفات جوهرية، ونماذج لتلك الروايات والمخالفات ما يمكن أن نورده كأمثلة وليس حصراً :

فى قصة الخلق أو التكوين التى يمكن للقارئ الرجوع إلى نصها كاملاً بالتوراة منعاً للإطالة، يمكننا أن نقف على ذلك التناقض فى فعل الخلق، الذى يقوم به مرة من سمى فى الترجمة العربية (الله) وهو فى الأصل العبرى (يهوه)، كما فى القول : « فى البدء خلق الله

---

(١) للمزيد حول علاقة موسى بالتوراة أرجع إلى

- اسبينوزا : رسالة فى اللاهوت والسياسة، ترجمة د. حسن حنفى، دار الطليعة، بيروت ط٢، ١٩٨١.

- د. فؤاد حسنين على : التوراة الهيروغليفية، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت.

السماوات والأرض ـ تكوين ١ : ١» أو كما في القول : « وقال الله ليكن .. كذا وكذا »؛ ومرة أخرى نجد الخالق في ذات القصة لكن في مواضع أخرى هو (إللوهيم) أو (الآلهة)، وذلك كما في قوله لأعضاء مجمعه الإلهي: « نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا ــ تكوين ١ : ٢٦ ».

وفي موضع من القصة يقوم الإله بخلق السماء والأرض دفعة واحدة « في البدء خلق الله السماوات والأرض ـ تكوين ١ :١» بينما في موضع آخر تكون السماء والأرض موجودتان في الأصل في هيئة غمر ماء أزلي مظلم، يفتقه الله عن بعضه إلى سماء وأرض « وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه.. وقال الله ليكن جلد في وسط المياه، وليكن فاصلاً بين مياه ومياه، فعمل الله الجلد.. ودعا الله الجلد سماء ــ تكوين ١: ٢ ـ ٨ ».

وفي مشهد آخر من دراما التكوين، نجد الإله يقوم بإنبات النبات في الأرض ويضع فيها حيوانها ودباباتها « وقال الله لتنبت الأرض عشباً وبقلاً يبزر بزراً وشجراً ذا ثمر يعمل ثمراً كجنسه

بزره فيه على الأرض ـ تكوين ١ ـ ١١ » وفى مشهد آخر نجد برية بلا عشب يقوم الرب الإله فيها بخلق آدم، ثم يضعه فجأة فى مكان يدعى جنة عدن ليزرع أرضها ويفلحها » هذه مبادئ السماوات والأرض حين خلقت، يوم عمل الرب الإله الأرض والسماوات، كل شجر البرية لم يكن بعد فى الأرض، وكل عشب البرية لم ينبت بعد.. وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض.. وغرس الرب الإله جنة فى عدن شرقاً ووضع هناك آدم الذى جبله ـ تكوين ٢ :١ ـ ٨ ».

أما أفصح الإشارات لوجود روايتين مختلفتين لقصة الخلق، فهو ما جاء عن آدم عندما وضع فى الجنة، فمرة نعلم أنه لم يكن محرماً عليه أكل ثمرة الخلد أساساً، بينما نفهم فى موضع آخر أنه كان مخلوقاً للفناء » حتى تعود إلى الأرض التى أخذت منها، لأنك تراب، وإلى التراب تعود ـ تكوين ٣: ١٩».

ثم تناقض آخر، فلدينا رواية تؤكد أن عملية الخلق قد بدأت بخلق السماوات والأرض دفعة واحدة » فى البدء خلق الله السوات والأرض ـ تكوين ١ : ١»، وأنه بعد ذلك تقرر إنارة الكون » وقال الله ليكن نور فكان نور. ودعا الله النور نهاراً والظلمة دعاها ليلاً ـ تكوين ١ : ٣ ـ ٥ »، بينما لدينا رواية أخرى تتحدث عن السماء

والأرض كموجود واحد أصلى فى هيئة محيط أزلى مظلم، وترجئ تلك الرواية إيصال الإنارة إلى ما بعد فتق هذا المحيط إلى سماء وأرض " وقال الله ليكن جلد فى وسط المياه، وليكن فاصلاً بين مياه ومياه. ودعا الله الجلد سماء.. وقال الله لتكن أنوار فى جلد السماء لتفصل بين النهار والليل ـ تكوين ١ : ٦ ، ٨ ، ١٤ ".

أما أبرز الشواهد على مزج روايتين مختلفتين للتكوين، فهو الكيفية التى تم بها خلق الإنسان الأول، ففى مواضع من القصة نجد الخالق يخلق الإنسان دفعة واحدة، ككائن واحد يجمع فى ذاته الواحدة بين الذكورة والأنوثة " يوم خلق الله الإنسان على شبه الله عمله، ذكراً وأنثى خلقه وباركه ودعا اسمه آدم ـ تكوين ٥ :١"، لكن فى موضع آخر نجد الإله يخلق زوجين متمايزين ذكراً وأنثى "على صورة الله خلق الزوجين، ذكراً وأنثى خلقهم ـ تكوين ١ :٢٧ ".

وبالطبع لم تكن شواهد التداخل بين روايات مختلفة تم جمعها، أمراً واضحاً فى قصة الخلق وحدها، فهناك دلائل أخرى فى روايات أخرى تشير إلى هذا الأمر بوضوح، ففى قصة نوح نجد رواية تقول أن الله قد أمر نوحاً أن يأخذ معه فى الفلك من كل زوجين أثنين " ومن كل حى من كل ذى جسد أثنين من كل، تدخل إلى الفلك

لاستبقائها معك، تكون ذكـراً وأنثـى ــ تكويـن ٦ : ١٩ »، بينمـا نجد رواية أخرى ترتفع بهذا الرقم فتقول « من جميع البهائم الطاهرة تـأخذ معك سبعة سبعة ذكراً وأنثى ـ تكوين ٧: ٢ »، ثـم فـي موضـع نجد نوحاً يستكشف أحوال الطوفان « وأرسل الغراب فخـرج مـتردداً حتـى نشفت المياه عن الأرض ـ تكوين ٨ :٧ »، بينما المستمر في القـراءة يجد المياه لم تنشف بعد، فيرسل الحمامـة، ثـم بعد فـترة « فـي الشـهر الثـاني فـي اليوم السـابع والعشـرين مـن الشـهر جفـت الأرض ـــ تكويـن ٨ :١٤ »، والقصـة النوحيـة مليئـة بمثـل تلـك التناقضـات التـي لا تغيب على فراسة قارئ مهتم، وهي ذات التناقضات التي تغص بها بقية أسفار التوراة بلا استثناء، فهناك كمثال، تعليـلات قدمتهـا التـوراة لتفسير بعض التسميات، كتعليلها لتسمية مدينة (بئر سبع) بهذا الاسم، فالتسمية في رواية تقول أنها سميت كذلك نسبة إلى سبع نعـاج قدمهـا النبي إبراهيم لأبيمالك ملـك مدينـة جـرار الفلسطينية، كرمـز لميثـاق عدم اعتداء بينهما، وهو الوارد في (تكوين٢١ : ٢٨ ــ ٣١)، لكـن في رواية أخرى نجد التسمية تعود إلى إسحق ابن إبراهيم الـذي حفـر له عبيده بئر ماء « فدعاها شعبه، لذلك اسم المدينة بئر سبع إلـى هـذا اليوم ـ تكويـن ٢٦ : ٣٣ »، وذات التنـاقض نجده فـي تعليـل تسـمية

مدينة (بيت إيل)، فهو فى رواية ينسب إلى يعقوب ابن اسحق عندما نام فأتاه الله فى المنام، فقام متيقناً أن هذا المكان مسكن الإله فسماه بيت الإله أو بيت إيل "ودعا اسم ذلك المكان بيت إيل، ولكن اسم المدينة أولاً كان لوز ـ تكوين ٢٨ : ١٩ "، وفى رواية أخرى تنسب التسمية إلى يعقوب أيضاً لكن فى قصة آخرى ومناسبة أخرى حيث حدثه الله "ودعا يعقوب اسم المكان الذى فيه تكلم الله معه بيت إيل ـ تكوين ٣٥ : ١٥"، هذا بينما نعلم من التوراة ذاتها أن المدينة كانت تحمل اسم بيت ايل قبل يعقوب وقبل أبيه اسحق وقبل جده إبراهيم حيث نعلم أن إبراهيم عندما هبط أرض فلسطين غريباً، "ثم نقل من هناك إلى الجبل شرقى بيت إيل ونصب خيمته، وله بيت إيل من المغرب وعاى من المشرق ـ تكوين ١٢ : ٨ ".

وفى قصة يوسف نجد يهوذا أحد الأسباط وهو هو صاحب اقتراح بيع يوسف للإسماعيلين بعشرين متقالاً (تكوين ٣٧ : ٢٦ ـ ٢٨) بينما فى موضع آخر نجد رأوبين أخيهم يقترح إلقاءه فى الجد (تكوين ٣٧ : ٢١،٢٢،٢٤)، ثم تجد نفسك هنا فى متاهة : هل ألقوه أم باعوه، ومن الذى أنقذه أو أشتراه، تجار إسماعيليون أم مديانيون، التضارب هنا يصل قمته فلا تخرج بطائل.

وعليه فلا مناص من الاعتراف بأن التوراة، مجموعة جمة من التآليف التى اشترك فى وضعها مجموعة مؤلفين، اختلفوا، ولم يلتقوا أبداً لتصفية ما بينهم من خلافات، وأن هذه المجموعة من التآليف تعنى بمسائل دينية ودنيوية وسياسية وأدبية وتاريخية، أما الذى يجب الإشارة إليه وعدم إهماله فهو شهادة العهد القديم نفسه فى كثير من الإشارات الواضحة إلى أسفار يحيلنا إليها، فلا نجدها ضمن المقدس المجموع، مما يدلل بسفور على ضياع كثير من الكتب والأسفار ونموذجاً لذلك، وهنا سنحاول الحصر، وسنأتى بالنصوص التوراتية التى تحيلنا لمزيد من التفصيل فى أسفار أخرى، بينما هذه الأسفار غير موجودة على الأطلاق.

- لذلك يقال فى كتاب حروب الرب : واهب فى سوفة وأودية أرنون ــ العدد ٢١ : ١٤ (هنا سفر حروب الرب وهو غير موجود) .

- فدامت الشمس ووقف القمر حتى انتقم الشعب من أعدائه، أليس هذا مكتوباً فى سفر ياشر، فوقفت الشمس فى كبد السماء ولم تعجل للغروب نحو يوم كامل ـ يشوع ١٠ : ١٣.

(هنا سفر ياشر، وهو مفقود بذوره).

- فكلم صموئيل الشعب بقضاء المملكة وكتبه فى السفر ووضعه أمام الرب ـ صموئيل الأول ١٠ : ٢٥.

(وهنا سفر قوانين المملكة، وهو غير موجود).

- وأمور داود الملك الأولى والأخيرة، هى مكتوبة فى سفر أخبار صموئيل الرائى، واخبار ناثان النبى، وأخبار جاد الرائى ـ اخبار أيام أول ٢٩ : ٢٩.

(وهنا ثلاثة أسفار هى أخبار صموئيل الرائى وناثان النبى وجاد الرائى، وهى بدورها لا يعلم شيئاً عنها).

- وبقية أمور سليمان الأولى والأخيرة، إما هى مكتوبة فى أخبار ناثان النبى، وفى نبوءة أخيا الشيلونى، وفى رؤى يعدو الرائى ـ أخبار أيام ثانى ٩ : ٢٩.

(وهنا إشارة إلى سفرين آخرين مفقودين هما سفر أخيا الشيلونى، وسفر يعدو الرائى).

- وبقية أمور يهو شافاط الأولى والأخيرة، هاهى مكتوبة فى أخبار ياهو بن حنانى، المذكور فى سفر ملوك إسرائيل ـ أخبار أيام ثانى ٢٠ : ٣٤.

(وهنا سفر آخر مفقود هو سفر أخبار ياهو بن حنانى).

- وبقية أمور عزيا الأولى كتبها أشعيا بن أموص النبى — أخبار أيام ثانى ٢٦ : ٢٣.

(والإشارة هنا إلى سفر غير سفر إشعيا المعروف، فالسفر المفقود هنا لإشعيا النبى، وقد دونه عن الملك الإسرائيلى عزيا).

- وبقية أمور حزقيا ومراحمه، هاهى مكتوبة فى رؤيا إشعيا بن آموص النبى - أخبار أيام ثانى ٣٢ : ٣٢.

(وكذلك فإن أخبار الملك الإسرائيلى حزقيا بدورها ليست مدونة فى سفر إشعيا المعروف، وعليه فهناك سفر دونه إشعيا عن أخبار هذا الملك فقد بدوره، وربما كان هو ذات السفر المفقود الذى أشرنا إليه فى الفقرة السابقة مباشرة).

- ورثى إرميا يوشيا، وكان جميع المغنين والمغنيات يندبون يوشيا فى مراثيهم إلى اليوم، وجعلوها فريضة إسرائيل — أخبار أيام ثانى ٣٥ : ٢٥.

(وهنا إشارة لمراثى كتبها النبى إرميا على الملك الاسرائيلى يوشيا، الذى قتل على يد الفرعون المصرى نخاو، وأن تلك المراثى كانت ترتل كطقس فرضى على بنى إسرائيل فى صلواتهم، أو فى تاريخ المناسبة السنوى، وهى غير موجودة فى إرميا أو مراثية

الموجودة بالعهد القديم الموجود بين أيدينا، مما يشير إلى كونها شكلت سفراً بذاتها فقد بدوره).

- وكان بنو لاوى رؤوس الآباء مكتوبين فى سفر أخبار الأيام إلى أيام يوحانان بن الياشيب نحميا ١٢ : ٢٣.

(وبالبحث فى السفر الموجود بالعهد القديم والمعروف بأخبار الأيام الأول، والسفر المعروف بأخبار الأيام الثانى، لم نجد تلك الإشارات حتى يوحانان بن الياشيب، مما يقطع بوجود سفر أخبار أيام ثالث هو المقصود بتلك الإشارة، وهو غير موجود بالعهد القديم، مما يشير إلى ضياعه بدوره).

وتأسيساً على ذلك يمكن القول أن هناك ستة عشر أو سبعة عشر كتاباً قد ضاعت فى العقد القديم، وربما يصل الرقم إلى عشرين إذا أخذنا بإشارات إلى ثلاثة كتب مفقودة تنسب إلى الملك سليمان، هذا عدا ما ضاع ولم تشر إليه أسفار العهد القديم، ولم نعلم بأمره، وكان ضياع تلك الأسفار وغيرها أمراً محتوماً، اقتضته ظروف المنطقة والحروب التى خاضها الإسرائيليون، والتى تعرض أثناءها هيكلهم للتدمير والتلف أكثر من مرة، هذا إضافة للمدة الطويلة التى تطلبها تدوين ذلك المقدس الهائل، والتى امتدت حوالى ألف عام، وكان هذا بحد ذاته مدعاة لنقص شديد تعرض له ذلك الكتاب، والذى

يلقى بظله على أى بحث دينى أو تاريخى فيه، ناهيك عن خضوع الأسفار لمؤثرات مختلفة وعديدة باختلاف الأزمان والأحداث التى عملت فيها حذفاً أو زيادة، حتى أنك تجد اليوم نزاعاً داخل المؤسسات اللاهوتية ذاتها، حول مدى أصالة سفرى الجامعة ونشيد الإنشاد، وهل هما مقدسين يهوديين، أم دخيلين من ديانات أخرى.

انتهى التطور الأخير لأعمال مدرسة يوليوس فلهاوزن الألمانية حول الكتاب المقدس (١٨٤٤ ـ ١٩١٨)، إلى الكشف عن وثائق أربعة مختلفة يتكون منها المقدس اليهودى التوراتى (العهد القديم)، هى على الترتيب:

١ ـ مصدر يهوى : Jahwist ويرمز له اختصارا بالرمز (J) وقد أخذت التسمية من أسم الإله يهوه Jahouva . لأنه الاسم الإلهى الغالب على الاستعمال فى هذا المصدر، ويرجع تأليفه إلى حوالى عام ٨٥٠ ق.م فى مملكة يهوذا، أى المملكة الجنوبية، وقد ركز هذا المصدر على الوعد الذى أعطاه الله للبطاركة من إبراهيم إلى موسى، وإن كان يحق لنا أن نرى ذلك التركيز فى هذا المصدر، محاولة لإضفاء الشرعية التاريخية والدينية، على الإئتلاف الذى أنشأه داود، بوضعه هو وأسلافه فى خضم تاريخ أقدم، لجعل مملكة داود عهداً مع الله، يمتد شرعاً إلى العهد مع إبراهيم وإسحق ويعقوب وموسى، ويمنح وحدة القبائل المعروفة بالأسباط وجوداً تاريخياً قديماً، وهى الوحدة التى لم تتحقق إلا بعد خروج قبائل راحيل الإسرائيلية من مصر، بقصد وضع أساس قومى تاريخى متين

للدولة التى وحدت القبائل، حتى يصعد بتاريخ تلك القومية التاريخية عبر الأنساب إلى زمن الخلق الأول.

٢ ـ مصدر إلوهيمى : Elohist ويرمز له اختصاراً بالرمز (E) نسبة إلى الاسم الإلهى الغالب فى ذلك المصدر وهو (إيل El) أى الإله، وإللوهيم أى الآلهة، ويرجع زمن تأليفه إلى حوالى ٧٧٠ق.م، ويرجح أنه قد تم تأليفه فى المملكة الشمالية إسرائيل، ثم تم بعد ذلك إدماج المصدرين اليهوى (J) والإلوهى (E) فى مجموعة واحدة يرمز إليها بالرمز (EJ) وذلك حوالى عام ٦٥٠ق.م وقد عنى هذا المصدر، باستكمال النقص الذى حدث فى المصدرين اليهوى والكهنوتى.

٣ ـ سفر التثنية (Deuteronomy) ويرمز له اختصاراً بالرمز (D) ويعنى بالإغريقية (القانون الثانى)، ويعد مصدراً منفصلاً، تم تأليفه خلال القرن السابع قبل الميلاد، وتزعم الرواية التوراتية أنه كان مخفياً فى مكان أو فجوة بجدران المعبد، وتم الكشف عنها عام ٦٢٢ ق.م أثناء حكم الملك اليهودى (يوشيا) Josias عند ترميم معبد أورشليم (ملوك ثانى ٢٢ : ٣ ـ ١٠) و (٢٢ : ٣ ـ ٢٥)، حيث عثر المرممون فى وجود كبير الكهنة (حلقيا) على كتاب الشريعة وأحضروه

للملك، فترك فيه أثراً عظيماً، حتى قام بموجبه يحرم كل الطقوس المتخلفة عن الوثنية، وقصر العبادة على معبد يهوه فى أورشليم وحده، لكن الملاحظ هو تعرض ذلك المصدر لكثير من الحشوو الإضافات من عناصر ثقافية لا علاقة لها بالبيئة الصحراوية البدوية، وواضح أن كاتبها ينتمى لثقافة دولة متماسكة يحكمها ملك، ويعنى هذا السفر بالإضافة للشريعة، بوضع تشاريع الحرب وما جاء من أوامر إلهية بشأنها.

٤ ـ المصدر الكهنوتى : Priestly ويرمز له اختصاراً بالحرف (P) وهو تجميع كهنوتى يرجع إلى القرن الخامس قبل الميلاد، ويركز على شعائر العبادة والطقوس، ويعود للتركيز على العهد مع نوح وإبراهيم وموسى وداود، ويقوم جوهره على وجوب إخلاص اليهود للعهد حتى يستحقوا الخلاص والوفاء بالعهد، وذلك عن طريق التزامهم شريعتهم بدقة، وشريطة أن يتمسكوا بلحظتين تاريخيتين جوهريتين: لحظة العهد القديم مع الله الذى أخذوا فيه الأرض مقابل الختان، أما اللحظة الأهم والأخطر فهى لحظة الإنقاذ بكبرى المعجزات (فلق البحر) عند الخروج من مصر، لذلك يكاد العزف على معجزة البحر عند اليهود، يشكل ترنيمة دائمة، وركناً أساسياً فى الاعتقاد، ويرجع

زمن ذلك المصدر إلى عهد (عزرا)، وقد تم إدماج هذا المصدر مع المصدر اليهوى والمصدر الألوهيمى حوالى نهاية القرن الخامس قبل الميلاد.

وانتهت المدرسة الألمانية، إلى أنه قد تم تجميع المصادر الأربعة في كتاب واحد، هو العهد القديم، حوالى عام ٢٠٠ق.م، أما الأسفار المتأخرة مثل سفر المكابيين الأول والثانى (فى النسخة السبعينية اليونانية)، فقد تم تحريرها خلال القرن الأول قبل الميلاد، إلا أن مدرسة (فلهاوزن) قامت بعمل جرئ حقاً عندما عكست الترتيب اللاهوتى التقليدى القديم لتأليف الأسفار، بناء على ما أصبح بيدها من نتائج، وبحيث أصبح الترتيب يعاد على النحو التالى: أسفار الأنبياء، فالأسفار التاريخية، ثم أسفار موسى الخمسة مضافاً إليها سفر يشوع لتتشكل التوراة من ستة أسفار بدلاً من خمسة، ثم أضيفت إليها الأسفار بترتيب منهجى حسب مادتها، وليس حسب الترتيب الزمنى لتأليفها.

أما عن الطرق والوسائل والأدوات التى استخدمها مؤلفو التوراة ومحرروها فى التدوين، فهى ما يمكن استخراجه من الكتاب المقدس ذاته، فنجد سفر إرميا (٢:٣٦) يحدثنا عن تدوين الأدراج، بمعنى اللفائف، وتكتب من اليمين إلى اليسار، وقد أكدت ذلك

الأسلوب فى الكتابة أسفار عدة، مثل سفر حزقيال (٢ :٩،٣ : ١) وسفر زكريا (٥ :١،٢) وسفر المزامير (٤٠ ـــ ٨)، أما الأدلة التى استخدمت فى الكتابة على اللفائف، فكانت أحياناً قلم الأردواز كما يذكر المزمور (٤٥: ٢)، أو باستخدام الأحبار كما فى سفر إرميا (٣٦ : ١٨).

ويبدو أن تلك الأدراج قد بدأت بأوراق البردى المصرية، ثم تطورت إلى الكتابة على الرق (الجلود)، وظلت تلك المخطوطات على هيئة اللفائف حتى جاء القرن الثالث قبل الميلاد حيث بدأت تأخذ شكل الكتب، مع الاستمرار فى العمل بنظام اللفائف، وهو نظام لازال معمولاً به حتى اليوم فى الأشكال الطقسية التى تمارس فى المعابد من باب تحنيط التاريخ، ونجد ذلك مستعملاً خاصة فى أسفار التوراة وسفر إستير بشكل محدد.

إلا أن أول أسلوب اتبعه الاسرائيليون فى التدوين، وإن كان غير موجود منه الآن أى أثر يشير إليه، أو لم يعثر على شئ منه حتى تاريخه، فهو أسلوب النقش المصرى القديم على المسلات، وكان أول من اتبعه النبى موسى، واستخدمه فى كتابة ألواح الشريعة الحجرية، والمزعوم أنها نقرت على الحجر أو نقشت بيد الإله نفسه،

ووردت قصتها في عدد من الإصحاحات المتفرقة في سفر الخروج، التي جمعناها ورتبناها حسب ترتيب ورودها كالتالي:

- وقال الرب لموسى : اصعد إلى الجبل وكن هناك، فأعطيك لوحي حجارة والشريعة والوصية التي كتبتها لتعليمهم.. ودخل موسى في وسط السحاب وصعد إلى الجبل، وكان موسى في الجبل أربعين نهاراً وأربعين ليلية ــ خروج ٢٤ :١٢، ١٣، ١٨.

- ثم أعطى موسى عند فراغه من الكلام معه في جبل سيناء، لوحي شريعة مكتوبين بإصبع الله ــ خروج ٣١ : ١٨.

- فأنصرف موسى ونزل من الجبل، ولوحا الشهادة في يده، لوحان مكتوبان على جانبيها، من هنا وهناك كانا مكتوبين، واللوحان هما صنعة الله، والكتابة كتابة الله، منقوشة على اللوحين.. وكان عند اقترابه من المحلة أنه أبصر العجل والرقص، فحمى غضب موسى وطرح اللوحين من يديه وكسرهما في أسفل الجبل ــ خروج ٣٢ : ١٥، ١٦، ١٩.

- ثم قال الرب لموسى: انحت لك لوحين حجر مثل الأولين، فأكتب أنا على اللوحين الكلمات التي كانت على اللوحين الأولين، اللذين كسرتهما.. فنحت لوحين من حجر كالأولين،

وبكر موسى فى الصباح، وصعد إلى جبل سيناء كما أمره الرب وأخذ من يديه لوحى الحجر ـ خروج ٣٤ : ١، ٤.

(وقد جاء فى الأثر الإسلامى : إن الله تعالى خلق آدم بيده، وخلق جنة عدن بيده، **وكتب التوراة بيده** [١]، كما جاء فى الأيات الكريمة : **وكتبنا له فى الألواح من كل شئ موعظة** ـ ١٤٤ ـ الأعراف).

هذا إضافة إلى أسفار الشريعة، التى أمر موسى أتباعه بكتابتها، وبذات الطريقة، وهو ما يتضح فى قوله لهم : «يوم تعبرون الأردن إلى الأرض التى يعطيك الرب إلهك، تقيم لنفسك حجارة كبيرة، تشيدها بالشيد، وتكتب عليها جميع كلمات هذا الناموس.. حين تعبرون الأردن تقيمون هذه الحجارة، التى أنا أوصيكم بها اليوم، فى جبل عيبال، وتكلسها بالكلس.. وتكتب على الحجارة جميع كلمات هذا الناموس، نقشاً جيداً ـ تثنيه ٢٧ : ٢، ٤، ٨ ».

أما اللغة التى دونت بها الأسفار، فهى كما جاء على غلاف العهد القديم من الكتاب المقدس: العبرانية والكلدانية، والعبرانية كما

(١) الشهرستانى : الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلانى، نشر مصطفى البابى الحلبى، القاهرة، ١٩٦١، ج١،ص٢١١ (المذكور نص حديث شريف).

يقرر المقدس التوراتي هي لغة أو لسان أو شفة كنعان الفلسطينية (إشعيا ١٩ : ١٨)، وإن كان من المفيد العلم أن بعض الأجزاء قد كتبت باللغة الأرامية، وأجزاء أخرى كتبت بالخط المربع (الآشورى) بعد السبى البابلى، وقد استخدم تلك اللغة (عزرا) صاحب معظم أجزاء العهد القديم.

أما المنطق التاريخى، فيفترض أن بدء الكتابة، بل وربما اللغة، التى استخدمها الخارجون من مصر بقيادة موسى، هى اللغة المصرية، خاصة إذا كانت الأدوات والأسلوب مصريين، وهو ما يجعل المدونات العبرية أمراً متأخراً حدث بعد موسى بزمان، وهو ما سبق وأثبتناه فى الصفحات السابقة، كما يستحسن الفرض أن الاسرائيليين ـ وقد قضوا فى مصر ما يزيد على أربعة قرون حسب تقدير الكتاب المقدس ـ قد تكلموا اللغة المصرية القديمة، شأنهم شأن بقية الأقوام التى دخلت مصر، هذا ناهيك عن موسى فى مصر، ونشأته نشأة مصرية، وشهادة المقدس له بأنه تثقف ثقافة مصرية وأنه كان متفقهاً بكل حكمة المصريين.

بل وربما ذهب الأفتراض حد القول أن لغة التخاطب بين موسى وربه فى سيناء، كانت اللغة المصرية القديمة وليست العبرية، التى لم يكن موسى يعرفها أصلاً، حيث ولد في مصر وعاش فيها ثم

خرج منها حتى مات ولم تطأ قدمه أرض فلسطين صاحبة شفة كنعان التى عرفت فيما بعد بالعبرية[1]، هذا ناهيك عن كون لفظة توراة ذاتها من الألفاظ المصرية، ومعنى تورا Torah فى العبرية (الشريعة) من Tororh (توروث)[2]، وهى ترتبط ـ فى رأينا ـ بعبادة الثور المقدس فى المصرية القديمة[3].

أما ترجمة ذلك الأثر الهائل عن لغته الأصلية، فمعلوم أن الترجمة العربية المتداولة الآن، قد تمت عام ١٨٦٥م، أما الترجمة الأنجليزية فقد تمت فى عهد الملك جيمس عام ١٦١١م، وكلا الترجمتين تمت عن الأصل العبرى المعروف بالنص المازورى، الذى سبق تدوينة فى القرن العاشر الميلادى، أى بعد ثلاثة قرون من تدوين القرآن الكريم.

ومن المفيد العلم أن النص المازورى قبل القرن العاشر كان غير مصحوب بالإشارات والحركات والنقاط فوق أو فيما بين

---

(١) ذهب هذا المذهب الدكتور فؤاد حسنين على، ولكنه لم يقدم عليه أية دلائل، حتى أنه سمى كتابه (التوراة الهيروغليفية)، والتى كانت عرضاً للعهد القديم كما تعرفه: ولاعلاقة له بأية هيروغليفية.

(٢) جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، المجمع العلمى العراقى، بغداد، د.ت، ج٦، ص١١١.

(٣) انظر كتابنا : قصة الخلق أو منابع سفر التكوين.

الحروف الساكنة، وعند تدوين النص المازورى (المفترض أنه كان نصاً قديماً) تم اقتباس حركات النظام البابلى للحركات.

وهناك نص آخر باللغة اليونانية القديمة، يعرف بالنص السبعينى Version de Septante وقد تم كتابته حوالى سنة ٢٨٣ قبل الميلاد، على يد اثنين وسبعين فقيهاً يهودياً مصرياً، بأمر ملك مصر آنذاك (بطليموس فلادفيوس)، وتزيد هذه النسخة عن النص المازورى أربعة عشر سفراً، وهى بالطبع غير موجودة بالنسخة العربية لأنها ترجمت عن النص المازورى، كما أنها غير الأسفار المفقودة التى أشرنا إليها آنفاً، وتلك الاسفار هى :

- سفر طوبيا Tobie وهو وصف لسيرة أسير إسرائيلى، فى الأسر الآشورى بمدينة نينوى، فى القرن السابع قبل الميلاد.

- سفر الحكمة لسليمان Salomon ويشمل أمثلة حكيمة عظات ضد الوثنية.

- أسفار الماكبيين Maccabees وعددها أربعة أسفار، تتحدث عن المكابيين الذين حكموا فلسطين حكماً وطنياً فى عهد الرومان، فى القرن الثانى قبل الميلاد وجاء اسمهم فى الشعار الذى كانو يتنادون به فى الحروب وهو (مى كاموخا بجييم يهوفا)، أى (من مثلك بين الأمم يا يهوه). فاخذ من كل كلمة حرف (م كا ب ي) شكلت الإسم (مكابي).

- سفر يهوديت Judith وهو قصة أرملة يهودية غنية وتقية، ساعدت اليهود فى الانتصار على الجيش الأشورى.

- سفر الكهنوت أو سفر الحكمة ليسوع بن سيراخ، وهو مجموعة أمثال على غرار أمثال سليمان.

- سفر تسبيحة الفتية الثلاثة وهى تسابيح يقال أن أصدقاء دانيال الثلاثة رنموها وهم فى أتون النار (وردت قصة الإلقاء في النار بالقرآن الكريم لكن حول الأب إبراهيم، والتوراة لم تذكر ذلك في قصة ذلك البطرك).

- سفر سوزان Suzane أو قصة سوسنة العفيفة، وهو تمجيد من النبى دانيال لقاض دحض وشاية ضد سوسنة العفيفة.

- سفر بعل والتنين، وهو قصة تم إلحاقها بسفر دانيال تشرح كيف تم إقناع قورش ملك فارس بنبذ عبادة الأصنام.

هذا إضافة إلى ثلاثة أسفار منسوبة إلى عزرا، وإصحاحات تمت زيادتها على الأصل المازورى فى أسفار (إستير) و(دانيال)، والمعلوم أن الكنيسة لم تتخل عن النص اليونانى السبعينى إلى النص العبرى المازورى، إلا بعد القرن العاشر الميلادى، حيث أصبح النص المازورى هو النسخة المعتمدة للعهد القديم، ورغم ذلك مازالت الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية، والكنيسة الروسية، وكنائس شرق أوروبا، تستعمل النص السبعينى اليونانى.

الخرافة فى العهد القديم

سبق وأشرنا فى بحوثنا المنشورة إلى المصداقية التاريخية فى النص التوراتى، والمصداقية هنا لا تعنى أمراً لاهوتياً أو علاقة ما بالغيبيات، قدر ما تعنى مدى مطابقة النص لوقائع وأحداث أثبتتها نصوص تاريخية أركيولوجية، أى مصداقية موضوعية بحتة، وتلك الإشارة واجبة تماماً وهامة، لكن مع الحذر فى احتساب نص بعينه صادقاً لمجرد مطابقة بعض أحداثه مع أحداث تاريخية واقعية، بل يجب القول أنه قد دخله حشو وإضافات ومتراكمات وزيادات خرجت به عن معنى المصداقية الحقة، وأن هناك فقط ظل من حقيقة، بل وظل باهت، ونموذجاً لذلك، أسماء المدن والمواضع وأخبار المعارك والحروب، وسير الأنبياء والملوك، لأنه من المستحيل علمياً أن نتغاضى عن آلاف أسماء للمواضع الجغرافية التى وردت بالعهد القديم، لمجرد أنها وضعت فى سياق من الخرافة الواضحة، خاصة إذا علمنا أن هناك ـ كمثال ـ مواضع عديدة وكثيفة مرت بها رحلة الخروج من مصر إلى فلسطين، ومن العبث أن تكون كل تلك سماء لهذه المواضع قد ذكرت عبثاً، أما الأهم حقاً، فهو ما جاء فى روايات تثبت معرفة مدهشة لدى الكاتب التوارتى بشؤون تاريخية قديمة كانت مخفية عنا، ولم نعلم بأمرها إلا بعد كشف المناطق الأثارية القديمة فى

حضارات المنطقة، وفك رموز لغات تلك الحضارات، كمعرفة العهد القديم العجيبة، لأسماء مدن مصرية، أهال عليها الزمان النسيان، بعد أن أهالت عليها الرياح تلول الرمال، ولم نكشف عنها ونعرفها إلا حديثاً، كذلك اسماء بعض الفراعنة مثل (شيشنق) و(نخاو)، أو مثل اسم زوجة النبى يوسف المصرية (إسنات بنت فوطي ـ فا ـ رع، كاهن مدينة أون)، وهو ما جاء ذكره فى سفر التكوين (٤١ : ٤٥)، ولم نعلم إلا حديثاً باسم (رع) إله الشمس المصرى، كما لم نعرف ما هى (أون) إلا بعد فك الطلاسم القديمة التى كشفت أن مدينة عين شمس الحالية كانت حاضرة مصرية عظيمة باسم (أون)، أو ما جاء عن مدينة (رعمسيس) فى سفر التكوين (٤٧ : ١١)، وهى المدينة التى لم نعثر عليها حتى الآن بشكل قاطع، لكننا وجدنا بشأنها برديات تتحدث عنها وتصف معالمها بكل دقة، إضافة لنشيد مديح مدينة (رعمسيس) المنسوب للشاعر (بنتأور)، ناهيك بالطبع عن الاسم (رعمسيس) ذاته كدلالة تامة الصدق والمطابقة لاسم الفرعون (رعمسيس) بنطقه المصرى القديم، قبل تحريفه إلى (رمسيس) بإهمال حرف الـ (ع).

أضف إلى ذلك حديث التوراة عن مركبات فرعون (تك ٤١ : ٤٣ مثلاً)، أو معرفة التوراة أن المصريين كانوا يعتبرون الرعاة رمزاً للشر وأنجاساً ملاعين، كما فى سفر التكوين (٤٦ : ٣٤)

و (٤٣ : ٣٢) وهو أمر كشفت عنه علوم المصريات الحديثة، إضافة إلى معرفة التوراة الدقيقة بالأسلوب المصرى فى التعامل مع الموتى وطقوس التحنيط والدفن، وهو ماذكرته التوراة عن دفن يعقوب فى مصر، وأنه تم تحنيطه خلال أربعين يوماً، ثم البكاء والندب عليه سبعين يوماً (سفر التكوين ٥٠ : ١ ـ ٣)، وهو طقس لم نك أبداً على علم به قبل فك أسرار المصريات القديمة.

وكثير مما يتعلق بشؤون مصر القديمة أثبتت التوراة معرفة دقيقة به، مثل قصة سفط البردى (خروج ٢ : ٣)، وأسلوب البناء بالطوب اللبن، الذى يؤخذ من طمى النيل ثم يخلط بالتبن ويجفف، وذكره سفر الخروج (٥ : ٦ ـ ١٧)، كذلك معرفة الكتابة بالحفر على المسلات كما جاء فى سفر الخروج (٢٤ : ١٢ ـ ١٣) و(٣١ : ١٨)، أو معرفتهم بصفات التابوت المقدس بدقة مدهشة تكاد تطابق التوابيت المصرية الملكية، وهو ماجاء ذكره فى سفر الخروج (٣٥ : ١٠) مع إفراد إصحاحات كاملة بذات السفر لمواصفات ذلك التابوت، أو عبادة عجل أبيس فى سيناء (خروج ٣٢ : ١ ــ ١٩)، أو مركبات الشمس التى ورد ذكرها فى سفر ملوك ثانى (٢٣ : ١١) وهى من أحدث الكشوف الحالية فى المصريات القديمة.

لكن ذلك كله أمر، والتعامل مع النص بكامله كنص صادق تاريخياً أمر آخر، لأن التناقضات التى ينطوى عليها العهد القديم، يمكن أن تؤلف وحدها كتاباً قائماً بذاته، لا يقل حجماً عن الكتاب المقدس ذاته، لو أردنا أن نجمعها فى مدون واحد، وهذا بحد ذاته كفيل بنزع الثقة عن التوراة وأخبارها منذ البدء، وحتى الأحداث التى ترويها، كوقائع حدثت فى القرن التاسع قبل الميلاد على الأقل، ففى التوراة مبالغات لا يمكن قبولها إطلاقاً، وهى أقرب إلى الأسطورة منها إلى التاريخ الصادق.

وسنحاول هنا ضرب بعض الأمثلة التى تدخل روايات التوراة فى عداد الخرفات البسيطة، والمركبة، فسفر القضاة مثلاً يحدثنا كيف قتل (شمشون) ألف فلسطينى بفك حمار (سفر القضاة ١٥ : ١٦)، وهناك روايات تحتوى على أرقام خيالية إلى حد بعيد، كما فى تقرير سفر الملوك الأول (فضرب بنو اسرائيل من الأراميين مائة ألف رجل فى يوم واحد ٢٠ : ٢٩)، والحديث هنا فى حرب دارت بين (أخاب) ملك اسرائيل، وبين (بنحدد) ملك دمشق، حوالى عام ٨٦٠ ق.م، ومثل ذلك الحديث ليس فقط عسير التصديق، بل هو كذب فاضح، لأن مملكة دمشق بكاملها ولم تكن تحتوى على مائة ألف رجل يمكن قتلهم فى يوم واحد بل وربما لم يبلغ سكانها جميعاً رجالاً ونساء وأطفالاً هذا الرقم العظيم.

وفى تلك الخرافات ما يعد لوناً من الأساطير المشروعة إ
ولازالت موضع تصديق وإيمان فى اليهودية والمسيحية، بل الإسلام مع بعض التعديل، مثل قصة وجود آدم فى الجنة وأكله الثمرة المحرمة، وحديث حواء مع الحية التى تتكلم:[1]

وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية التى عملها الرب الإله، فقالت الحية للمرأة: أحقاً قال الله لا تأكلا من كل شجرة الجنة؟ فقالت المرأة للحية: من ثمر شجر الجنة نأكل، وأما ثمر الشجرة التى فى وسط الجنة، فقال الله : لا تأكلا منه وتمساه، لئلا تموتا، فقالت الحية للمرأة: لن تموتا، بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه، تنفتح أعينكما، وتكونان كالله عارفين الخير والشر

تكوين ٣ : ١ ـ ٥.

ومن قبيل تلك المصدقات الإيمانية، المبالغة الهائلة فى أع
الرعيل الأول من البشرية :

---

(١) للمزيد أنظر كتابنا : الأسطورة والتراث ، دار سينا، القاهرة، ١٩٩٢.

ـ فكانت كل أيام آدم التى عاشها تسع مئة وثلاثين سنة

تكوين ٥:٥.

ـ فكانت كل أيام شيث تسع مئة سنة واثنى عشر سنة ومات

تكوين ٥ : ٨.

ـ فكانت كل أيام آنوش تسع مئة وخمسين سنة ومات

تكوين ٥ : ١١.

ـ فكانت كل أيام قينان تسع مئة وعشر سنين ومات

تكوين ٥ : ١٤

فكانت أيام مهلائيل ثمانى مئة وخمسماة وتسعين سنة ومات.

تكوين ٥ : ١٧.

فكانت كل أيام يارد تسع مئة وأثنتين وستين سنة ومات

تكوين ٥ : ٢٠.

- فكانت كل أيام أخنوخ ثلاث مئة وخمساً وستين سنة ومات

تكوين ٥ : ٢٣.

- فكانت كل أيام متوشالح تسع مئة وتسعاً وستين سنة ومات

تكوين ٥ : ٢٧.

- فكانت كل أيام لامك سبعة مئة وسبعاً وسبعين سنة ومات

تكوين ٥ : ٣١.

- فكانت كل أيام نوح تسع مئة وخمسين سنة ومات

تكوين ٩ : ٢٩.

ثم هناك أحاديث أخرى عن إنجاب الله لأبناء تزوجوا من آدميات فأنجبوا جيلاً من الجبابرة، وهو ما جاء نصاً :

وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض، وولد

لهم بنات، أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسان، فاتخذو لأنفسهم نساء من كل ما أختاروا، فقال الرب لا يدين روحى فى إلانسان إلى الأبد لزيغانه، هو بشر وتكون أيامه مئة وعشرين سنة، وكان فى الأرض طغاة فى تلك الأيام، وبعد ذلك إذا دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولاداً، هؤلاء الجبابرة الذين منذ أبد الدهر ذوو اسم تكوين ٦ : ١ ـ ٤.[١] .

ومن باب تمجيد الآباء الأولين للقبيلة الإسرائيلية، نجد قصة تقول إن عدداً من الملوك العظام (إمرافل ملك شنعار، وإريوك ملك الأسار، وكدر لعومر ملك عيلام، وتدعال ملك جوييم) قد تحالفوا فى حرب ضد مجموعة ملوك لدويلات أخرى فى المنطقة هم (بارع ملك سدوم، وبرشاع ملك عمورة، وشنئاب ملك أدمة، وشمئيبر ملك صبوييم، وملك بالع التى هى صوغر)، وتمت هزيمة الحلف الثانى، وكان بين أسرى المهزومين (لوط) ابن أخى (إبراهيم) وهنا تقول القصة ببساطة أن النبى إبراهيم أخذ ثلاثمائة رجل من أتباعه وهزم حلف الدول الكبرى أو كما جاء فى النص:

---

(١) وضعنا تفسيراً بقراءة علمية لتلك الاسطورة مرتبطة بظرفها الموضوعى فى كتابنا : النبى إبراهيم والتاريخ المجهول.

فلما سمع إبرام أن أخاه سبى، جر غلمانــه المتمرنين ولدان بيته، ثلث مئة وثمانية عشر، وتبعهم إلــى دان، وانقسم عليهم ليلاً هو وعبيـده فكسرهم، وتبعهم إلـى حوبه التى عن شمال دمشق، واسترجع كل الأمـلاك، واسـترجع لوطـاً أخـاه أيضـاً، وأملاكــه، والنســاء أيضاً، والشعب

تكوين ١٤ : ١٣ ـ ١٦.

هذا ناهيك عن ظهور الإله (بهيئة تشبه ما تحدثنا به الأسـاطير عن الجن) للبطاركة الأوائل، وحديثه معهم، وصراعه مع يعقوب، أو مثلما جاء فى قصـة لقائه بموسى وأتباعه وهو فى هيئة أقرب إلى التماثيل: -

ثم صعد موسى وهارون وناداب وأبيهو، وسـبعون من شيوخ إسرائيل، ورأوا إله إسرائيل، وتحت رجليه **شبه صنعة من العقيق** الأزرق الشفاف، وكذات السـماء فى النقاوة، ولكنه لم يمد يده إلى أشـراف بنـى إسـرائيل، فـرأوا اللـه، وأكلـوا وشـربوا ـ خــروج ٢٤ : ٩ ـ ١١. (والمعلوم أن العقيق الأزرق هو فيروز سيناء الذى صنع منه المصريون تماثيل آلهتهم).

وغير ذلك كثير وكثيف، نشير إليه فى عجالة، مثل : العصا الحية (خروج ٤ : ١ ــ ٥)، وضرب يهوه للمصريين بضربات أسطورية (خروج ٧)، أو فلق البحر (خروج ١٤)، وانشقاق نهر الأردن (يشوع ٣ : ١٦، ١٧)، وسقوط مدينة أريحا بمجرد أن صرخ عليها الإسرائيليون مع طبول وزمور وأبواق (يشوع ٦)، وإيقاف يشوع للشمس والقمر حتى ينتهى من القضاء على أعدائه (يشوع ١٠ : ١٢ ـ ٤)، وعكاز الملاك الذى يحرق اللحم (قضاء ٦ :٢١)، وتحضير الأرواح (صموئيل ٢٨ : ١١ ـ ٢٠)، ومعجزات شمشون فى سفر القضاة (١٤ : ٤)، (١٤ : ٥)، (١٥ : ١٥)، (١٦ : ٣٠)، وإحياء النبى ايليا للطفل الميت (ملوك أول ١٧ : ٢١، ٢٢)، والامر الذى أصدره إيليا بهبوط نار من السماء تأكل جنود الأعداء (ملوك ثانى ١ : ١٠ ــ ١٢)، ثم صعوده إلى السماء (ملوك ثانى ٢ : ١،١١)، وقيام رداء إيليا بعد ذلك بدور عصا موسى فى فلق الماء (ملوك ثانى ٢ : ٨،١٤)، أو حروب الله مع التنين لوايثان (اشعيا ٢٧ : ١).

وعليه ، فإن النص التوراتى من وجهة نظرنا ليس أكثر من وثيقة أسطورية، لكنه كأى وثيقة أسطورية أخرى، وحسب منهجنا الذى اتبعناه فى أعمالنا، يمكن أن يقدم لنا ــ إذا تعاملنا معه علمياً ــ مادة تاريخية نادرة لم تسعفنا بها الكشوف الأركيلولوجية، وأن يضئ

لنا مساحات مظلمة من التاريخ لم يكشف عنهـا البحـث الآثـارى بعـد، ولكن وفق أصول وقواعد ومنهج صارم، وهو ما سبق وأن قدمنـا لـه نمـاذج فـى أعمالنـا المنشورة، لكـن فـى نفس الوقت، يمكـن لبـاحث مغـرض أن يقـرأة قـراءة أخـرى، بـأغراض بعينهـا، وفـق أيديولوجيـا خاصـة ، فينطـق بـأمور أبعـد مـا تكـون عـن الصـدق والموضوعيـة والعلميـة، وهـو مـا سنجد لـه نموذجـاً مثاليـاً فـى البـاب الثـالث من هذا الكتاب.

الانبياء فى العهد القديم

من الجدير بالذكر هنا، منعاً للالتباس، أن الآباء الأوائل أو البطاركة، من إبراهيم إلى موسى فى التوراة، لا يحتسبون أنبياء بالمعنى المفهوم والسائد وفق الطروحات الإسلامية، وتبدأ النبوات فقط فى العهد القديم بموسى، أما عن إبراهيم وإسحق ويعقوب.. إلخ، فهم مجرد أسلاف يجب الاعتزاز بهم وبسيرتهم، رغم علاقتهم بالإله، ورغم أنهم أصحاب الوعد، فهم ليسوا أنبياء المعنى المفهوم، لأن النبوة فى الفهم التوراتى هى التنبؤ، والقدرة على قراءة المغيبات، هذا بالطبع مع أمور أخرى تفصيلية تضع هؤلاء البطاركة الأوائل على المستوى الأخلاقى، فى صف الأفراد العاديين، الذين يمكن أن يرتكبوا أموراً يمجها الذوق المبنى على الفهم الإسلامى لمعنى النبوة، فالنبى إبراهيم مثلاً يتاجر بشرف زوجته سارة فى مصر، وفى جرار الفلسطينية، للحصول على الأموال، ويتم سرد ذلك دون أى تحرج (تكوين ١٢ : ١١ ــ ٢٠) و (تكوين ٢٠ : ١ ــ ١٤،٧)[١]، وهو الأمر الذى يكرره بعد ذلك ابنه اسحق فى جرار كما ورد فى سفر التكوين (٢٦ : ٧ ـ ١٠).

---

(١) فصلنا الحديث فى هذا الأمر فى كتابنا النبى إبراهيم والتاريخ المجهول .

وفى قصة هلاك سدوم عمورة، ينجو لوط مع ابنتيه الوحيدتين، ويسكن فى مدينة (صوغر)، لكنه لسبب غير مفهوم يتركها إلى الصحراء وتحكى الرواية بعد ذلك :

وصعد لوط من صوغر وسكن فى الجبل وابنتاه معه، لأنه خاف أن يسكن فى صوغر (؟!)، فسكن فى المغارة هو وابنتاه، وقالت البكر للصغيرة: أبونا قد شاخ وليس فى الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض، هلم نسقى أبانا خمراً ونضطجع معه، فنحيى من أبينا نسلاً، فسقتا أباهما خمراً فى تلك الليلة، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها، ولم يعلم بإضطجاعها ولا بقيامها، وحدث فى الغد أن البكر قالت للصغيرة: إنى قد أضطجعت البارحة مع أبى، نسقيه خمراً الليلة أيضاً، فأدخلى اضطجعى معه فنحيى من أبينا نسلاً، فسقتا أباهما خمراً فى تلك الليلة أيضاً، وقامت الصغيرة واضطجعت معه، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها، فحبلت ابنتا لوط من أبيهما، فولدت البكر ابنا ودعت اسمه مواب، وهو أبو الموآبين إلى اليوم، والصغيرة ولدت أبناً ودعت اسمه بنى عمى ، وهو أبو بنى عمون إلى اليوم

تكوين ١٩ : ٣٠ ـ ٣٨.

وعليه فلـن تصيبنـا الدهشـة إن وجدنـا (يعقوب) ابـن (اسـحق) الأصغر يحتـال علـى أبيـه ليسـرق مـيراث أخيـه الأكـبر(عيسـو) (تكوين ٢٧)، أو حين نجد (راحيل) زوجة (يعقوب) تغادر بيت أبيها مع زوجها فتسرق الأصنـام من أبيها عشقاً فـى عبادتهـا (تكويـن ٣١ : ١٩)، كما لن ندهش إذا وجدنا الأسباط المكرمين يلقون بـأخيهم الأصغر (يوسف) فى بئر للتخلص منـه (تكويـن ٣٧ : ١٨ ــ ٣٨)، ولا أن يتزوج (عمران) من عمته يوكـابد (خـروج ٦ : ٢٠)، ولا أن يوعز الرب لموسى بسـرقة ذهـب المصريـات (خـروج ٣ : ٢١،٢٢) و (خروج ١٢ : ٣٥،٣٦)، وربمـا لا نصعـق إذا مـا علمنـا أن الـرب قرر مـوت موسـى وهـارون لأنـهمـا قامـاً بخيانتـه (التثنيـة ٣٢ : ٣٨ ــ ٥٠)، أو أن يتم أختيار (شاؤول) كأول ملك لاسرائيل، لالمـيزة فيه سوى طوله وجماله (صموئيل الأول ٩ :٢، ١٠ : ٢٣) أو اختيار (داود) لأنه كان أشقراً وحلو المنظـر (صموئيـل الأول ١٦: ١٢، ١٧ :٤٢)، ومن ثم فلا يجب أن ننزعج إذا أوعز لنـا ذلك المقدس، بـأمر علاقة شاذة تقوم بين (داود) وبين الصبى يوناثان بن شاول (صموئيـل الثـانى ١ : ٢٦)، أو أن يبـدأ (داود) حياتـه مطبـلاً لـلزار ومزمـراً لإخراج العفاريت التى ركبت (شاول) كما فـى (صموئيـل أول ١٦ : ٢٣)، وربما يجب أن نقبل المبررات التـى قدمهـا المقدس، والتـى تـم فيها تبخيس (نابال) وتصويره خسيساً، حتى يسوغ لـداود أخذ أمراتـه

وهو ماجاء فى سفر صموئيل الأول (٢٥) ولطرافته يمكن سرد نصه القائل:

واسم الرجل نابال، واسم امرأته أبيجايل، وكانت المرأة جيدة الفهم وجميلة الصورة وأما الرجل فكان قاسياً ورديئ الأعمال.. وبعد نحو عشرة أيام ضرب الرب نابال فمات..وأرسل داود وتكلم مع أبيجايل ليتخذها له امرأة.. وصارت له امرأة.

ومثل تلك القصة نموذج آخر بطله (داود) أيضا، وهى بدورها قصة غرامية انتهت باستيلائه على زوجة أخلص ضباطه أوريا الحثى (وكان يعمل تحت قيادة يوآب) بعد أن ضاجعها فى غياب زوجها للدفاع عن حدود الدولة، وهى كما وردت نصياً :

وكان فى وقت المساء أن قام داود عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك، فرأى من على السطح امرأة تستحم، وكانت المرأة جميلة المنظر جداً، فأرسل داود وسأل عن المرأة، فقال واحد : أليست هذه بتشبع بنت أليعام، امرأة أوريا الحثى؟ فأرسل داود رسلاً وأخذها، فدخلت إليه، فاضطجع معها وهى مطهرة من طمثها، ثم رجعت إلى بيتها،

وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود وقالت: إنــى حبلــى، فارسل داود إلى يوآب يقول : أرسل إلــىَّ أوريا الحثى، فأرسل يوآب أوريا إلى داود، فـأتى أوريا إليه فسأله داود عن سلامة يـوآب وسـلامة الشعب ونجاح الحرب، وقال داود لأوريـا انـزل إلـى بيتك وأغسل رجليك، فخرج أوريا من بيت الملك وخرجت وراءه حصة من عند الملك، ونـام أوريـا على باب بيت الملك مع جميع عبيد سيده، ولـم يـنزل إلى بيته، فأخبروا داود قائلين : لـم ينزل أوريـا إلـى بيته، فقال داود لأوريا: أما جئت من السفر ؟ فلمـاذا لم تنزل إلى بيتك؟ فقال أوريا لداود : إن التـابوت وإسرائيل ويهوذا ساكنون فى الخيـام، وسيدى يـوآب وعبيد سيدى نازلون على وجه الصحـراء، وأنـا آتـى لبيتى لآكل وأشرب وأضطجع مع امرأتى؟! وحيـاتك وحياة نفسك لا أفعل هذا الأمر، فقال داود لأوريـا: أقم هنا اليوم أيضا وغداً اطلقك، فأقام أوريا فـى أورشليم فى ذلك اليوم وغده.. وفـى الصبـاح كتـب داود مكتوباً إلى يوآب وأرسله بيد أوريا، وكتب فـى المكتوب يقول : اجعلوا أوريا فــى وجـه الحـرب

الشديدة، وارجعوا من ورائه، فيضرب ويموت، وكان فى محاصرة يوآب المدينة أنه جعل أوريا فى الموضع الذى علم أن رجال البأس فيه، فخرج رجال المدينة وحاربوا يوآب، فسقط بعض الشعب من عبيد داود، ومات أوريا الحثى أيضاً.. فلما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات أوريا رجلها، ندبت بعلها، ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته، وصارت له امرأة، وولدت له ابناً

صموئيل الثانى ١١.

وأعمالاً لكل ذلك فلا يصح أن تأخذنا الدهشة عندما نجد سليمان يقتل أخاه الأكبر صاحب الحق فى العرش (ملوك أول ٢ : ٢٥)، ولا عشق سليمان للنساء وعبادته لآلهة أخرى (ملوك أول ١١ : ١ ــ ٨)، ولا عندما نجد أمنون بن داود يعشق اخته ثامارا ويجامعها (صموئيل ثانى ١٣ : ١)، فهذه قصص أسلاف وملوك ومؤامرات قصور ودسائس، أما الأنبياء فلهم فى العهد القديم شأن آخر.

والنبييم جمع كلمة (نابى) أو (نبى) العبرية، من (نبا) أى خرج وارتفع أو ظهر وخالف القطيع وأن كانت بقراءة التوراة العبرية تعنى

تماماً: الهاذى أو المخبول، وظهر منهم عدد كبير من بنى إسرائيل، بعضهم كان قاسياً يقرع اسماع الإسرائيليين بالقول الغليظ، إلا أن الواضح أيضاً فى كثرتهم، أنها أصبحت مهنة تدر على محترفها رزقاً طيباً، ومن هنا نلحظ فى الأسفار المتأخرة تحفّظ المؤلفين وحيطتهم إزاء الأنبياء، كما جاء فى سفر حزقيال . فإذا ضل النبى وتكلم كلاماً، فأنا الرب قد أضللت ذلك النبى، وسأمد يدى عليه وأبيده من وسط شعبى اسرائيل ـ ١٤ : ٩ ".

وكثرة هؤلاء الأنبياء كانت لا تتناسب مع قلة عدد السكان فى البلاد، وهو ما يؤخذ من قول سفر ملوك أول : . فجمع ملك إسرائيل الأنبياء نحو أربعة مئة ٢٢ : ٦ "، لكنهم على أية حال كان بإمكانهم إشعال الحروب وخلع الملوك وتنصيب من يريدون، وهؤلاء عادة ما كانوا من رجال الدين غير النظاميين، أشبه بمن نعرفهم اليوم بالدراويش، ولم يخضعوا لهيكل من الهياكل، لكنهم كانوا يزعمون تلقى الوحى من الرب بلا واسطة، وأن روح الرب قد تملكتهم فنطقت بلسانهم، وعادة ما نجد بعضهم فى صف الشعب يدافعون عن قضاياه، ضد المؤسسة الدينية الرسمية وكهانها المسيسين، وقد ظهر سلطانهم ونما منذ القرن العاشر قبل الميلاد، ولم يأت منتصف القرن التاسع قبل الميلاد حتى أصبحوا من أهم عناصر الجماعة الإسرائيلية، وقام

بعضهم بعقد اتصالات مع الدول الخارجية، لتقويض سلطان الداخل المرفوض، ويقول (روبنسون) إنه كانت «تعتورهم حالة نفسانية غريبة نسميها نحن الوجد، تشبه أعراضها أعراض الغيبوبة أو الصرع، ويزعمون أن كل مرجع ذلك إلى أن الشخص قد حل فيه إله.. والعجيب أنها كانت حالة مُعدية قد تنتقل من شخص إلى آخر، وقد نزع الأنبياء والواجدون إلى التجمع وتأليف الفرق، وتعلموا كيف يبتعثون هذه الحالة الخاصة بهم برياضات شتى كالرقص أو اصطناع الموسيقى أو تناول العقاقير »[1] .

ونموذجاً لذلك ما جاء في اختيار الكاهن صموئيل لشاول لمسحه بالزيت المقدس مسيحياً، كأول ملك لبني إسرائيل، فيصفه الإصحاح التاسع من سفر صموئيل الأول بالصفات «شاول، شاب، وحسن، ولم يكن رجل في بني إسرائيل أحسن منه، **من كتفه فما فوق كان أطول من كل الشعب** »، لكنه حتى يكون نبياً ملكاً، «أخذ صموئيل قنينية الدهن، وصب على رأسه، وقبله، وقال : أليس لان الرب قد مسحك على ميراثه رئيساً.. إنك ستصادف زمرة من الأنبياء نازلين من المرتفعة وأمامهم رباب ودف وناى وعود، وهم يتنبأون، فيحل عليك روح الرب فتتنبأ معهم وتتحول إلى رجل آخر - صموئيل أول - ١٠ ».

---

(١) روبنسون (تيودور) : إسرائيل في ضوء التاريخ، ترجمة عبد الحميد يونس، المجلد الثاني من تاريخ العالم، النهضة المصرية، القاهرة، د.ت، ص١١٥،١١٦.

وهذا (داود) بعد تنصيبه ملكاً، يتمكن من استعادة تابوت بني إسرائيل المقدس من الفلسطينيين [1]، . فأركبوا تابوت الله على عجلة جديدة..و داود وكل بيت اسرائيل يلعبون أمام الرب بكل أنواع الآلات من خشب السرو، بالعيدان والرباب والدفوف وبالجنوك وبالصنوج.. وكان داود يرقص بكل قوته أمام الرب، وكان داود متمنطقاً بإفود من كتان، فأصعد داود وجميع بيت إسرائيل تابوت الرب بالهتاف وبصوت البوق، ولما دخل تابوت الرب مدينة داود، أشرفت ميكال بنت شاول (زوجة داود) من الكوة، ورأت الملك داود يطفر ويرقص أمام الرب، فاحتقرته من قلبها.. فخرجت ميكال بنت شاول لاستقبال داود وقالت : ما كان أكرم ملك إسرائيل اليوم، حيث تكشف اليوم في أعين إماءه وعبيده، كما يتكشف أحد **السفهاء**، فقال داود لميكال: إنما أمام الرب الذى اختارني دون أبيك، ودون كل بيته، ليقيمني رئيساً على شعب الرب إسرائيل، **فلعبت أمام الرب** ــ صموئيل ثاني ـ ٦ " .

---

(١) التابوت في الأعتقاد عبارة عن صندوق بصفات معينة، تم صنعه في سيناء، بأمر النبي موسى، ليرقد فيه رب إسرائيل، ويحمله معهم لنصرهم على أعدائهم، ويكون دائماً في معيتهم قريباً منهم، وقد جاء ذكره في القرآن الكريم، عن استعادة داود له كدلالة لصحة ملكه بعد شاول، وذلك في قوله تعالى : " إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم ــ ٢٤٨ ـ البقرة " .

ومن الأنبياء من لم يكن من بنى إسرائيل، إنما من أهل المنطقة الذين يدعون إلى عبادة الإله البعل الزراعى، وقد ذاع صيت نبى موآب المدعو (بلعام بن بعور)، وجاء ذكره فى العقد القديم كمناصر لبنى إسرائيل ضد شعبه، مما يشير إلى أن المكافأة التى نالها من الأسرائيليين كانت أعظم. (جاء ذكره في التراث الإسلامى باسم بلعم بن باعوراء).

ومن الطرائف ان الأنبياء الاسرائيليين كانوا يكذبون بعضهم بعضاً، فهذا ملك المملكة الجنوبية (يهوذا) المعروف باسم (يهوشفاط) يذهب إلى ملك المملكة الشمالية (آخاب) يطلب معونته لشن الحرب على بلاد سورية (آرام)، «فجمع ملك إسرائيل الأنبياء نحو أربع مئة رجل وقال لهم : أأذهب إلى رامة الجلعاد للقتال أم أمتنع؟ فقالوا اصعد فيها فيدفعها السيد ليد الملك - ملوك أول ٢٢ : ٦ »، وتحمس الأنبياء للقتال ومنهم صدقيا «وعمل صدقيا بن كنعنة لنفسه قرنى حديد وقال : هكذا قال الرب بهذه تنطح الأراميين حتى يفنوا ـ ملوك أول ٢٢ : ١١»، لكن الملك آخاب أرسل يستدعى نبياً لم يكن حاضراً هو (ميخا بن يمله) وسأله فى هذه المشكلة وهل يذهب لمحاربة الأراميين أم لا؟ فأجابه ميخا «وقال : فاسمع إذن كلام الرب : قد رأيت الرب جالساً على كرسيه وكل جند السماء وقوف لديه عن يمينه وعن

يساره، فقال: هذا : هكذا، وقال ذاك: هكذا، ثم أخرج الروح ووقف أمام الرب وقال : أنا أغويه، قال له الرب : بماذا؟ فقال : أخرج وأكون روح كذب فى أفواه جميع أنبيائه، فقال : إنك تغويه وتقدر، فاخرج وافعل هكذا، والأن هو ذا قد **جعل الرب روح كذب فى أفواه جميع أنبيائك هؤلاء**، والرب تكلم عليك بشر، فتقدم صدقيا بن كنعنة وضرب ميخا على الفك وقال: **من أين عبر روح الرب منى ليكلمك؟** - ملوك أول ٢٢ : ١٩ ـ ٢٤ ".

الآلهة فى العهد القديم

معلوم أن بنى إسرائيل انتقلوا بين مرحلتين، تمت في
إلهين، واحد باسم إيل، وأحياناً باسم إللوهيم أى الآلهة، والا
(يهوه)، لكن الأمر فى الحقيقة لم يكن مقصواً على هذين الا
فقد عبد بنو اسرائيل العجل المصرى أبيس فى سيناء، بعد
من مصر بأسابيع قليلة، اثناء غياب موسى على الجبل
لإحضار لوحى الشريعة.

ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ فى النزول مـ
الجبل، اجتمع الشعب على هرون وقالوا له: ق
اصنع لنا آلهة تسير أمامنا، لأن هذا موسـ
الرجل الذى اصعدنا من أرض مصر لا نعلـ
ماذا أصابه، فقال لهم هرون انزعوا أقرا
الذهب التى فى آذان نسائكم وبنيكم وبناتـ
وأتونى بها .. فأخذ ذلك من أيديهم وصور
بالإزميل وصنعه عجلاً مسبوكاً، فقالوا : هـ
آلهتك يا إسرائيل التى أصعدتك من أرض مصـ
خروج ٣٢ : ١ ــــ ٤.

ثم أنهم بعد ذلك عبدوا الإله المدياني بعل فغور، كما في سفر العدد (٢٥ : ١ ــ ٣) وبدخولهم أرض كنعان حيث عبادة البعول الزراعية، عبدوا بعل وعشتروت، كما في سفر القضاة (٢ : ١١ ــ ٧)، والقضاء (٣ : ٥ ــ ٨)، بل ومارسوا طقوس

الزنا الجماعي أمام هياكل تلك الآلهة، كما في القضاة (٨ : ٣٣) و (١٠ : ٦)، ثم تحول طقس الزنا إلى يهوه نفسه، فكانوا يمارسون النزو الجماعي في باب خيمة الإجتماع حيث تابوت الرب، وهو ما حدثنا عنه سفر صموئيل الأول (٢ : ٢٢)، بل أن سليمان الملك عبد بدوره عدداً من الآلهة. فذهب سليمان وراء عشتوت إلهة الصيدونيين، وملكولم رجس العمونيين .. وبنى سليمان مرتفعة لكموس رجس الموآبيين على الجبل الذي تجاه أورشليم، ولمولك رجس بني عمون

ملوك أول ١١ : ١ ــ ٨.

أما الملك (يربعام) فقد عاد إلى عبادة العجل، : . وعمل عجلي ذهب وقال لهم : هو ذا آلهتك يا اسرائيل الذى أصعدوك من أرض مصر، ووضع واحداً فى بيت إيل، وجعل الآخر فى دان - ملوك أول ١٢ : ٢٨ ، ٢٩ " .

كما بنى المرتفعات للزنى وراء الآلهة رحبعام بن سليمان، وهو ما جاء فى سفر ملوك أول (١٤ : ٢٣)، كذلك إن الملك آخاب بن عمرى عبد البعل (ملوك أول ١٦ : ٣١ - ٣٣)، بل إن أحاز ملك يهوذا، أعاد طقس التضحية بالأبناء لنيران الآلهة، فقدم ابنه قرباناً لنيران الإله، كما جاء فى سفر ملوك ثانى (١٦ : ٣،٤)، أما الحية التى صنعها لهم موسى وهم خارجون من مصرن وكان اسمها (نحشان) أى الحنش أى الثعبان فقد ظلت تعبد زمناً طويلاً حتى عهد متأخر (ملوك ١٨ : ٤)، وقد عبد الملك منسى بدوره البعول وبنبى لهم مرتفعات المضاجعة الجماعية، وهو مايؤخذ من (ملوك ثانى ٢١ : ٦٢) وكذلك لعبادة إله جبل توفة المعروف باسم مولك (ملوك ثانى ٢٣ : ١٠)، كما عادت قدسية مراكب الشمس المصرية وظلت قائمة إلى عهد متأخر كما فى سفر ملوك ثانى (٢٣ : ١١)، واستمر يهورام ملك أورشليم فى عمل مرتعفات الزنى فى أورشليم كما أخبرنا سفر أخبار الثانى (٢١ : ١١).

وفى الكتاب المقدس سفر كامل، لا يمكن تفسيره إلا فى ضوء العبادات الجنسية وطقوس الزنى الجماعى، تلك العبادات التى كانت متفشية فى العبادات الزراعية بشكل وبائى، من باب حض أرض على الخصب والعطاء اعتماداً على مبدأ السحر التشاكلى حيث الشبيه ينتج الشبيه، وكان الملك عادة ما يقوم داخل الهيكل مع الكاهنة الكبرى بإعطاء إشارة البدء فى ممارسة الطقس للجماهير المحتشدة فى الخارج، وذلك بقيامه بمجامعة الكاهنة، فتبدأ المعمعة الشبقية حول المعبد دون تمييز، وعادة ما كان يصاحب تلك الممارسة لوناً من الأناشيد الطقسية تسبق الممارسة، وهى أشكال شعرية جنسية تتم تلاوتها لتحفيز المقدرات الجنسية على العمل، وذلك السفر المقصود بالعهد القديم وهو المعروف بسفر نشيد الإنشاد الذى لسيمان، الذى لا يكّن ولا يحتشم، بل يقدم النشيد الطقسى دون أى تحرُّج، ويمكن اقتطاع نماذج من ذلك السفر فى شكل حوار يدور بين العشيقين الملكيين يقول:

العشيقة ـ ليقبلنى بقبلات فمه، لأن حبك أطيب من الخمر.

لرائحة أدهانك الطيبة اسمك مهراق

لذلك أحبتك العذارى

إجذبنى ورائك فنجرى

أدخلني الملك إلى حجاله

نذكر حبك أكثر من الخمر

العشيقة ـ أنا سوداء وجميلة يا بنات أورشليم

كخيام قيدار

كشقق سليمان

أخبرني يا من تحبه نفسي:

أين ترعى؟ أين تربض عند الظهيرة؟

العاشق ـ إن لم تعرفي أيتها الجميلة بين النساء فاخرجي على آثار الغنم

وارعى جداك عند مساكن الرعاة

لقد شبهتك يا حبيبتي بفرس في مركبات فرعون

ما أجمل خديك بسموط

العشيقة ـ ما دام الملك في مجلسه أفاح نار ديني رائحته

صرة المر حبيبي لي

بين ثديي يبيت

العاشق ـ ها أنت جميلة يا حبيبتى ها أنت جميلة

عيناك حمامتان

العشيقة ـ ها أنت جميل ياحبيبى وحلو

وسريرنا أخضر

أنا نرجس شارون سوسنة الأودية

أدخلنى إلى بيت الخمر

وعَلَمَه فوقى محبة

أسندونى بأقراص الزبيب

أنعشونى بالتفاح، فإنى مريضة حبا

شماله تحت رأسى ويمينه تعانقنى

أحلفكن يا بنات أورشليم بالظباء وبأيائل الحقول

ألا تيقظن ولا تنبهن الحبيب حتى يشاء

....

....

فى الليل على فراش طلبت من تحبه نفسى

طلبته فما وجدته

وجدنى الحرس الطائف فى المدينة

فقلت : أرأيتم من تحبه نفسى؟

فما جاوزتهم إلا قليلاً حتى وجدت من تحبه نفسى

فأمسكته ولم أرخه حتى أدخلته بيت أمى

وحجرة من حبلت بى

العاشق ـ ها أنت جميلة عيناك حمامتان من تحت نقابك

شعرك كقطيع معز رابض على جبل جلعاد

أسنانك كقطيع الجزائر الصادرة من الغسل

شفتاك كسلكة من القرمز، وفمك حلو

خدك كفلقة رمانة تحت نقابك

عنقك كبرج داود المبنى للأسلحة

ثدياك كخشفتى ظبية توأمين يرعيان بين السوسن

شفتاك يا عروس تقطران شهداً

تحت لسانك عسل ولبن ورائحة ثيابك كرائحة لبنان

....

قد خلعت ثوبى فكيف ألبسه؟

قد غسلت رجلى فكيف أوسخهما؟

حبيبى مد يده من الكوة فأنَّت أحشائى عليه

قمت لأفتح لحبيبى

.... إلخ ....



الباب الثانى

التـــاريـــخ

تأسيس

عادة ما يلجأ الباحثون عند تناولهم شأناً من شؤون الجماعة البشرية، التى بدأنا بالاصطلاح على تسميتها فى العنوان بـ (بنى إسرائيل)، إلى استخدام أحد اصطلاحات ثلاثة، هى على الترتيب حسب شيوع الاستخدام : العبرانيين واليهود، الإسرائيليين.

ولتدقيق المصطلح ودلالته، نجد أن اصطلاح العبريين أو العبرانيين؛ يقصد به تمييز تلك الجماعة، بحيث يشير الاصطلاح إليها كشعب بعينه، وبحيث تبدو كما لو كانت تتسم بسمات جنسية محددة بتاريخ مترابط وواضح، ويرتبط بأرض ومواطن بعينها، له ظروفه البيئية والجغرافية التى تتناغم فى النهاية مع السمات التى طبعت ذلك الشعب، اجتماعيا واقتصادياً وسياسياً وفكرياً، وهو قصد يذهب إلى وضع الجماعة الإسرائيلية فى وضع يسمح بالإيحاء بدلالات، تتساوى مع الدلالات التى تفهم من استخدامنا مصطلحات مثل (المصريين، البابليين، الكنعانيين، الحيثيين .. الخ)

لكن؛ بينما نجد اصطلاحات إسمية مثل المصريين أو البابليين، لا مجال للخلط بشأنها، ويمكن للمؤرخ وللباحث استخدامها باطمئنان، حيث تشير إلى شعب بذاته، يسكن أرضاً بعينها، تفاعل مع بيئة خلال مسار تطورى، انتهى إلى وسمه بسمات صريحة المعالم، يبدو فيهاأثر

الجدل بين الإنسان وبين تاريخه وبيئته وطبيعة أرضه، وبحيث انتهى ذلك الجدل إلى نشوء كيان سياسى له سماته المميزة، مما يمكنّ الباحث من رسم صورة شبه متكاملة لتاريخ ذلك الشعب، من خلال وثائق، ومدونات، وآثار، وسجلات عينية، ومعتقدات، وأساطير، مع قراءة ذلك كله مرتبطاً بالظرف البيئى والتطور الاجتماعى، الذى يكسب الشعب فى النهاية نكهته الخاصة، وسماته المميزة، لكن استخدام مصطلح عبرى، للدلالة على الجماعة الإسرائيلية لا يؤدى بحال إلى أى من تلك المعانى، بحيث يسمح بكثير من الخلط والخبط وسوء الغرض إن بحسن نية أم بقصد، نظراً لاتساع المصطلح عن حجم المدلول، فلا يطابقه، وتتحول معه الجماعة الإسرائيلية إلى كتلة رجراجة داخل المصطلح دون ثبات، ويعود ذلك إلى عيوب أساسية فى تاريخ تلك الجماعة البشرية، يجد معها الباحث عسراً شديداً فى استخدام تعبير شعب، للدلالة على تلك الجماعة، دون السقوط فى خطأ علمى فادح.

. كما نجد عيوباً من لون آخر فى نسيج تلك المجموعة البشرية، وفى المراحل التى مرت بها وظروفها، إبّان تكونها التاريخى، لا تسمح بإعطاء المدلول الذى يمكن الاطمئنان إليه، كما فى حال التعامل مع مصطلح (مصريين) أو (بابليين) على المثال، ورغم أن الباحث قد يجد أوجهاً للقصور فى تاريخ أياً من تلك الشعوب، نتيجة

مبالغة هنا، أو اختفاء للمدون - في حقبة بعينها - هناك، فإن الاستعانة بعمليات القياس والنقد والمقارنة بين النصوص المتعددة، إزاء الحدث الواحد والتحليل ومحاكمة الوثائق على سياقها الداخلى والسياق التاريخى، يمكن الوصول بالمسألة إلى الوجه الأقرب إلى صدق ما حدث بالفعل، إضافة إلى ما يمكن القيام به من مقارنات، إزاء الحدث الواحد، بين نص يتحدث عنه في مدونات مصر، وبين نص آخر يتحدث عنه فى وثائق الرافدين، لكننا مع الجماعة الإسرائيلية لن نجد بين أيدينا مثل تلك المادة الخام الأساسية، لنعلم فيها أدوات البحث، فلا وثائق، ولا آثار، ولا سجلات عينية، لا شئ بالمرة سوى وثيقة واحدة هى الكتاب المقدس (العهد القديم).

وحتى نكون أكثر دقة، فإن تعبير (لا شئ بالمرة) لون من المجاز الصادق، فهناك بالفعل إشارات متأخرة فى وثائق متناثرة فى أشلاء مبعثرة بين دول المنطقة، لكنها لا تصنع تاريخاً بحال، ولا تؤكد فى التاريخ الإسرائيلى شيئاً بالقطع اليقينى أو تنفيه، أما فى المراحل الأقدم والتى تعود إلى بداية ذلك التاريخ ولقرون طويلة، بعده حتى ظهور تلك الإشارات المبعثرة، فالأمر معلق بالمقدس وحده، علماً أن ذلك التاريخ الذى لا وجود له إلا بالكتاب المقدس، وهو عمدة تاريخ اسرائيل، ويمثل أخطر الأحداث التى تقيم جماعة إسرائيل التاريخ كله عليها، ويشمل أهم البنى لمقدسهم وتاريخهم على

الإطلاق، ومثالاً لذلك علاقة الجماعة الإسرائيلية بمصر، التى تتمثل فى لحظة حاسمة وفاصلة وقاطعة فى تاريخهم، وتحكى عبر المقدس عن هبوطهم من كنعان (فلسطين) إلى مصر، زمن النبى (يوسف) عليه السلام، وخروجهم منها بعد قرون فى عهد النبى (موسى) عليه السلام، وسط أحداث هائلة سواء فى كيفها أو فى نتائجها، وما صحب ذلك الهول من هلاك كامل لجيش مصر، أعظم إمبراطوريات ذلك الزمان قاطبة، مع ما لحق الديار المصرية نفسها من دمار وهلاك بفعل رب إسرائيل (يهوه)، وأسهبت فى شرحه الرواية المقدسة، ومع ذلك فإنك لا تجد فى وثائق مصر، على كثرة ما اكتشف منها حتى الآن، وعلى ما فى هذه الكثيرة من ذكر لدقائق وتفاصيل صغيرة الشأن، كسجلات وعقود البيع والشراء، أو كأوامر ثانوية للفرعون بنقل موظف أو تابع قليل الشأن، أو جزاءات التقصير فى العمل، أو الأمر بالسماح لقبيلة بدوية بالانتجاع على الحدود، للعمل فى مناجم الفيروز وحفائر سيناء... إلخ .. فإنك لا تجد بين كل تلك التلال الأثارية والشواهد المدونة أية وثائق تشير إلى بنى إسرائيل، اللهم إلا إشارة وحيدة يتمية، يقول فيها الفرعون (مرنبتاح) بن الفرعون (رعمسيس الثانى)، ضمن لوحة يحكى عن انتصاراته « هلكت إسرائيل ولم يبق لها بذر »[1] ، وقد جاءت تلك الإشارة عرضاً، ضمن

---

(١) سليم حسن : الأدب المصرى القديم، كتاب اليوم، القاهرة، ١٩٩٠،ج٢، ص٢٢٢.

روايته عن سحقه لعدد من الشعوب، مثل اللوبيين (الليبيين)، والكوشيين [1] (السودانيين). وحتى لو غفلت مدونات مصر عن ذكر ذلك الحدث الهائل الذى دمرت فيه البلاد، وهلك الزرع والضرع والعباد، وغرق بعده الفرعون وجيشه العرموم فى خضم أمواج البحر، فما بال مدونات الشعوب المعاصرة للحدث لا تذكر ما حدث للجارة الكبرى؟ سواء فى بلاد الشام أو الرافدين أو تركيا بلاد الحيثيين؟

هذا كل ما جاء عن تاريخ إسرائيل الطويل العريض فى الأثر المصرى " هلكت إسرائيل ولم يبق لها بذر "!! أما بلاد الرافدين فإنها لا تعرف شيئا البتة عن التاريخ القديم لتلك الجماعة التى ملأت المقدسات صخباً وضجيجاً، وإن وردت إشارات فى الحقب المتأخرة تذكر شيئاً يسيراً فى شذرات عن مملكة تدعى (مملكة عمرى)، والتى يُظَن أنها مملكة إسرائيل فى عهد أحد ملوكها المعروف بأسم (عمرى)، خلال الربع الأول من الألف الأولى قبل الميلاد، ثم شيئا لا يغنى ولا يسمن عن انتصارات الآشوريين على سكان فلسطين وسبيهم لأهلها، ومثله شيئاً آخر عن انتصارات الكلدانيين على جنوب فلسطين، أما قبل ذلك فلا شئ على الأطلاق يشير إلى جماعة

---

(١) الكلمة كوشى في التوارة وفي المصريات القديمة تشير عموما إلى العنصر الزنجى.

إسرائيل، ولا للأحداث التى مرت بها، والتى أسهب الكتاب المقدس فى تدوينها كعادته، إلى حد الإملال، بل أن الحفريات المحمومة، والهوس الأركيولوجى الذى يمارس الآن فى دويلة الكيان الصهيونى، لم يسفر حتى تاريخه عن شئ يستحق الذكر، أو عن أمر يمكن القطع بشأن نسبته للجماعة الإسرائيلية، أو حتى تصنيفه ابتساراً ضمن مرحلة بعينها من مراحل ذلك التاريخ، الذى تضخم حتى صار ورماً ناتئاً فى تاريخ البشرية، دون سبب واضح، اللهم إلا بسبب مرض فى صُنّاع التاريخ وانحيازهم السافر، لإيجاد موطئ قدم للجماعة الإسرائيلية فى تاريخ الإنسانية.

وحتى لو غضضنا الطرف عن كل المراحل القديمة فى ذلك التاريخ، حسبما أوردته المقدسات الإسرائيلية، بحسبانها مراحل بداوة وعدم استقرار، لم تسمح لها ظروفها بترك آثار واضحة يمكن قراءتها، وبدأنا مع زمن قيام الدولة، بحسبان التاريخ عادة ما يبدأ مع الاستقرار، وقيام الكيان السياسى والتدوين، أى لو بدأنا مع المملكة التى أقامها (شاول وداود وسليمان)، رغم عدم ثبوت التدوين آنذاك (حوالى ١٠٠٠ق.م)، لما وجدنا لأى من تلك الأسماء المضخمة قدسياً وسياسياً وعسكرياً، أى ذكر فى سجلات أى من دول المنطقة بكاملها ودون استثناء، ذلك رغم ما قيل عن عظمة تلك المملكة واتساعها وجبروتها وعظم شأنها ومنشآتها، مع ما زُعم عن الهيكل والقصور

والجيش العرمرم؛ مهما دققت النظر وأعييت الذهن، فلن تجد آية اشارة، لا لمملكة وضيعة، ولا حتى فى حفائر الدويلة الحالية، ولا أثر معمارى واحد بقى يتيماً كشهادة واحدة على تلك المنشآت التى صدَّعت بها أسفار المقدس رؤوسنا، بينما نجد ما يقف بلا ضجيج، بدل الشاهد ألف، فى آثار فراعين مصر الذين سفههم ذلك المقدس، وأظهرهم فى المراتب الدنيا فى تاريخ الإنسانية، فالمملكة التى تبجح المقدس بعظمتها لا شئ عنها البتة، لا فى أثر على ظهر الأرض، ولا فى باطن الأرض، ولا حتى فى الورق!! اللهم إلا ورق المقدس وحده، وهو فى موازين التاريخ والبحث العلمى، مالم تخترع له وحدة قياس بعد.

هذا ما كان عن القصور الأول فى تاريخ جماعة بنى إسرائيل، والذى جعل من الصعب تدقيق الاصطلاح صادق الدلالة عليهم، فمع تاريخ كهذا لن تكون واثقاً عن أى شئ تتحدث بالضبط، ولا يبقى لديك سوى مأثرتهم الوحيدة (العهد القديم من الكتاب المقدس) لتتناول التاريخ الوارد فيه بالدرس، لكن الكتاب المقدس نفسه يضعك فى حيرة عندما تريد تدقيق الاصطلاح، ما بين العبريين واليهود والاسرائيليين، لكن العجيب فى الأمر، والمثير لدهشة الباحث وقلقه معاً، هو ذلك التكامل المدهش فى ذلك المأثور، الذى يندرج ضمن التاريخ أكثر مما يندرج ضمن الدين، فيظهر بمظهر الدقة الصارمة، ويتحدث عن الجماعة الإسرائيلية من البدء، نسباً لنسب، ليرتفع بهم

إلى أرومتهم (النبى إبراهيم عليه السلام)، ثم يصعد ليصل إلى شخصية تراثية أبعد هى (النبى نوح عليه السلام)، ثم يغالى دون أن يبالى، فيرتفع بسلسلة الأنساب حتى يصلها مباشرة بشخصية تراثية أخرى هى (آدم) أبو البشر، مع تفصيل لكثير من الدقائق والمنمنمات التى يقدمها كشواهد، إثباتاً للمصداقية، هذا علماً أن كل هذا المدون الذى يضرب فى عمق الزمن السحيق، لم يتم تدوينه إلا فى زمن متأخر جداً بما لا يقارب، قياساً على زمن الأحداث التى يرويها، حيث لم يبدأ تدوين المقدس الإسرائيلى حسب أبعاد الترجيحات، وأكثرها تأولاً لصالح بنى إسرائيل، إلا بعد بداية الألف الأولى قبل الميلاد.

وإزاء هذا التأخير فى التدوين، مع التكامل الظاهرى، والإصرار على التدقيق فى تفاصيل أحداث سحيقة فى القدم، فإن أى باحث لا يملك سوى أن يرى فى ذلك التاريخ المقدس صنعة وانتحالاً واضحين، وريبة مركزية تحيط بها كثير من الظنون، مما يفقده الكثير من المصداقية لأول وهلة، وقبل وضعه على أى ميزان، هذا ناهيك عما تلبّس بهذا التاريخ من أساطير ومبالغات لا تخلو منها صفحة من صفحات ذلك المقدس، ملتبسة بأحداث أخرى واقعية، وتتم رواية ذلك المزيج الهجين بحسبانه فى مجمله أحداث تاريخية واقعية، مما يلقى مزيداً من ظلال الشكوك على الحدث نفسه، الذى يروى كواقعة تاريخية.

أما ما يزيد الأمر تعقيداً، فهو أن تلك الجماعة، وحسب الكتاب المقدس ذاته، قد مرت بعدة أدوار، انتقلت فيها نقلات هائلة ومتغيرة كمياً وكيفياً، بحيث لا يمكنك في مرحلة بعينها، الزعم أنك تتحدث دون خلط، وهو ما ألقى بظلاله على تدقيق الاصطلاح المناسب الدال على تلك الجماعة البشرية، فاصطلاح العبريين يرتبط أساساً بلغة تلك الجماعة، والمعروفة باللغة العبرية، كما يرتبط من جهة أخرى بتفسير الباحثين للاصطلاح بحسبانه دالاً على حدث تاريخى، هو عبور القبيلة الأولى (الإبراهيمية) للنهر، فى هجرتها من وطنها الاصلى إلى كنعان، ويتضارب الباحثون التوراتييون ـ دون الشعور بأى خلل ـ ما بين كون هذا العبور لنهر الفرات أو لنهر الأردن، فالأمر مقدس، ومع المقدس كل شئ جائز، وقد كانت هذه الهجرة من مدينة (أور) المزعوم بالتوراة أنها (أور الكلدانيين)، الواقعة فى أقصى الطرف الجنوبى الغربى لبلاد الرافدين حسبما ذهب الباحثون، والتى ذهبنا نحن بها إلى منطقة (أرارات) فى جبال (أرمينيا) حول هضبة أرارات وغربها، أى المنطقة الواقعة شمالى العراق وسورية الآن، وذلك فى كتابنا (النبى إبراهيم والتاريخ المجهول).

ومن جانبنا فقد رأينا اصطلاح (العبريين) غير صادق الدلالة إلى حد بعيد، رغم كونه أكثر الاصطلاحات استخداماً فى كتابات الباحثين، وموقفنا يتأسس على خطأ نراه أساسياً فى مستند هؤلاء،

لأن الكلمة (عبرى) لا تعود بحال إلى عبور نهر، وإعادتها لعبور القبيلة الإبراهيمية للنهر، قصد بها تخريجاً يتماشى مع سيناريو كاتب هذا الجزء بالكتاب المقدس الذى دون قصة الهجرة الإبراهيمية من (أور) إلى كنعان، بينما الأصل يعود إلى أن القبيلة الإبراهيمية المعنية بهذا الاصطلاح، تعود بنسبها إلى الجد المدعو (عابر)، وذلك حسب شجرة الأنساب التوراتية، فإبراهيم هو ابن تارح (آذر فى الرواية الإسلامية)، ابن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر، وعابر هذا هو حفيد سام بن نوح، وتعود أهمية (عابر) فى هذا السلسال حسب التعليلات التوراتية، إلى أنه فى زمنه وزمن ولده (فالج)، قسمت الأرض حسب ألسنتها إلى شعوب وأجناس، ووزعت على خريطة المنطقة، بحيث تميز العبريون فى هذه القسمة عن غيرهم من الشعوب، لذلك لاينى الكتاب المقدس يذكر الجد عابر بشكل متواتر، قاصداً به الدلالة على الشعب الذى تناسل عن النبى إبراهيم تحديداً.

ومكمن الخطأ فى استخدام هذا الاصطلاح، هو أنه إلى (عابر) ذاته، تعود مجموعة أخرى من الشعوب، حسب القسمة التوارتية ذاتها، هم أبناء (يقطان) أحد أبناء عابر، وأبناء يقطان هم عرب جزيرة العرب وبخاصة جنوبها (قحطان) لذلك فإن دلالة (عبرى) حسب المقدس، تشمل بنى إسرائيل، كما تشمل شعوب جزيرة العرب،

فهى دلالة أوسع وأشمل وأعم من بنى إسرائيل وحدهم، وكما تبين دلالتها فى الكتاب المقدس، فهى تشير إلى الرعاة وأصحاب نهج البداوة بشكل عام، وحيثما استعملنا التعبير (عبرى)، يتبادر إلى الذهن فوراً تعبير (عربى) كمصطلح دال على الرعي والبداوى، ولنلحظ أنه بظاهرة الميتاتيز الفونيطيقى (القلب اللسانى)، يمكن أن تتبادل (عبرى) و (عربى). وعلى مستوى اللسان فأنه من (عبرى) يكون التعبير، أو الإفصاح من (عبّر) ومن (عربى) يكون الإعراب (أعرب) أى أفصح وعبّر وهو يحمل ذات الدلالة، ولا يفوتنا الاقتراب الحميم بين اللغتين العربية والعبرية تحديداً من بين بقية فروع شجرة اللغات السامية، وفى المأثور (إسماعيل) أبو العربان، هو أخ لإسحق أرومة بنى إسرائيل، وفى التاريخ تحدثت وثائق الرافدين عن مملكة (عريبى)[1]، بينما تحدثت وثائق مصر عن البدو باسم (عبيرو)[2]، ولنلحظ أمراً لايخفى مغزاه، وهو اعتماد المؤرخين الإسلاميين على شجرة الأنساب التوراتية، فى حال تنسيبهم لشخصيات عربية تاريخية، بحيث تعود تلك الشخصيات دوماً فى النهاية إلى الشجرة العبرية.

---

(١) فرتز هرمل : التاريخ العام لبلاد العرب الجنوبية ضمن كتاب التاريخ العربى القديم، ترجمة د. فؤاد حسنين.

(٢) ر.س. ماكلستر : الأقوام الجدد، ترجمة عبد الحميد يونس، تاريخ الإنسانية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت، مج٢، ص٩٣.

وفى حال احتساب اصطلاح عريبى منسوباً إلى اللغة العبريـة، فإنه من المفيد أن نعلم، أن اللغة العبرية نفسها لم تكن لغة بذاتها بهذا الاسم، بل هى «شفة كنعان ـ أشعيا ١٩ : ٦٨» أى لسـان الكنعـانيين، حيث اكتسبتها القبيلة الابراهيمية بعـد نزولها فلسـطين، حيث سـكنت بين سكانها الكنعانيين، وتكلمت بلسانهم اكتسـاباً، وعليـه فـإن اسـتخدام اصطلاح عبرى سيشمل القبيلة الإبراهيمية الوافدة، والكنعانيين سـكان فلسطين، وعرب الجزيرة، وما أبعد ذلك عن الصحة والسلامة، ومـن هنا رأينا أن اصطلاح عبرى، لا يفى بدقة للدلالـة علـى بنـى اسـرئيل بقدر ما يدل على البداوة عموماً .

أما اصطلاح (يهود)، فهو لا يشير إلى جنـس بعينـه، أو شـعب بذاته، أو مكان محدد، أو لكيان سياسى بخصوصيته ونظامه، قدر ما يشير إلى تصنيـف طـائفى، يتأسـس علـى العقيـدة والملـة التـى اجتمـع عليها البشر، الذين شكلوا الجماعة الإسرائيلية، وتعود التسمية (يهـود) إلى رب هؤلاء المعبود فيما بعد العهد الموسوى باسم (يهوه)، ثم إلـى أحد الأسباط من أبناء يعقوب، والمدعو (يهوذا)، الـذى سـمى بـه قسم منفصـل عـن دولـة سـليمان حمـل اسم (مملكـة يهوذا). والاصطـلاح واضح القصور، حيث لم يظهر الإله يهوه إلا مع ظهور النبى موسـى عليه السلام، والنبـى موسـى هـو أحـد أحفـاد سبط لاوي أو ليفـى بـن

يعقوب المعروف بإسرائيل، حوالى عام ١٢٥٠ ق.م، مع إسقاط كل المراحل السابقة فى تاريخ تلك الجماعة، هذا ناهيك عن كونه لايفى إطلاقاً بدلالته الصادقة، على الشراذم المؤتلفة اليوم فى الكيان الصهيونى، والتى لا تجمعها لالغة مشتركة ولا تاريخ واحد، ولا جنس، ولا موطن، ولا يجمعها شئ سوى الملة والطائفة، والمبدأ العنصرى الذى يقوم عليه ذلك الكيان، وإعمالاً لذلك فإن اصطلاح (يهود) لا يحمل دلالة صادقة على الجماعة الإسرائيلية المقصودة فى الكتاب المقدس.

ومن هنا، فقد ملنا إلى استخدام اصطلاح (بنى اسرائيل) الذى يشير إلى الجماعة القديمة، صاحبة ذلك التاريخ المقدس، رغم ما قد يلحق ذلك الاصطلاح بدوره من عيوب، وهو اصطلاح يعود فى منشأه إلى يعقوب بن اسحق بن إبراهيم، فى قصة مقدسة ومشهورة تقول إن يعقوب التقى رباً يُعرف بالاسم (إيل)، وكان رب إبراهيم وإسحق ويعقوب، وظل رباً لتلك الجماعة حتى ظهور النبى موسى وربه (يهوه)، وتحكى القصة حكاية النزال الجسدى بين يعقوب وإيل، وكادت المصارعة تحسم لصالح يعقوب، لولا أن كشف إيل عن شخصيته الإلهية ليعقوب، حيث أمره بتبديل اسمه من يعقوب إلى إسرائيل، وهو نحت لفظى مركب من ملصقين، يترجمه بعض الباحثين تجميلاً، وربما مجاملة لشعب الرب، بالترجمة

(جندى الرب)، بينما صدق التسمية لدينا هى (صرع ـ إيل/ أى مصارع الرب، أو الذى صرع الرب وهزمه، ولو كان صدق التسمية هو (جندى الرب) لكان الأصل العبرى هو (صبت ـ إيل) وليس (اسر = إيل) = (صرع = إيل) - انظر الكتاب المقدس سفر التكوين : ٣٢ : ٢٢ ـ ٢٩).

وقد ملنا إلى استخدام اصطلاح بنى إسرائيل، رغم كونه لا يشمل سلف الجماعة قبل يعقوب (إسحق وإبراهيم)، لكنه على أية حال الأقرب إليهم زماناً، فيعقوب حفيد إبراهيم مباشرة، هذا بالإضافة لكونه تابعاً فى العقيدة للإله (إيل)، بينما يرتبط يعقوب نفسه من جهة أخرى بالأسباط بنى إسرائيل وهم بنيه، الذين جاء من نسلهم موسى عليه السلام صاحب الإله الجديد (يهوه).

أدوار التاريخ الإسرائيلى

من المتفق عليه بين الباحثين المهتمين بدراسة تـاريخ الجماعـة الإسرائيلية اللجوء إلى تقسيم هذا التاريخ إلى مراحل أو أدوار، فـى محاولـة لتجـاوز الصعـاب والعقبـات التـى ربمـا تعـرض لونـاً مـن الاستحالة، فى حالة معالجته كتاريخ متصل، وهـى الصعـاب الناتجـة عن العيوب الأساسية فى مسيرة هذا التاريخ، والتى أشرنا إليهـا، وقد اختلـف تقسيم تـاريخ بنـى إسـرائيل بيـد المؤرخيـن حسـب الرؤيـة، والمنهج، والمدرسـة، والأيديولوجيـا فـى أغلـب الأحيـان، وللإيجـاز سنعمد إلـى الـرؤى المطروحـة والمعلومـة لـدى القـارئ العربـى، وأوسعها انتشاراً تقسيم (فيليب حتـى) لهذا التـاريخ دوريـن رئيسـيين، يعتمدان خط الهجرات للجماعة الإسرائيلية إلى فلسطين، والذى تم فى هجرتين رئيسيتين، تفصل بينهما مرحلة زمانية، تعود الهجرة الأولـى منهما إلى القبيلة الأولى فى التاريخ الإسرائيلى (القبيلـة الإبراهيميـة)، وهى الهجرة التى هبط فيها البطرك إبراهيم وعائلتـه أرض فلسطين فى أستيطان أول، أما الهجرة الثانية فكانت فى الزعـم المقدس مجرد عودة إلى فلسطين، بعد أن اضطرت المجاعـة وشظف العيش النبـى (يعقوب) وأسباطه وأحفاد إبراهيم عليه السلام، إلى هبوط مصر طلبـاً للقوت، حيث لبثـوا هنـاك زمنـاً عـادوا بعـده فـى هجـرة ثانيـة إلـى

فلسطين، لكن الهجرة هذه المرة، ضمت عدداً هائلاً من البشر، وتأسيساً على ذلك أقام (فيليب حتى) تقسيمه لتاريخ بنى إسرائيل إلى دورين، مثلتهما هجرتين إلى فلسطين، لكنه يؤكد أن التاريخ الحقيقى لتلك الجماعة، وظهورهم فى التاريخ (كشعب)، إنما يبدأ من الهجرة الثانية، أى مع خروجهم من مصر بقيادة النبى موسى عليه السلام، حوالى عام ١٢٣٤ ـ ١٢١٥ ق.م فيما يذهب هو إليه، وأن هذا الخروج أو الهروب أو الهجرة، لم تشمل سوى قبيلة واحدة من جماعة إسرائيل، هى قبيلة (راحيل)[1]، نسبة إلى راحيل الزوجة الثانية ليعقوب وهى أم يوسف النبى عليه السلام وأخيه بنيامين، والمقصود هنا أن القبيلة التى دخلت مصر وخرجت منها هى فقط نسل راحيل فقط دون بقية الجماعة الإسرائيلية.

وإن المؤرخ (فيليب حتى) وهو يضع ذلك اللغم، يتركه ويستمر فى عرض تاريخ الجماعة، لكن بعد أن يشعل فتيله الذى يشير لقارئ لبيب، لديه إلمام كاف بالتاريخ المقدس، إلى تفجر وتشظى الجماعة الإسرائيلية قبل دخول مصر، وإلى احتمال أنها لم تكن يوماً جماعة واحدة، إنما حدث لها إئتلاف بعد الخروج بقيادة

---

(١) فيليب حتى : خمسة الالف سنة من تاريخ الشرق الأدنى، الدار المتحدة للنشر، بيروت، ١٩٧٥، مج ١، ص١٢٦ ، ١٢٧.

قبيلة راحيل، وأن الخروج لم يشمل إلاّ عدداً محـدداً من بنـى يعقـوب إسرائيل، وعليه فلا مندوحة لعقل نقدى، أن يستدل من رؤيـة (حتـى) على أن جماعة إسرائيل لم تتكون حقيقة إلا بعـد الخـروج، وبـالتدريج لتتشكل من إئتلاف قبلى كان أصلاً متعدد العروق ومختلف المشارب، ولم يكن من بينها من هو أصيل النسب لإسرائيل سوى أبناء راحيل، وهو أمر يمكن أن يؤدى بإعمال البحث المدقـق إلـى نتـائج هائلـة فـى محتواها، وهو ما نحاول إعمـال البحـث فيـه حاليـاً، فـى كتـاب لازال مشروعاً قيد البحث بعنوان (النبى موسى وآخر أيام تل العمارنة).

أما عالم الساميات (سبتنيوموسكاتى) فيلجأ فى تقسيمه للتـاريخ الإسـرائيلى إلـى أدوار، مسـتنداً إلـى رؤيـة أخـرى، ترتبـط بمراحـل الاسـتيطان والارتحـال الإسـرائيلى مـن مواطـن مختلفـة ومتباينـة إلـى مواطن أخرى متباعدة، يبدأها بالمـأثور التوراتـى حـول إقامـة القبيلـة الأولى (الإبراهيمية) فى جنوب بلاد الرافديـن (وهـو يسلم بذلـك دون مناقشة)، ثم هجرتهم من هناك إلى فلسطين، ثم يثنى على الدور الثانى الذى هاجر فيه يعقوب إسرائيل وأولاده إلى مصـر حيث أقـاموا فيهـا إلى أن أنتهى بهم الأمر إلى الأضطهاد، ثـم الخـروج من مصـر إلـى سيناء بقيادة موسـى النبـى عليـه السـلام. ثـم ينتقـل إلـى الـدور الثـالث والأخير فى تقسيمه، والذى يرتبط بدخولهم أرض فلسطين فى سلسلة من الحملات، التى وُجهت إلـى جنـوب فلسـطين ووسـطها وشـمالها،

حتى استيطانهم فيها، وينسب تلك الأحداث إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، مشيراً إلى حفائر آثارية فى جنوب فلسطين، تشهد بتدمير بعض المدن حوالى ذلك الزمن، ويحتسب ذلك دليلاً كافياً على حدوث الهجوم الإسرائيلى على فلسطين[1]، وهو الأمر الذى يؤخذ على باحث فى وزن موسكاتى، فدليله واضح التحيز وبَيّن القصور، لأنك لن تحفر الأرض فى أى موطن فى الشرق الأوسط، إلا وتجد قرى وبلاداً عفى عليها الزمان، بعد تدميرها على يد أقوام أخرى، ومعلوم أن منطقة الشرق الأوسط كانت تموج لمدى ثلاثة آلاف عام بالحركات البشرية والهجرات، ومعلوم أيضاً أن فلسطين نالها النصيب الأكبر من اصطراع تلك الجموع البشرية الهائلة، لموقعها الجغرافى المركزى فى بطن المنطقة، وعليه فإن وجود قرى مدمرة فى طبقات الحفائر بفلسطين لا يشير بالشرط والقطع إلى بنى إسرائيل تحديداً فى الزمن الذى يشير إليه، وكون فلسطين كانت طوال تاريخها معبراً لجميع الشعوب المهاجرة، وساحة لمعارك الأمبراطوريات الكبرى المتصارعة دوماً (مصر، آشور، بابل، الحيثيين)، كفيل وحده بجعل فلسطين تنال نصيباً أوفر من الدمار المتواصل، أكثر من مواضع أخرى كثيرة فى الشرق القديم.

---

(١) موسكاتى : الحضارات السامية القديمة، ترجمة د. السيد يعقوب بكر، دار الكاتب العربى للطباعة، القاهرة، ١٩٥٧،ص١٤٩، ١٤٠.

هذا بينما يذهب باحث آخر ـ لا يقل اجتهاداً ـ هو (أحمد سوسة) إلى تقسيم التاريخ الإسرائيلى إلى أدوار ثلاثة، يعتمد ذات خط (موسكاتى)، أقصد نظرية المواطن التى تقاسمت حركة التبدى للجماعة الإسرائيلية، لكنه يخالفه فى تزمين تلك المراحل طولاً أو قصراً، فالدور الأول يبدأ بهجرة النبى إبراهيم عليه السلام، مع قبيلته، من (أور الكلدانيين) جنوبى بلاد الرافدين، لكنه يمد هذا الدور زمنياً لينهيه باستقرار الإسرائيليين فى مصر، حيث يزعم أنه بعد هبوطهم مصر، اندمجوا كلية فى البيئة المصرية، بعد قضاء ست قرون كاملة هناك (وهو تقدير خاص بأحمد سوسة)، لكن مسألة الاندماج التام رأى له وجاهته، فى ضوء ما يعرفه التاريخ، عن قدرة مصر الفذة فى امتصاص الغرباء وتمصيرهم، فى أزمنة أقصر بكثير من المدة المزعومة لبقاء الإسرائيليين بمصر، ثم ينتقل (سوسة) بعد ذلك إلى الدور الثانى، الذى يبدأه مع النبى موسى عليه السلام وجماعته، فى نزوحهم من مصر إلى فلسطين، ويذهب فى ذلك إلى رأى فريد، فيقول : إن رحلة الخروج التى أسهب فى روايتها الكتاب المقدس، وتعتبر حجر الزاوية فى البناء التاريخى لإسرائيل بكامله، ليست سوى « حملة مصرية، مؤلفة من جماعة من المصريين، وبقايا الهكسوس، يدينون بدين التوحيد، الذى ورثوه عن إخناتون فرعون مصر، واضطروا تحت ضغط الوثنيين واضطهادهم إياهم إلى الهروب من مصر، والتوجه إلى أرض كنعان ».

بل ويذهب (سوسة) إلى أن هؤلاء الخارجين لا ريب « كانوا يتكلمون باللغة المصرية، وبها كلمهم موسى على وجه التأكيد، وقد

نسبت التوراة هذه الحملة إلى بنى إسرائيل، بغية ربط هذه الجماعة، بيعقوب وبإبراهيم الخليل، كما نسبت موسى إلى كهنة بنى لاوى بن يعقوب، فى حين أن الرأى الغالب لدى الباحثين فى هذا العصر، هو أن موسى كان قائداً مصرياً فى بلاط إخناتون، يدين بدين التوحيد الذى دعا إليه إخناتون، ورواية التوراة نفسها، تشير إلى أن موسى تربى فى بلاط فرعون، واتخذته ابنة فرعون ابناً لها ـ خروج ٢ : ١٠ ـ ثم تزوج من امرأة كوشية (زنجية) ـ عدد ١٢ : ١٠ ـ فلو كان لاوى فى الوجود زمنه، لتزوج إحدى بنات عمومته، ومن الثابت لدى العلماء، أن اسم موسى اسم مصرى صميم، تسمى به أباطرة عصر الإمبراطورية : أحمس أو (أح موسى) .. تحوتمس أو (تموت موسى)، رعمسيس أو (رع موسى) أما لغة هذه الشريعة فالأرجح عندنا أنها كانت باللغة المصرية، وقد أخذت جماعة موسى بالحضارة الكنعانية وتقاليدها وعاداتها، كما أخذت بلغتها الكنعانية.. أما لغتهم التى صارت تسمى بالعبرية فى وقت لاحق، فهى إحدى اللهجات التى اقتبسوها من الآرامية، وقد تكونت بمرور أكثر من ستمائة عام، على دخولهم أرض فلسطين، وبها كتبت التوراة فى بابل بعد عهد موسى بثمانمائة عام، وبعد عدة قرون اقتبست هذه الجماعة الكثير من أسس الديانة والعبادة الكنعانية، وصارت جزءاً من ديانتها »[1] .

---

(١) أحمد سوسة : العرب واليهود فى التاريخ، دار العربى للإعلان والطباعة والنشر، ط٢، د.ت، دمشق، ص ١٥٥ : ١٥٧.

ولنلحظ هنا، أن القول بمصرية موسى عليه السلام سبق إليها أعلام مثل (جيمس هنرى برستد) و(سيجموند فرويد).. إلخ، هذا إضافة لما يتمتع به رأى (سوسة) فى جملته من وجاهة، تضعه فى إعتبار أى باحث جاد.

ثم ينتقل (سوسة) إلى الدور الثالث من أدوار التاريخ الإسرائيلى، فينتقل مع بنى إسرائيل إلى موطن ثالث، يبدأ بسببيهم من فلسطين إلى بابل علي يد (نبوخذ نصر الثانى الكلدانى)، وذلك حوالى عام ٥٨٦ ـ ٥٣٩ ق.م، حيث أقاموا فى بابل، إقامة أدات إلى تطور هائل فى العقيدة اليهودية خلال القرون التالية، كما كان لتلك الإقامة أهمية أخرى، فقد دُونت فى بلاد الرافدين ـ أثناء الأسر ـ أهم فصول التوراة. ويذهب (سوسة) إلى أنه ربما كان فى حوزتهم، نسخة من وصايا موسى الأصلية، المكتوبة بالهيروغليفية، قدمت لهم المادة الأساسية والخام، لعملهم بالكتاب المقدس[١] .

ثم نجد لوناً آخر من تقسيم التاريخ الإسرائيلى، لا يعتمد خط الحركة المهاجرة ولا يأخذ باعتباره المواطن الجغرافية للحل والترحال، إنما يربط بين أدوار التقسيم، وبين تبادل الأحداث التى مرت بالجماعة الإسرائيلية، وكانت ذات أثر جوهرى فى حدوث

---

(١) نفسه : ص ١٥٨ ، ١٥٩.

نقلات تاريخية، حولته تحولاً كبيراً، بحيث أصبح ذلك بمثابة الانتقال من دور إلى آخر، مع أخذه بالحسبان، شكل الحياة، أو نمطها السائد، ومدى ما دخلها من تغيرات نقلتها من دور إلى دور آخر فى التاريخ، وهو ما نجد نموذجاً له عند (أنيس فريحة) حيث يقول: «مر العبران فى خمسة أدوار رئيسية:

١ ـ دور البداوة .. حيث كانوا من جملة القبائل السامية المنتشرة فى شمالى الجزيرة العربية» .. **ولم يكونوا موحدين،** لكنهم كانوا في طريقهم نحو التوحيد، وأصبح **أحد آلهتهم** ـ يهوه ـ قائدهم في الحروب.. الإله الأول .. وكان يهوه إله قبيلة قليلة العدد ضيقة الآفاق، وكان يتميز بكثير مما تتميز به آلهة الصحراء، فقد كان إلهاً غيوراً يفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء، للجيل الثالث والرابع، كان صارماً شديداً، حتى أنه لم يرد أن يرسم له رسم أو نحت، خوفاً من المنافسة، ولكن هذا الإله الصحراوى أصبح على يدى الأنبياء أمثال إشعيا وعاموس وميخا، إلها عالمياً يأمر بالمحبة والعدل.

٢ ـ دور التكوين القومى والسياسى .. وهو طور أستقرارهم فى كنعان، بعد أن دخلوا أسباطاً وعشائر تحت إمرة شيوخهم وقضاتهم، ولم تخضع البلاد لهم برمتها، بل ظلوا يكافحون فيها

قروناً يحاربون، حتى دانت لهم من دان إلى بئر سبع، وكانت الحضارة الكنعانية أرقى من حضارتهم، وكذلك كانت لغة الكنعانيين أرقى من لغتهم، فاقتبسوا لغة البلاد واندمجوا في حضارتها، وتكونت على مر الأجيال قومية عبرية، .. وتأسست الملكية،.. ونعموا بفترة استقرار ورخاء دامت أكثر من تسعين سنة، ثم أنهم ما لبثوا أن انقسموا على ذواتهم، قسم شمالى عاصمته بالقرب من نابلس الحديثة، وقسم جنوبى عاصمته أورشليم، وفى هذه الفترة، نشأ صراع عنيف بين يهوه وبين آلهة أخرى زراعية، وقام نزاع بين كهنة البعل وكهنة يهوه، واشتد الصراع بين العادات الصحراوية القبلية، وبين العادات الزراعية الحضرية.

٣ ـ دور السبى.. فى سنة ٧٢١ق.م وقعت المملكة الشمالية إسرائيل فى قبضة الآشوريين، فخربوا العاصمة، وأجلوا قسماً كبيراً من السكان إلى العراق، وفى عام ٥٨٦ق.م، وقعت المملكة الجنوبية فى قبضة البابليين، فخربوا العاصمة، ودكوا معالم الهيكل، وأجلوا السكان إلى بابل.

٤ ـ دور الرجعة إلى موطنهم.. كان رجوعهم إلى فلسطين على يد الفرس، وقد انصب حماسهم فى إعادة بناء الهيكل .. وفى هذه

الفترة وضعت أكثر أسفار التوراة، كما نعدها حتى يومنا هذا .. وهذه الفترة كانت فترة نضوج اليهودية الرسمية التقليدية.

٥ ـ دور وقوعهم تحت الهلينية.. وقعت فلسطين تحت حكم الإغريق عند أواخر القرن الرابع ق.م.. فنشأت حرب فكرية عقائدية بين الإغريق واليهود.. وقد اشتد العداء واستفحل، فنشبت بينهم حروب دامية تعرف بحروب المكابيين.. وقرر أنطيوخس أبيفانس أن يمحو اليهودية من الوجود، فجرد عليهم طيطس الروماني عام ٧٠ للميلاد حملة كبيرة، كانت القاضية، فخرَّب الهيكل وأحرقه، وتشتت اليهود من جميع أنحاء المعمورة "[١] .

---

(١) أنيس فريحة : دراسات في التاريخ، دار النهار، بيروت، ١٩٩٠، بيروت ، ١٩٨٠، ص١٤٥، ١٤٩.

أحداث الدخول

فى الطور الإيلى الإبراهيمى :

تبدا الأحداث فـى الأصـل، بـنزول إسـرائيل (وهـو يعقـوب بـن إسحق بن إبراهيم) إلى مصر، بصحبة بنيه من الأسباط الأحـد عشـر، بعـد أن اسـتدعاهم ولـده الأثير، السـبط الثـانى عشـر (يوسـف عليـه السلام)، والذى سبق أن بِيع رقيقاً فى مصر، بعد مؤامـرة مـن أشـقائه لاستبعاده، كي يخلو لهم وجه أبيهم، وفـى مصـر تقلبـت بـه الأحـوال، حتى انتهى وزيراً لخزانة المصريين.

وتقول التـوراة : إن بنـى إسـرائيل قـد قضـوا فـى مصـر ٤٣٠ عاماً، لكنها لا تحدثنا إطلاقاً، عما جـرى لبنـى إسـرائيل هنـاك طـوال تلك السنين، رغم ميلها المعهود إلـى التفصيـل والتكـرار الممـل، فقـط تبدأ التوراة عادتها، بالشرح والتفصيـل والتكـرار كدأبهـا، مـع ظهـور النبى موسى عليه السلام، الذى قدر له أن يقود بنى إسرائيل فى رحلة خروج أو هرب كبرى إلى فلسطين.

ومن المشكلات العَصيَّة علـى أى بـاحث، هـو محاولـة القطـع بشـأن الزمـن الـذى بـدأ فيـه ظهـور القبيلـة الإسـرائيلية أصـلاً، علـى صفحات التاريخ، مع جدهم البعيد إبراهيـم، وإن كـان الأقـرب للقبـول

افتراضاً، هو تواجد النبى إبراهيم عليه السلام خلال القرن السابع عشر قبل الميلاد، وذلك وفق مقاربات افتراضية، تستند إلى رواية توارتية، تتحدث عن مهاجمة فرعون مصرى لمملكة إسرائيل بعد موت ملكها سليمان مباشرة، وقد ذكرته التوراة باسم (شيشق)، ولأن تاريخ مصر المدون فى آثارها، حدثنا عن فرعون باسم (شيشنق)، وأنه كان صاحب حملات على بلاد الشام وفلسطين، فقد تم لأول مرة محاولة ضبط التاريخ الإسرائيلى متوافقاً مع التاريخ المصرى، وتم التزمين الافتراضى لزمن سليمان، بمطابقته مع زمن شيشنق أو (شيشق) الذى عاش حوالى ١٠٠٠ ق.م. وعليه فقد وضعت خطة ترتب الأزمنة والأحداث والشخصيات التاريخية الهامة، ارتجاعياً، بدءاً من زمن شيشنق وسليمان، وفق سياق افتراضى يصل فى النهاية إلى زمن النبى إبراهيم عليه السلام.

وإن الأحداث التى تتعلق بحدثى الدخول والخروج، يمكن تقسيمها بين مرحلتين أو طورين، هما الطور الإيلى الإبراهيمى، وخلاله تم حدث الدخول، ثم الطور الثانى اليهوي أو الموسوي وخلاله تم حدث الخروج، وعليه فإن أحداث الدخول، هى تلك التى تبدأ بزمن النبى إبراهيم، وتنتهى بظهور النبى موسى على صفحة الأحداث، حيث يبدأ بعد ذلك حدث الخروج.

ويتضح من رواية التوراة (الكتاب المقدس)، أن تلك الجماعة قد عاشت هذا الطور فى حالة من التبدى والارتحال الدائمين، وكان إبراهيم عليه السلام راعياً للمواشى، كذلك كان أبناؤه هبوطاً من إسحق إلى يعقوب، وهو ما يتضح فى قول يوسف عندما استقبل أخوته بمصر " .. ثم قال يوسف لأخوته ولبيت أبيه : أصعد وأخبر الفرعون وأقول له : أخوتى وبيت أبى الذين فى أرض كنعان جاءوا إلىَّ، والرجال رعاة غنم، فإنهم كانوا **أهل مواشى**، وقد جاءوا بغنمهم وبقرهم وكل مالهم، فيكون إذا دعاكم فرعون وقال ما صناعتكم، أن تقولوا : عبيدك **أهل مواشى** منذ صبانا إلى الأن، نحن وآباؤنا جميعاً، لكى تسكنوا أرض جاسان، لأن كل راعى غنم رجس للمصريين تكوين ٤٦ : ٣١ ـ ٣٢ ".

لكن ثمة إشارات غامضة فى مصر ما بين يوسف وموسى، غلب عليها حكاية الاضطهاد، لكن عملهم قبل ذلك أيام فرعون يوسف كان رعاية مواشى الفرعون، أو كما جاء بالكتاب المقدس "فكلم فرعون يوسف قائلاً: أبوك وأخوتك جاءوا إليك أرض مصر، قدامك فى أفضل أرض أسكن أباك وأخوتك، ليسكنوا فى أرض جاسان، وإن علمت أنه يوجد بينهم ذو وقدره، فاجعلهم رؤساء مواش على التى لى ـ تكوين ٤٧ : ٥،٦ ".

هذا إضافة إلى ما يظهره السرد التوراتى لحياة إبراهيم ونسله فى أرض كنعان، وأنها كانت ارتحالاً دائماً وراء الكلأ، حيث تجد النغمة السائدة « ثم ارتحل إبراهيم ارتحالاً متوالياً ـــ تكوين ١٢ : ١٩ »، دونما استقرار، فلم يعرفوا سكن البيوت، بل سكنوا فى خيام متنقلة، وعادة ما كان الرب يظهر لإبراهيم وهو يقضى القيلولة أمام خيمته « وظهر له الرب عند بلوطات ممراً، وهو جالس فى باب الخيمة، وقت حر النهار ـ تكوين ١٨ : ١٥ ».

ومن الطبيعى أن يستتبع العمل بالرعى هجرات متعددة وراء العشب، وحسب حال الطبيعة من جود أو شح، لذلك كان نزولهم مصر فى عهد إبراهيم، وفى عهد يوسف بن يعقوب، وعادة ما كان يسبق تلك الحركة المهاجرة الإشارة إلى نزول جوع بالأرض « وحدث جوع فى الأرض، فانحدر إبرام إلى مصر ليتغرب هناك ـ تكوين ١٢ : ١٠ »، « وكان الجوع على وجه كل الأرض ... فلما رأى يعقوب أنه يوجد قمح فى مصر، قال يعقوب لبنيه: لماذا تنظرون بعضكم إلى بعض ؟ وقال : إنى قد سمعت أنه يوجد قمح فى مصر، انزلوا إلى هناك ـ تكوين ـ ٤١ : ٥٦، ٤٢ : ١،٢ ».

ويبدو من عدة شواهد أخرى، أن أهم مظاهر ثروتهم التى تمثلت فى الأنعام، كانت ثروات عائلية لافردية، ولا قبلية، إنما كانت ملكية عائلية أسرية، فنجد أن لوطاً ابن أخى إبراهيم، له ولأسرته أملاكها من المواشى، ولإبراهيم وأسرته أملاكاً أخرى تخصهم، كذلك الأمر مع أبنائه، بينما كانت أراضى المراعى وآبار المياه ملكية جماعية مشاعية، لكن دون ثبات أو دوام، فكانت المراعى تتعرض للجفاف، والآبار للنضوب، فتنتقل القبلية مع مواشيها، كما حدث فى حال نزولهم إلى مصر، أو فى حال استيلائهم على أرض فلسطين، ولم تكن الفروق كبيرة فى ذلك العهد بين ثروات أسر تلك القبيلة، ولا بين ثروات الأفراد، إلا فى حالات طارئة تزيد فيها الثروة لأسباب أخرى، وهو مثيل ماروته التوراة حول نزول النبى إبراهيم إلى مصر، وما حدث عندما أخذ الفرعون سارة زوجته، «فصنع إلى إبراهيم خيراً بسببها، وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وإتن وجمال،.. فصعد إبراهم من مصر.. وكان إبرام غنياً جداً فى المواشى والفضة والذهب ـ تكوين ١٢ : ١٦، ١٣ : ١،٢». وهو زعم سبق لكثير من الكتاب تناوله وتفنيده، ولا يعنينا منه سوى دلالة غنى أصاب بعض رهط إسرائيل فى مصر، **أما النبى إبراهيم فلا شك يراودنا فى كونه نبياً جليلاً، يترفع ويتنزه عن مثل تلك المزاعم.**

وطوال تلك السطور، نجد التوراة تؤكد وتقرر أن « إيل إله إسرائيل - تكوين ٢٣ : ٢٠ »، وقد ظل (إيل) هو الإله الذى يتردد ذكره طوال الحقبة الممتدة ما بين إبراهيم وموسى، أى بطول سفر التكوين كاملاً، عدا حالات يذكر فيها الإله الموسوى (يهوه) قبل ظهور موسى، بديلاً عن (إيل)، بداخل سفر التكوين، ومعلوم لدى الدارسين أن ذلك لا يعنى معرفة العهد الإبراهيمى للإله (يهوه)، إنما نعرف أن ذلك كان ناتج إدماج روايتين داخل سفر التكوين، رواية كتبها من نعرفه اصطلاحاً بالكاتب الإيلى، وروايته هى الغالبة فى سفر التكوين، ورواية كتبها من نعرفه اصطلاحاً بالكاتب اليهوى، لكن مالا يجب أن يفوت القارئ هنا، أن الكلمة (إيل) كانت تأتى فى حالات كثيرة فى صيغة الجمع (إللوهيم) أى الآلهة.

والإله (إيل) فى رواية التوراة، هو الإله الذى يرتبط بمشروع البطاركة للاستيلاء على أرض كنعان، بعد هجرتهم من موطنهم الأصلى - وللأبد – إلى فلسطين. وهنا لا نستطيع مجاملة الأحداث أو التاريخ، فقصة المشروع الإبراهيمى للاستيلاء على فلسطين قصة مقدسة، ولا عبرة بتاريخ إنسانى لم يدونها أو يعرف شيئاً عنها، وقد اعتمدت علاقة الإله (إيل) بالمشروع الاستيطانى على قصة توراتية مقدسة، تؤكد أنه الإله الذى أخرجه من مدينة (أورالكلدانيين) موطنه

الأصلى البعيد، وهو الإله الذى اختـار لـه أرض كنعان ومنحـه إياها ولنسله من بعده وإلى أبد آبدين، وتتكرر صيغة هذا الميثاق فـى أكثر من موضع بسفر التكوين، وقد جـاءت علـى الـترتيب فـى عهد النبـى إبراهيم كالآتى :

وقال الرب لإبرام : أذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك، إلى الأرض التى أريك، فأجعلك أمـة عظيمـة وأبـاركك، وأعظـم اسـمك وتكـون بركـة، وأبارك مباركيك، ولاعنك ألعنه

تكوين ١٢ : ١ ـ ٣.

وبعد هبوطه أرض كنعان :

ظهر الرب لإبراهم وقال: لنسلك أعطى هذه الأرض

تكوين١٢ : ٧.

إرفع عينيك وانظر من هذا الموضع الـذى أنت فيـه، شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، لأن جميع الارض التى أنت ترى لك أعطيها لنسلك للأبد، وأجعل نسـلك كتراب الأرض

تكوين ١٣ : ١٤ ـ ١٦.

فـى ذلك اليوم قطـع الرب مـع إبرام ميثاقـاً قـائلاً :

لنسلك أعطى هذه الأرض، من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات، القينيين والقنزيين والقدمونيين والحيثيين والفرزيين والرفائيين والأموريين والكنعانيين والجرجاشيين واليبوسيين

تكوين ١٥ : ١٨ - ٢١.

وأقيم عهدى بينى وبينك، وبين نسلك من بعدك فى أجيالهم، عهداً أبدياً، لأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك، وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك، أرض كنعان، ملكاً أبدياً، وأكون إلههم

تكوين ١٧: ٧ ـ ٨.

والمتابع للقصة التوراتية عن الإله (إيل) والنبى (إبراهيم)، يجد نفسه إزاء أسرة صغيرة متواضعة، تتكون من أفرد يعدون على أصابع اليد (إبراهيم وسارة وولديه إسماعيل ثم إسحق، وأسرة ابن أخيه لوط التى تتكون فقط من زوجة وبنتين وللتدقيق نجد الوعد قد اقتصر فقط على إبراهيم وولده اسحق، رجل وزوجته، جاءوا أغراباً لينزلوا أرضاً غريبة (أرض غربتهم بتعبير التوراة)، فيمنحهم (إيل) كل الأرض، ليس قطعة فيها، ولا قرية، ولا حتى مدينة، إنما كل البلاد والممالك الواقعة ما بين نهر مصر وبين نهر الفرات، رغم سكانها الذين عمروها من ألوف السنين، وتم تعدادهم فى نص الوعد

(القينيين ، والقنزيين، والقدمونيين، والحيثيين، والفرزيين، والرفائيين، والأموريين، والكنعانيين، والجرجاشيين، واليبوسيين)، والواضح في رواية سفر التكوين، أن تلك الشعوب قد قطعت شوطاً عظيماً في سلم التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وكونت عدداً من الممالك المستقرة، وجاء ذكر بعضها في الإصحاح الرابع عشر وغيره، مثل مملكة جرار، ومملكة سدوم، ومملكة عمورة، ومملكة أدمة، ومملكة صبويم، ومملكة بالع، ومملكة عمون، ومملكة موآب، ومملكة شاليم، وقد ورد ذكر تلك المملكة الأخيرة مع اسم ملكها بصيغة (ملكي صادق) أو الملك صادق، كما جاء مع مملكة جرار اسم ملكها الفلسطيني (أبيمالك)، كل هذا تعج به الأرض، بينما كان إبراهيم مجرد راع غريب بسيط، صاحب مواشي، وعليه فلا مندوحة في افتراض أن كاتب هذا الجزء من التوراة، الذي كتب بعد زمن النبي إبراهيم بقرون طويلة، قد كتبه بعد أن وصل الإسرائيليون لدرجة من الاقتدار تسمح لهم بهذا الطموح، فتمت ترجمة ذلك الطموح إلى اللغة القدسية، بإعادة القرار بالاستيلاء على فلسطين، إلى علاقة قدسية بالرب (إيل)، والمسألة بذلك تصبح قدراً مقدساً وإلهياً، لا مجال للاعتراض عليه، بحيث تم منح الأرض بأثر رجعي للسلف البعيد إبراهيم، بينما لم يكن قد أنجب أصلاً. مع وعد آخر بأن ذلك النسل سيكون أعظم الأمم، ومن هنا تم تزمين الرواية بزمن النبي إبراهيم لتكتسب قدسية التقادم، وإعمالاً للمبدأ القانوني القائل بوضع اليد المدة

الطويلة المكسبة للملكية، والذى يبدو أنه اليوم ليس سوى توارثاً عن قواعد تلك الأزمان.

وكان المقابل الذى طالبه (إيل) مقابل هذه العطية العظيمة، التى يتم فيها سلب الأرض من أصحابها لصالح القبيلة المغتربة، هو أن يتم الاعتراف به إلهاً للقبيلة، دون الآلهة الأخرى، وكان لابد من توثيق العهد وإشهاره، ليكون التوثيق شاهداً على مر السنين أمام جميع الشعوب منعاً للنزاع، وكان التوثيق هو ان يضع إبراهيم ونسلة علامة الميثاق الشاهدة لتتذكر الأحفاد، فى علامة مميزة هى (الختان)، وذلك نصاً « هذا هو عهدى الذى تحفظون بينى وبينكم وبين نسلك من بعدك، يختتن كل ذكر منكم، فتختتنون فى لحم غرلتكم، فيكون علامة عهد بينى وبينكم ـ تكوين ١٧ : ٩ ـ ١١».

أما الغريب فى كل تلك الحكاية، أن الإله (إيل)، الذى منح الغرباء أرض فلسطين، كان إلهاً كنعانياً فلسطينياً أصيلاً فى المنطقة، وفى النصوص يمكنك أن ترى ما يشير إلى أن (إيل) كان غير معروف لإبراهيم عند هبوطه البلاد، وذلك من قبيل القول : وظهر الرب لإبرام وقال : لنسلك أعطى هذه الأرض، فبنى هناك مذبحاً للإله الذى ظهر له ـ تكوين ١٢ : ٧ »، فالرب هنا غفلاً من التعريف أو المعرفة، فهو رب بين أرباب. لكنه يتميز عنهم بأنه هو « الذى

ظهر له « لذلك قام ذلك الرب يقدم نفسه بالتعريف إلى إبراهيم قـائلاً : « أنا إله بيت إيل ـ تكوين ـ ٣١ : ١٣ »، ومعلوم أن (بيت إيل) مدينة كنعانية مقدسة منذ القدم، وقد دلت الكشوف الأركيولوجية الحديثة على انتشار عبادة (إيل) على نطاق واسع بحسبانه كبير الألهة، فى مناطق الشعوب السامية، فى بلاد كنعان والشام جميعاً، والرافدين وجزيرة العرب وبخاصة جنوبها، بل أنك تلحظ ملحوظة على جانب عظيم من الأهمية سبقت الإشارة إليها، وهو أنه عند هبوط إبراهيم وعائلته أرض كنعان، يهجر لغته الأصلية الأرامية، إلى لغة الكنعانيين أهل البلاد، أو شفة كنعان بتعبير التوراة.

وقد ظل (إيل) مصاحباً للنسل الإبراهيمى، فإليه ينسب (سمع إيل) أو (إسماعيل) ابن إبراهيم الأكبر، والذى تم استبعاده من التركة لأنه ابن جارية مصرية (؟!) وكان (إيل) هو الذى بشر سارة بابنها إسحق، الذى أنجب ولدين هما (عيسو) و (يعقوب)، وتم استبعاد عيسو بدوره من الميراث لتبقى التركة خالصة ليعقوب، الذى كان على علاقة متميزة بالإله إيل، فقد ظهر له عدة مرات كان أهمها وأشدها حسماً، اللقاء الذى تم فيه اختبار قوة يعقوب بمصارعته جسدياً، وتبديل اسمه من يعقوب إلى (إسرائيل)، ومن ثم أعاد (إيل) تأكيد الوعد الموثق بقوله ليعقوب : « أنا الرب إله إبراهيم أبيك وإله

إسحق، والأرض التى أنت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك ويكون نسلك كتراب الأرض، وتمتد غرباً وشرقاً وشمالاً وجنوباً ـ تكوين ـ ٢٨ : ١٣، ١٤ ». وبهذا استمر الوعد لإسرائيل (يعقوب) وبنيه الأسباط الإثنى عشر (رأوبين، شمعون، لاوى، يهوذا، نفتالى، جاد، أشير، يساكر، زبولون، بنيامين، يوسف)، الذين هبطوا مصر، وعاشوا هناك زمناً كان كفيلاً بنسيان (إيل)، وربما عبدوا هناك آلهة المصريين، ولما جاءهم موسى عليه السلام بعبادة الإله الجديد (يهوه) من بلاد (مديان)، وأخبرهم أنه إله أجدادهم الذى كان يعبد فى كنعان، لم يجدوا غضاضة فى قبوله على الفور، دون تمحيص أو تشكك أو حتى محاولة للتأكد.

وبعد ذلك، تنقلنا التوراة نقلة أخرى، إلى أحداث أخرى، تبدأ بقصة تفضيل يعقوب لولده يوسف، مما أثار حقدهم وموجدتهم، وبحيث لجأوا إلى مؤامرة للتخلص منه، وهنا محاولة تصفية أخرى تقوم بها التوراة لصالح قبيلة (راحيل) أى قبيلة يوسف، عن قبائل الأسباط الأخرى، لكنها هنا يبدو قد اصطدمت بواقع تحالف مجموعة القبائل التى شكلت ما يسمى بالجماعة الإسرائيلية، ولم يكن هناك مناص من قبولهم واستبقائهم، خاصة أن النبى الآتى (موسى) لن يكون من سبط يوسف، إنما من سبط لاوى.

وهكذا، بدأ الدخول بيوسف بن إسرائيل الجميل، صاحب الأحلام، تلك الأحلام إلى أزعجت إخوته بشدة، ورأى فيها يوسف إخوته (رمزاً) مع والديه يسجدون له، حتى قالوا له : « ألعلك تملك علينا ملكاً، أم تتسلط علينا تسلطاً ـ تكوين ـ ٣٧ : ٨ »، لكن سير أحداث القصة بعد ذلك، يشير إلى أن أحلام الصبى قد تحققت بحذافيرها، وأن يوسف سيصير فى عليين، وأن أهله سيسجدون له فعلاً، لكن فى بلاد النيل، حيث تتابع الرواية سردها للأحداث فتقول:

وأما يوسف، فأُنزل إلى مصر، واشتراه فوطيفار، خصى فرعون رئيس الشرطة، رجل مصرى، من يد الإسماعيليين الذين أنزلوه هناك، وكان الرب مع يوسف، فكان رجلاً ناجحاً، وكان فى بيت سيده المصرى.. فوجد يوسف نعمة فى عينه ، وخدمه، فوكله على بيته، ودفع إلى يده كل ما كان له، .. والرب بارك بيت المصرى بسبب يوسف..

ثم فجأة، وبلا مناسبة، تقول الرواية المقدسة : « وكان يوسف حسن الصورة، وحسن المنظر »، توطئة للتعريف بنساء المصريين، فإن « امرأة سيده رفعت عينيها إلى يوسف، وقالت اضطجع معى، فأبى »، واستمر يوسف يتأبى على سيدة القصر حتى كان يوم « أنه دخل البيت ليعمل عمله، ولم يكن إنسان من أهل البيت هناك فى البيت، فأمسكته بثوبه قائلة : اضطجع معى، فترك ثوبه فى

يدها وهرب »، فما كان من المرأة التى شبقت بالاشتهاء إلا أن « نادت أهل بيتها وكلمتهم قائلة : انظروا، قد أتى إلينا برجل عبرانى ليداعبنا، دخل إلى ليضطجع معى فصرخت بصوت عظيم، وكان لما سمع أنى رفعت صوتى وصرخ أنه ترك ثوبه بجانبى وهرب وخرج إلى خارج ـ التكوين ـ ٣٩ ».

وبغض النظر عن الثغرات فى إخراج الدراما والتى ملأتها الرواية القرآنية بأنه بدوره قد (هم بها)، والتناقض ما بين خلو البيت تماماً « لم يكن إنسان من أهل البيت هناك »، وبين صرخة واحدة فإذا أهل الدار كلهم إلى غرفتها محضرين، فإن مآل يوسف الحتمى كان السجن، وهو حكم لا شك يهون مقارناً بمواقف بنى إسرائيل من قضايا مشابهة كان القضاء المبرم فيها هو الإعدام، دون تثبيت من صحة الواقعة بالبراءة أو ثبوت التهمة، فكان قرار سيد الدار المصرى مقابل مثيله لدى بنى إسرائيل قراراً يتسم بالحيطة مشفوعة بالرحمة مغلفة برغبة فى التغطية على فضحية، كان يمكن أن تفشو ـ وقد فشت ـ لو تحدث عنها (يوسف) مع رفاق سجنه.

واستمر يوسف فى علاقته الحميمة بالأحلام وهو رهين حبسه، ولكنه هذه المرة لم يكن حالماً، إنما مفسراً للأحلام، وصدق تفسيره لأحلام رفاق السجن، وتنبأ لأحدهم ـ وهو ساقى الفرعون ـ أنه سيبرأ،

ويتبوأ مكانه مرة أخرى بعد ثلاثة أيام من رؤياه، بينما تنبأ لآخرين بمصير سيء بالإعدام، وهو ما يشير إلى لون من المحاكمات القضائية المقننة، فتبرئ وتجازى وفق قواعد محددة، وكان ما قاله يوسف محققاً فى الواقع.

ثم تأتى الرواية المشهورة عن حلم فرعون بالبقرات السبع العجاف، تأكل السبع السمان، والسنابل الملفوحة بالريح الشرقية، تلتهم السنابل السمينة الممتلئة، وعندما يطلب الفرعون المفسرين، يتذكر الساقى (يوسف) كأعظم مفسر للأحلام، فيخبر الفرعون، فيحضرون إلى البلاط، ويتقدم يوسف بتفسيره لسيد مصر:

> فقال يوسف لفرعون : حلم فرعون واحد، قد أخبر الله فرعون بما هو صانع، البقرات السبع هى سبع سنين، والسنابل السبع الحسنة هى سبع سنين .. هوذا سبع سنين قادمة شبعاً عظيماً فى أرض مصر، ثم تقوم بعدها سبع سنين جوعاً.

ثم يوجه يوسف النصيحة للفرعون :

> فالآن لينظر فرعون رجلاً بصيراً، وحكيماً يجعله على أرض مصر فى سبع سنين الشبع.. ويأخذ خمس غلة الأرض.. فيجمعون جميع طعام هذه

السنين الجيدة القادمة، ويخزنون قمحاً تحت يد فرعون.. فيكون الطعام ذخيرة للأرض لسبع سنى الجوع.

وكانت نتيجة موهبة يوسف الفريدة فى تفسير الأحلام أن قدرت له تحقيق أحلامه هو بعد ذلك، وهو ما سجلته رواية المقدس فى قولها :

فحسن الكلام فى عينى فرعون، وفى عيون جميع عبيده، فقال فرعون لعبيده: هل نجد مثل هذا رجلاً فيه روح الله؟ ثم قال فرعون ليوسف: بعدما أعلمك الله كل هذا، ليس بصير وحكيم مثلك، أنت تكون على بيتى، وعلى فمك يقبل جميع شعبى، إلا أن الكرسى أكون فيه أعظم منك، ثم قال فرعون ليوسف: أنظر، قد جعلتك على كل أرض مصر، وخلع فرعون خاتمه من يده وجلعه فى يد يوسف،.. وأركبه فى مركبته الثانية، ونادوا أمامه: اركعوا. وقال فرعون ليوسف.. بدونك لا يرفع إنسان يده ولا رجله فى كل أرض مصر، ودعا فرعون يوسف صفنات فعنيح، وأعطاه أسنات بنت فوطى فارع كاهن أون زوجة .. تكون ٤١.

وكان تولى يوسف أمر خزانة مصر وشؤونها الأقتصادية، مدعاة لدخول تغييرات جوهرية على الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية المعمول بها فى البلاد، فبعد أن كان الناس أحراراً، ليس لملكهم عليهم سوى سلطان مركزية الدولة، وبعد أن كانوا يملكون أراضيهم وغلالهم أحراراً فيها، « إشترى يوسف كل أرض مصر لفرعون إذ باع المصريون كل واحد حقله، لأن الجوع اشتد عليهم، فصارت الأرض لفرعون، أما الشعب فنقلهم إلى المدن من أقصى مصر إلى أقصاه.. فقال يوسف للشعب : إنى اشتريتكم اليوم وأرضكم لفرعون، هوذا لكم بذار فتزرعون الأرض، ويكون عند الغلة أنكم تعطون خمساً لفرعون.. فقالوا : أحييتنا، ليتنا نجد نعمة فى عينى سيدى، فنكون عبيداً لفرعون، فجعلها يوسف فرضاً على أرض مصر إلى هذا اليوم ـ تكوين ٤٨ : ٢٠ ـ ٢٦ »، وكان من المفهوم كيف تحول بعد ذلك فرعون مصر أو الفراعين عموماً، وبعدما كان الفرعون يشهد لله، وبأن الإله هذا هو الذى يمنح العبد علمه « بعدما أعلمك الله كل هذا »، فامتلك الفرعون الناس والأرض، تغيرت الأحوال، من سلطان محكوم بالقواعد، إلى سلطان مطلق النفوذ، يدعى الألوهية فيما بعد، وهو أمر يترتب على رواية التوراة، وإن كان التوراة لاينبنى على حقائق التاريخ.

أما كيف تحققت أحلام الصبى بعد اليفوع، وكيف سجد له الأحد عشر كوكباً، فهو ما تخبرنا به رواية المقدس، التى تؤكد أن الجوع لم يكن فى مصر وحدها، والتى أمنت على نفسها بالحكمة اليوسفية، إنما كان الجوع شاملاً، فقد حل القحط بيعقوب وبنيه فى بداوتهم، وحل بهم الشظف فى سنى المجاعة السبعة « فلما رأى يعقوب أنه يوجد قمح فى مصر، قال يعقوب لبنيه ـ إنى قد سمعت أنه يوجد قمح فى مصر، إنزلوا هناك واشتروا لنا من هناك لنحيا ولا نموت، فاتى بنو إسرائيل ليشتروا بين الذين أتوا، لأن الجوع كان فى أرض كنعان ـ التكوين ٤٢ ».

وبنزولهم مصر كان اللقاء مع سيد الخزانة، ثم التعارف، ثم إعلان يوسف لإخوته الذين بغوا عليه صغيراً « أنا يوسف، أَحَيٌّ أبى بعد؟.. أنا يوسف أخوكم الذى بعتموه إلى مصر.. فالآن ليس أنتم أرسلتمونى إلى هنا، بل الله، وهو جعلنى أبا لفرعون وسيداً لكل بيته ومتسلطاً على كل أرض مصر، أسرعوا وأصعدوا إلى أبى، وقولوا له هكذا يقول ابنك يوسف: قد جعلنى الله سيداً لكل مصر، إنزل إلىَّ فتسكن فى أرض جاسان وتكون قريباً منى.. وقال فرعون ليوسف قل لإخوتك.. خذوا أباكم وبيوتكم وتعالوا إلىَّ فأعطيكم خيرات أرض مصر، وتأكلوا دسم الأرض.. ولا تحزن عيونك على أثاثكم، لأن

خيرات جميع أرض مصر لكم - تكوين ٤٥ "، "وكانت جميع نفوس بيت يعقوب التى أتت إلى مصر سبعون، " فاسكن يوسف " أباه وإخوته وأعطاهم ملكاً فى أرض مصر، فى أفضل الأرض، فى أرض رعمسيس، كما أمر فرعون - تكوين ٤٧ ".

وفى مصر، أنجب يوسف من زوجته المصرية (أسنات) ولديه " منسى وإفرايم - تكوين ٤١ "، وبعد زمن مات يعقوب " وأمر يوسف عبيده الأطباء أن يحنطوا أباه، فحنط الأطباء إسرائيل، وكمل له أربعون يوماً، لأنه هكذا تكمل أيام المحنطين وبكى عليه المصريون سبعين يوماً - تكوين ٥٠ ".

وعاش يوسف مئة وعشر سنين " وقال يوسف لإخوته : أنا أموت، لكن الله سيفتقدكم ويصعدكم من هذه الأرض إلى الأرض التى حلف لإبراهيم وإسحق ويعقوب، واستحلف يوسف بنى إسرائيل قائلاً : الله سيفتقدكم، فتصعدون عظامى من هنا، ثم مات يوسف وهو ابن مئة وعشر سنين، فحنطوه ووضعوه فى تابوت فى مصر - تكوين ٥٠ ". وبموت يوسف ينتهى الطور الإبراهيمى المرتبط بالإله الأكبر (إيل).

وهنا ملحوظات سبق أن نبهنا إليها، لأنها أثارت بعد ذلك عدداً من الإشكاليات، ففى قصة التوراة نجد ذكراً لأسماء مصرية مثل (فوطى فا رع)، وهو اسم مركب يدخل فيه اسم إله الشمس المصرى الأكبر (رع)، كذلك نعلم من الرواية أن (فوطى فا رع) كان كاهناً لمدينة (أون) كذلك يرد اسم مدينة (رعمسيس)، ومثل تلك الإشارات أضفى على رواية التوراة بعض المصداقية، ويشير إلى معرفة واضحة للنص التوراتى لمصر فى عهدها القديم، أو على الأقل معرفة كاتب ذلك الجزء من التوراة بمصر فى عصرها الذهبى، وهى الإشارات التى أدت بنا فى بحث بين أيدينا الآن (النبى موسى...) مع إشارات أخرى كثيرة، إلى تأكدنا اليقين من دخول بنى إسرائيل إلى مصر وخروجهم منها، دون أى شك فى ارتكابنا خطأ علمى بهذا اليقين.

والمسألة بالطبع، ولا تخاذ ذلك الموقف، لم تكن بالبساطة التى فى عجالتنا هنا، حيث كانت الإشكاليات شديدة التعقيد، وكثيفة الروافد والمتشابكات، وربما كان أبرزها وأشدها إثارة للتضارب بين المدارس البحثية، هو أن التوراة رغم استخدامها اصطلاحات وأسماء مصرية قديمة، وذكرها لعادات مصرية لم نكن على علم بها قبل كشف رموز اللغة القديمة، كطقوس الدفن، وعدد أيام التحنيط، وعدد أيام ندب الميت.. إلخ، فإن التوراة جاءت عند أمور هامة وخطيرة

وتجاوزتها، وبشكل يفصح عن جهل تام ومطبق بها، رغم أنها أكثر المسائل حدّية وفصلاً وقطعاً فى أهم نقاط ذلك التاريخ الفاصلة، وذلك مثل عدم ذكرها لاسم فرعون الدخول (فرعون يوسف)، ولا اسم فرعون الخروج (فرعون موسى)، ولا سنة الدخول، ولا عام الخروج، ولا أى علامات يمكن تزمينها وفك دلالاتها، رغم اهتمامها بذكر ما هو أقل أهمية بالمقارنة، مثل اسم وزير الشرطة أو كاهن أون وابنته، والأمر كله مرهون بما يمكن أن نصل فيه إلى رأى يمكن الإفصاح عنه عند الانتهاء من البحث فى كتابنا المشار إليه، أو بما يمكن أن ينتهى إليه باحث مجتهد قبلنا.

أحداث الخروج

(فى الطور اليهوى الموسوى):

ينقلنا المقدس التوراتى هنا نقلة أخرى فاصلة ومتميزة تماماً فى مضامينها ودلالاتها وتحولاتها التاريخية والعقدية، بادئاً بالإشارة الهامة « بنو إسرائيل أثمروا وتوالدوا ونموا كثيراً وامتلأت الأرض منهم، ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف، فقال لشعبه: هوذا إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا، هلم نحتال لهم لئلا ينموا، فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا، ويحاربوننا، ويصعدون من الأرض، فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكى يذلوهم بأثقالهم، فبنوا لفرعون مدينتى مخازن فيثوم ورعمسيس خروج ١ : ١ ـ ١١».

وهكذا نعلم أن فرعون يوسف قد مات، أو انتهى أمره بشكل ما، ليخلفه على العرش فرعون آخر، تحول بنو إسرائيل فى عهده من التكريم والسيادة، وأكل دسم الأرض، إلى التسخير فى طين الأرض، لأن الفرعون الجديد لم يكن يعرف يوسف!!، واستعبدهم فى بناء مدينتين للمخازن هما (فيثوم) و(رعمسيس)، وكان واضحاً أنه يحمل روحاً عدائية شديدة، وشكاً فى علاقات الإسرائيليين بأعداء البلاد، مع

رغبة واضحة فى الانتقام منهم، لأمر غير واضح بالكتاب المقدس، حتى أنه أمر بقتل كل ذكر يولد من بينهم « إن كان ابناً فاقتلاه، وإن كان بنتاً فتحيا.. كل ابن يولد تطرحونه فى النهر، لكن كل بنت تستحيونها ـ خروج ١ : ١٦،٢٢ ».

وفى ظل هذه الأزمة ولد (موسى) أشهر رجل فى تاريخ بنى إسرائيل، وهو (موسى بن عمران بن قهات بن لاوى)، ولاوى هو أحد الأسباط أبناء يعقوب إسرائيل، وذلك يعنى أن موسى هو النسل الرابع ليعقوب، وقد انجبه عمران بزواجه من عمته (يوكابد)، وأنجب منها أيضاً هارون أخيه الأكبر، وشقيقتهما مريم ـــ خروج ٦ : ١٤ ـــ ٢٠، ورغم أن التوراة تؤكد لنا مسألة قتل ذكور الإسرائيليين من أطفال، فإنها لم توضح لنا كيف نجى هارون من هذا المصير، وإن فصلت أمر نجاة موسى، حيث وضعته أمه فى سفط من البردى على حافة النهر، خوفاً عليه من القتل ، وعثرت عليه ابنة فرعون، فرقّت له رغم علمها أنه طفل إسرائيلى وتبنته، وأرسلته مع أمه كمرضعة له بالأجر، « ولما كبر الود جاءت به إلى ابنة فرعون، فصار لها ابناً، ودعت اسمه موسى، وقالت إنى انتشلته من الماء ـــ خروج ٢ : ١٠ ».

وقد تعامل (سيجموند فرويد) مع اسم (موسى) كما تعامل جيمس هنرى برستد)، وأكد أنه اسم مصرى، وأنه بالترجمة الدقيقة يجب نطقه صحيحاً (مس)، ومن ثم افترضوا أنه كان يسبقه اسم إله مصرى، باعتبار (مس) فى المصرية القديمة تعنى (يلد) أو (أنجب) غراراً على أسماء مثل (تحوت مس) أى الإله تحوت انجب ولداً، و (رع مس) أى إله الشمس انجب ولداً، و(أح مس) أى إله القمر أنجب ولداً، لكن من جانبنا نرى ترجمة (موسى) بهذا الشكل متسرعة وغير دقيقة، ولو دققنا النظر فى رواية التوراة، سنجد القول " ودعت اسمه موسى قائلة: إنى انتشلته من الماء " لا يحتاج إلى تخريجات، لأن (الماء) باللسان المصرى القديم (مو)[1] ، وبذات اللسان نجد (سا) تعنى (ابن)[2] ، والإسم هنا ملصق من مقطعين ويفيد معناه (ابن الماء)، وهو اسم يتناسب مع الموقف حيث وجدته ابنة الفرعون فى سفطه على سطح الماء، ولم تجد اسماً يناسبه ــ وهى لا تعلم له نسباً ــ سوى تلك التسمية البليغة، وهى بدورها تسمية مصرية قحة.

ونتابع الأحداث مع رواية التوراة فتقول :

---

(١) أنطون ذكرى : مفتاح اللغة المصرية القديمة وأنواع خطوطها وآهم إشاراتها، د.ت، د.ن، ص ٨٣ (الكتاب تعليمى للهيروغليفية، ولا علاقة له بقصة النبى موسى).

(٢) نفسه : ص ٨٢.

وحدث فى تلك الأيام، لما كبر موسى، أنه خرج إلى إخوته لينظر فى اثقالهم، فرأى رجلاً مصرياً يضرب رجلاً عبرانياً من إخوته، فالتفت إلى هنا وهناك، ورأى أن ليس أحد، فقتل المصرى وطمره فى الرمل، ثم خرج فى اليوم الثانى، وإذا رجلان عبرانيان يتخاصمان، فقال للمذنب: لماذا تضرب صاحبك؟ فقال : من جعلك رئيساً وقاضياً علينا؟ أمفتكر أنت بقتلى كما قتلت المصرى؟ فخاف موسى وقال : حقاً قد عُرف الأمر، فسمع فرعون هذا الأمر فطلب أن يقتل موسى، فهرب موسى من وجه فرعون، وسكن فى أرض مديان، وجلس عند البئر، وكان لكاهن مديان سبع بنات، فأتين واستقين وملأن الأجران ليسقين غنم أبيهن، فأتى الرعاة وطردوهن، فنهض موسى وانجدهن وسقى غنمهن، فلما أتين إلى رعوئيل أبيهن قال : ما بالكن أسرعتن فى المجئ اليوم؟ فقلن رجل مصرى أنقذنا من أيدى الرعاة، وأنه استقى لنا أيضاً، وسقى الغنم، فقال لبناته : وأين هو؟ لماذا تركتن الرجل؟ إدعونه ليأكل طعاماً، فارتضى موسى أن يسكن مع الرجل، فأعطى موسى صفورة ابنته .

خروج ٢ : ١٦ ـ ٢١

وفي مديان يأتي الحدث الأهم والجديد، في شؤون العقيدة الإسرائيلية، حيث يظهر لبني إسرائيل إله جديد، يلتقي بموسى في مديان وهو يرعى غنم حميه (رعوئيل) أو (يثرون)، وذلك في رواية المقدس :

وأما موسى فكان يرعى غنم يثرون حميه كاهن مديان، فساق الغنم إلى ما وراء البرية، وجاء إلى جبال الله حوريب، وظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط عليقة، فنظروا وإذا العليقة تتوقد بالنار، والعليقة لم تكن تحترق.. ناداه الله من وسط العليقة وقال : .. اخلع حذائك من رجليك، لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة، ثم قال : أنا إله أبيك، إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب.. إني قد رايت مذلة شعبي الذي في مصر.. فنزلت لأنقذهم من ايدي المصريين، وأصعدهم من تلك الأرض إلى أرض جيدة وواسعة، إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً، إلى مكان الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحوبيين واليبوسيين.. فالآن هلم فأرسلك إلى فرعون وتخرج شعبي بني إسرائيل من مصر،..

فقال موسى لله: ها انا اتى إلى بنى إسرائيل، واقول لهم : إله آبائكم أرسلنى إليكم، فإذا قالوا لى ما أسمه؟ فماذا أقول لهم؟ فقال الله لموسى : إهيه الذى إهيه، وقال هكذا تقول لبنى إسرائيل: إهيه أرسلنى إليكم وقال الله أيضاً لموسى: هكذا تقول لبنى إسرائيل : يهوه إله آبائكم، إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب أرسلنى إليكم، هذا اسمى إلى الأبد

خروج ٣ : ١ ـ ١٥ .

قل لبنى إسرائيل أنا الرب، وأنا أخرجكم من تحت أثقال المصريين وانقذكم من عبوديتهم، وأخلصكم بذراع ممدودة وبأحكام عظيمة، واتخذكم لى شعباً، وأكون لكم إلهاً

خروج ٦ : ٦، ٧.

وهكذا التقى موسى الإله (إهيه) أو (يهوه)، وفى موضع آخر بالمقدس يأتى اسمه (ياه) أنظر (مزامير ــ ٤٨)، ويلاحظ أن كاتب هذا الجزء، يصر على أن هذا الإله كان إلها لإبراهيم وإسحق ويعقوب، إصراراً لا يبرره إلا محاولة تثبيت أمر جديد بإلقائه فى القديم، ولا يلتقى مع عدم معرفة بنى إسرائيل بمصر لهذا الإله

أو اسمه، مع استعدادهم بحكم تعاملهم فى مصر مع آلهة عديدة لقبـول الإله الجديد، فقط سيكون التساؤل عـن اسمه (؟!)، نـاهيك عن كونـه لا يلتقى إطلاقـاً ولا حتـى فونيطيقيـاً بالإلـه (إيـل)، لذلـك نجـد موسـى يتشكك فى إمكـان قبـول بنـى إسـرائيل لذلـك الإلـه فـى قولـه ليهـوه : « ولكـن، هـاهم لايصدقوننـى ولا يسـمعون لقولـى ــ خـروج ٤ :١ »، فيعطيه يهوه دلائل إقناع إعجازية لم تظهر من قبل مع (إيـل)، « فقـال له الـرب. مـا هذه فـى يدك ؟ فقـال عصـا، فقـال اطرحهـا لـلأرض، فطرحها إلى الأرض فصارت حية، فهرب موسى منها، ثم قال الـرب لموسى: مد يدك وامسك بذنبها، فمد يده وأمسك به فصارت عصـا فـى يده.. ثم قال الرب أيضاً : أدخل يدك فى عبك، فأدخل يده فى عبه ثـم أخرجها، وإذا يده برصاء مثل الثلج، ثم قـال لـه : رد يـدك إلـى عبـك فرد يده إلى عبه ثم أخرجها من عبه وإذا هى عـادت مثـل جسـده ــ خروج ٤ : ٢ ، ٧ »، أما الفاصل فى شأن يهوه كإله جديد، فيأتى فـى عبارة ملتوية للكاتب التوراتى تفصح بجلاء فى قول يهوه لموسـى : « أنا ظهرت لإبراهيم وإسحق ويعقوب بأنى الإله القادر على كل شئ، وأما باسمى يهوه فلم أُعرف عندهم ـ خروج ٦: ٢،٣ ».

ويخبر يهوه كليمه أن الخطر فى مصر قد زال عنـه « لأنـه قد مات جميع القوم الذين كانوا يطلبون نفسك ـ خـروج ٤ : ١٩»، ولمـا

احتج موسى لربه أنه لن يستطيع مجادلة الفرعون الجديد، فى أمر خروج بنى إسرائيل من مصر، لأنه "ثقيل الفم واللسان ـ خروج ٤ : ١٠"، و "أغلف الشفتين ـ خروج ٦ : ١٢"، فإنه يدعمه بأخيه هارون ، ويتجه الأخوان للقاء الفرعون الذى لا تحدده الرواية.

" وبعد ذلك دخل موسى وهارون وقالا لفرعون: هكذا يقول الرب إله إسرائيل : أطلق شعبى ليُعَيد لى فى البرية، فقال فرعون : من هو الرب حتى أسمع لقوله فأطلق اسرائيل؟ لا أعرف الرب، وإسرائيل لا أطلقه، فقالا له : إله العبرانيين. فنذهب سفر ثلاثة أيام فى البرية، ونذبح للرب إلهنا، لئلا يصيبنا بالوباء أو بالسيف، فقال لهما ملك مصر : لماذا يا موسى وهارون تبطلان الشعب من أعمالهما؟ إذهبا إلى أثقالكما ـ خروج ٥ : ١ ـ ٤ ".

وكان رد رب موسى :

الآن تنظر ما أنا فاعله بفرعون، فإنه بيد قوية يطلقهم، وبيد قوية يطردهم من أرضه.. أنا أعطيهم أرض كنعان، أرض غربتهم التى تغربوا منها خروج ٦ : ١ ـ ٤.

والواضح هنا محاولة ربط التوراة بين الوعد القديم لإبراهيم من الإله إيل، وبين قبيلة راحيل أو بنى إسرائيل المقيمين بمصر والإله الجديد يهوه، ولا تخفى على لبيب إشارة التوراة التأكيدية المتكررة، أن أرض فلسطين بالنسبة لبنى إسرائيل هى أرض غربة لا أرضاً أصلية لهم.

ثم تتتالى الأحداث متمثلة فى معجزات متتالية، تفسرها حالة الانتقال البشرى من التعامل مع الطبيعة كآلهة إلى آلهة مفارقة ومنفصلة عن الظواهر، ومن صيغة الأسطورة إلى صيغة الدين، وحيث كان السحر هو منهج الفكر الأسطورى وأداته الفعالة للتعامل مع الظواهر، وحيث أنه ما كان ممكناً للدين أن يبدأ من لا شئ، فقد دخل السحر فى متن أدوات الدين والمنهج الجديد، وذلك قبل أن يتجاوز فيما بعد، ويحاول التخلص منه ويدينه ويستنكره، ومن ثم استخدم الدين الطالع ذات الأدوات وذات المناهج السحرية القديمة، فأمر يهوه موسى أن يطرح عصاه أمام فرعون، لإثبات أن يهوه أشد سحراً وأقوى أثراً من سحرة الأساطير ومن الطبيعة، فتتحول العصا إلى ثعبان، فيستدعى فرعون مصر حكماء بلاده وسحرتهم فيفعلون الأمر ذاته، لكن السحر الجديد، يتسم بقدرة سترفع الأمر من مجال السحر والأسطورة، إلى مجال السحر والدين، كمرحلة انتقالية بشعائر وطقوس تضع المطلوب كله بيد الرب المفارق المتجرد، لكن تثبيت

البداية الجديدة، تمت بذات الأسلوب القديم، فابتلعت عصا موسى عِصِيّ المصريين (خروج ٧ : ٩ ـ ١٢).

ثم يلى ذلك مجموعة من الممارسات السحرية فى ثوب إعجازى، يبدو صراعاً بين أسلوبين من الحياة، أو بين أدلوجتين مختلفتين، بل ومتنافرتين، وتتحول العصا (عصا الراعى) إلى أداة فعالة فى يد النهج الرعوي، لرأب صدع نفسى إزاء أهل الخصب، تلك الحالة النفسية التى كثيراً ما غذتها حاجة البدو الدائمة للانتجاع على حدود البلاد المستقرة حول الأنهار، طلباً للقوت، والإغارة فى أحيان كثيرة على تلك الحدود، لسلب المحصول بعد جمعه، بشكل دورى سجله لنا التاريخ، ومن هنا يقوم يهوه بتدمير كل مظاهر الخصب والنماء، فى الضربة الأولى للمصريين:

> قال الرب لموسى : قل لهارون : خذ عصاك ومد يدك على مياه المصريين، وعلى سواقيهم، وعلى آجامهم، وعلى كل مجتمعات مياهم لتصير دماً، فيكون دم من كل أرض مصر فتحول كل الماء الذى فى النهر دماً، ومات السمك الذى فى النهر وكان الدم فى كل أرض مصر.. وحفر جميع المصريين حوالى النهر لأجل ماء ليشربوا، لأنهم لم يقدروا أن يشربوا من ماء النهر
>
> خروج ٧ : ١٩ ـ ٢٤.

وهكذا ينتقل الصـراع إلـى تدمير عصـب الخصـب ممثـلاً فـى النهر، وتتحول عن كونها محاولة للخروج والتمرد يقودها موسى أمام فرعـون، إلـى عقـاب جماعى يصيب كـل شـعب مصـر، النقمـة هنـا تتحـول لكيـان المجتمـع كلـه، فتـأتى الضربـة الثانيـة مـن يهوه لمصر :

ثم قال الرب لموسى: قل لهارون : مد يـدك بعصـاك علـى الأنهـار والسـواقى والأجام، وأصعد الضفـادع علـى أرض مصـر ... فصعدت الضفـادع وغطـت أرض مصر

خروج ٨ : ٥ ، ٦.

ويتبعها مباشرة بالضربة الثالثة :

ثم قـال الـرب لموسـى قـل لهـارون : مـد عصـاك واضـرب تـراب مصـر ليصـير بعوضـاً فـى جميـع أرض مصر

خروج ٨ : ١٦.

كذلك تأتي الضربة الرابعة ضربة حشرية بدورها :

قال الرب لموسى : بكر فى الصباح وقف أمام فرعون، إنه يخرج إلى الماء، وقل له : هكذا يقول الرب : أطلق الشعب ليعبدونى، فإنه إن كنت لا تطلق شعبى، ها أنا أرسل عليك وعلى عبيدك وعلى شعبك وعلى بيوتك الذبان، فتمتلئ بيوت المصريين، ذباباً.. ولكن أميز فى ذلك اليوم أرض جاسان حيث شعبى مقيم، حتى لا يكون هناك ذبان، لكى تعلم أنى أنا الرب فى أرض، وأجعل فرقاً بين شعبى وشعبك

خروج ٨ : ٢٠ ـ ٢٤.

ثم ينقل يهوه ضرباته من الحرب الحشرية إلى الحرب الجرثومية، بدءاً من الضربة الخامسة :

فها يد الرب تكون على مواشيك التى فى الحقل، على الخيل والحمير والجمال والبقر والغنم، وباء ثقيلاً جداً، ويميز الرب بين مواشى إسرائيل ومواشى المصريين .. فماتت جميع مواشى المصريين، وأما مواشى بنى إسرائيل فلم يمت منها واحد

خروج ٩ :٣ ـ ٦.

كذلك جاءت الضربة السادسة جرثومية بيولوجية بدورها:

> ثم قال الرب لموسى وهارون : خذ ملء أيديكما من رماد الأتون، وليذره موسى نحو السماء أمام عينى فرعون، ليصير غباراً على كل أرض مصر، فيصير على الناس وعلى البهائم دمامل طالعة ببثور فى كل أرض مصر
>
> خروج ٩ : ٨ ـ ١٠.

وبضربته السابعة، يتحول يهوه نحو الطبيعة مرة أخرى، ليجعل خيرها نقمة :

> ثم قال الرب لموسى : مد يدك نحو السماء ليكون برداً فى كل أرض مصر.. فأعطى الرب رعوداً وبرداً، وجرت نار على الأرض، وأمطر الرب برداً على أرض مصر، فكان برداً وناراً متواصلة وسط البرد، شئ عظيم جداً لم يكن مثله فى كل أرض مصر، منذ صارت أمة فضرب كل أرض مصر، جميع ما فى الحقل من الناس والبهائم، وضرب البرد جميع عشب الحقل، وكسر جميع شجر الحقل، إلا أرض جاسان حيث كان بنو إسرائيل، فلم يكن فيها برد
>
> خروج ٩: ٢٢ ـ ٢٦.

ورغم كل ذلك الدمار والهلاك، يظل الفرعون مصراً على عدم إطلاق بنى إسرائيل، ويعود يهوه إلى الحرب الحشرية، ليقضى تماماً على بقايا أى أثر للخصب فى أرض مصر، فبعد البرد الذى قضى على الشجر ونبات الحقل، تأتى الضربة الثامنة فى أمره لموسى :

> مد يدك على أرض مصر لأجل الجراد، ليصعد على أرض مصر، ويأكل عشب الأرض، كل ما تركه البرد، فمد موسى عصاه على أرض مصر، فجلب الرب على الأرض ريحاً شرقية كل ذلك النهار وكل الليل، ولما كان الصباح حملت الريح الشرقية الجراد، فصعد الجراد على كل أرض مصر، وحل فى جميع تخوم مصر، شئ ثقيل جداً، لم يكن قبله جراد هكذا مثله، ولا يكون بعده كذلك وغطى وجه الأرض حتى أظلمت الأرض، وأكل جميع عشب الأرض، وجميع ثمر الشجر الذى تركه البرد، حتى لم يبق شئ أخضر فى الشجر ولا فى عشب الحقل، فى كل أرض مصر

خروج ١٠ : ١٢ ــ ١٥.

ولم يكتف يهوه بذلك مع إصرار الفرعون على موقفه، فعاد يقلب ظواهر الطبيعة بضربته التاسعة :

ثم قال الرب لموسى : مد يدك نحو السماء، ليكون ظلام على أرض مصر، حتى يُلمس الظلام، فمد يده نحو السماء، فكان ظلام دامس فى كل أرض مصر، ثلاثة أيام، لم يبصر أحد أخاه، ولا قام أحد من مكانه ثلاثة أيام، ولكن جميع بنى إسرائيل كان لهم نور فى مساكنهم

خروج ١٠: ٢١ ـ ٢٣.

وتبقى الضربة العاشرة، والقاضية، التى ستجبر فرعون على إطلاق شعب الرب، وقبلها يقول لموسى :

ضربة واحدة أيضاً.بعد ذلك يطلقكم من هنا، **وعندما يطلقكم يطردكم طرداً** من هنا بالتمام، تكلم فى مسامع الشعب أن **يطلب كل رجل من صاحبه، وكل امرأة من صاحبتها، أمتعة فضة وأمتعة ذهب، وأعطى الرب نعمة للشعب فى عيون المصريين**

خروج ١١ : ١ ـ ٣.

هنا نعلم أن الإسرائيليين كانوا يقيمون وسط المصريين، ولا نعلم كيف أصابت كل تلك الضربات المصريين دون الإسرائيليين، لكن الأهم هنا هو إيعاز الرب لموسى بأن الفرعون ـ مع الضربة القادمة ـ سيطلق بنى إسرائيل، لذلك كان عليهم رجالاً ونساء أن يطلبوا من أصدقائهم (أصحابهم) المصريين، ذهبهم وفضتهم، مما يشير فى جانب آخر إلى مودة من المصريين للغرباء المقيمين بينهم، مما يجعل التساؤل عن ضرب شعب مصر بكل تلك الضربات ومبرراتها سؤالاً مشروعاً، أما أن يأمن المصريون للغربان، ويعطونهم ذهبهم وفضتهم إعارة فذلك يضع أمامنا موقفهم موقفاً نبيلاً، ويدعو للتشكك فى قصة تلك الضربات جميعاً من أصلها.

وتأتى الضربة العاشرة، ويهبط يهوه بنفسه ليقتل بيده كل بكر من أبناء مصر:

> وقال موسى : هكذا يقول الرب : أنى نحو منتصف الليل، أخرج فى وسط مصر، فيموت كل بكر فى أرض مصر، من بكر الفرعون الجالس على كرسيه، إلى بكر الجارية التى خلف الرحى، وكل بكر بهيمة، ويكون صراخ عظيم فى كل أرض مصر
>
> خروج ١١ : ٤ ـ ٦.

ويأمر يهوه شعبه أن يلطخ كل منهم عتبة بيته بدم الخراف، ليميزوها عن بيوت المصريين، قبل وقوع ضربة قتل الأبكار، أما السبب فهو كي :

> يكون لكم الدم علامة على البيوت التى أنتم فيها، فأرى الدم وأعبر عنكم، فلا يكون عليكم ضربة للهلاك حين أضرب كل ارض مصر ـ خروج.

وهنا تأكيد آخر للتغشى فى السكنى للإسرائيليين بين المصريين، أما الأهم، فهو أن يهوه يعلم هنا أنه سيصاب بلوثة القتل، وأنه لن يميز فى تلك الحال بين بيوت جماعته وبين بيوت المصريين، إلا إذا راى دماً على البيوت، تلك الدماء التى ستوعز له أنه قد أنتهى من أمر سكانه وقتل أبكاره، فيعبر عن تلك البيوت ولا يصيبها، وهو فى حالة التخبط فى دماء المصريين، وفى تلك الليلة، حيث «كان صراخ عظيم فى مصر، لأنه لم يكن بيت ليس فيه ميت ـ خروج ١٢ : ٣٠» تقرر خروج بنى إسرائيل، دون عزاء لأصحابهم من مصريين، لكنهم قبل تلك الضربة، التى مارس فيها يهوه نزوته الدموية :

> فعل بنو إسرائيل بحسب قول موسى، طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهباً، وثياباً، وأعطى الرب نعمة للشعب فى عيون المصريين حتى

اعـاروهم، فسـلبوا المصريين، فـارتحل إسـرائيل
من رعمسيس

خروج ١٢ : ٣٥ ـ ٣٧.

وتأتى الضربـة الحادية عشر عندما قام ملك مصر وجيشه يطارد الهاربين، حتى أدركوهم عند بحر سوف، وهنا كانت المعجزة الكبرى:

ومد موسى يده على البحر فأجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة كل الليل، وجعل البحر يابسة، وأنشق الماء، فدخل بنو إسرائيل فى وسط البحر على اليابسة، والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم، وتبعهم المصريون ودخلوا وراءهم.. فمد موسى يده على البحر، فرجع البخار عند إقبال الصبح إلى حاله الدائمة.. فدفع الرب المصريين فى وسط البحر — خروج ١٤ : ٢٧. (وبعد الخروج) كان الرب يسير أمامهم نهاراً فى عمود سحاب ليهديهم فى الطريق، وليلاً فى عمود نار ليضئ لهم، لكى يمشوا ليلاً ونهاراً

خروج ١٣ : ١١.

وعلى قصة الخروج تلك، بكل تفاصيلها، أقام الباحث الصهيونى **إيمانويل فليكوفسكى** عمله الهائل، الذى انتهى فيه إلى تأكيد كل الأحداث التى روتها التوراة، بكل تفاصيل ضربات يهوه ومعجزاته التى صاحبت الخروج، وهو الأمر الذى يرضى الجانب الإيمانى ليس فقط عند أصحاب يهوه إنما لدى المسيحيين، بل والمسلمين بدورهم، فهو يشرح لهم عملية إنشقاق البحر وتاريخيته، وما رافقه من قبل ومن بعد، من أحداث كسرت قوانين الطبيعة وقواعد الكون الثابتة، لكنه يأخذ الجميع فى سلة واحدة، بعد تأسيس المقدمات العلمية للقواعد الإيمانية، إلى نتائج لا بد من التسليم بها إذا كانوا متسقين مع إيمانهم ومع أنفسهم، وهى نتائج أبعد ما تكون عن أمانينا الوطنية والقومية، وإذا كان ثمة شرخ أصيل فى الذات، ما بين بعض المقررات الإيمانية التى تتناول بنى إسرائيل، وما بين الأمانى الوطنية والقومية، فإن فليكوفسكى لا يفعل شيئاً سوى وضع القواعد الإيمانية على محك العلمية، يثبت صدقها الكامل، ولا يبقى لدى قارئ طيب النوايا سوى الأخذ بالكفة الراجحة إيمانياً، وهو تسليم رسم له فليكوفسكى خطته ببراعة إلى محطة الوصول، بحيث يصادق الجميع من خلال عقائدهم على حق إسرائيل التاريخى، فى التاريخ، وفى الأرض، بل وفى صفتهم كشعب فضله الله على العالمين.

أما نحن، فلا بأس عندنا في البحث عن أسس تلك الأحداث التي روتها التوراة والتي اكتست بثوب الإبهار الإعجازي في التاريخ الإسرائيلي، ولا بأس لدينا، ولا علينا، إن وجدنا لها تبريراً لا يصادم العقائد الثابتة، لكن دون افتئات على حقائق التاريخ وعلمية المنهج، وبغرض وضع ذلك التاريخ وتلك الأحداث في حجمها الصحيح ومقامها الفعلي من التاريخ، وهو ما نسعى وراءه الآن في بحث بين أيدينا، ولا نعتقد أن الانتهاء منه يسير أو حتى قريب، وهو كما أشرنا بعنوان (النبي موسى وآخر أيام تل العمارنة)، ولا نستطيع هنا الإدلاء بشهادت حول الأجزاء التي انتهينا منها، لوضع فرضيات وقرائن نناطح بها فليكوفسكي، فالعمل لازال مشروعاً قابلاً للتعديل كل لحظة، فقط أردنا هنا القول : إنه بالإمكان حل إشكاليات التاريخ الإسرائيلي، ليس بنزوع عنصري، إنما بغرض علمي تماماً، لا يستطيع أحد أن يصادر عليه، وذلك بالتعامل مع الأحدث الإعجازية في ذلك التاريخ، باعتبارها مواداً قابلة للفحص، والإمساك بها، بحيث يمكن ضبطها ضبطاً دقيقاً، يضعها في حجمها، دون إهمال بعضها لصالح بعض، أو تضخيمها لتتحول إلى كتلة ضاغطة على ضميرنا الوطني وحسنا القومي، الذي ربما كان يبحث بعصبية وتوتر، عن مفاضلة قد تجرح بعد المقررات الإيمانية التي لا يصح جرحها، و تصادم في جانب آخر تطلعات وطنية وقومية مشروعة

بدورها ولا يصح التنازل عنها، كالمفاضلة بين شعب مصر القديم وتاريخه العريق وفراعنته، وبين جماعة إسرائيل التى اتسمت بالقداسة وامتلكت أنبياء ومعجزات ثابتة أقرتها الأديان التالية لهم كما حظيت بعلاقة خاصة بالإله ، سمحت بمنحهم تلك المنح والأعطيات، أوالمفاضلة بين ملوك إسرائيل وجماعتها، وبين ملوك كنعان وشعبها الفلسطيني، وهى المفاضلة التى يمكن أن تؤرق الضمير الوطنى، أو تجرح الحس العقائدى، فى حال لزوم الاختيار ما بين فرعون وموسى، أو المصريين والإسرائيليين، وكذلك ما بين جالوت وداود، أو الفلسطينيين والإسرائيليين، ومن ثم نسير بهدوء فى بحثنا المشار إليه، دون استعجال قبل تحقق واستبانة، لنقرأ حقائق الأحداث التى جرت على أرض مصر، وتحولت من أحداث مجتمعية وسياسية، وصراعات طبقية وقومية، ورافقتها ـ ربما ـ ظواهر طبيعية، إلى ورم هائل يجثم على صدر تاريخ العالم وضميره، لكن ذلك كله شئ، وتأجيل التعامل مع كتاب فليكوفسكى شئ آخر، لا يقبل الإرجاء، وما على قارئنا إلا أن يشمر عن همته، لنتابع معاً تنظيرة بنى إسرائيل التاريخية، وممكناتنا فى التعامل معها، فى بابنا الثالث (التضليل).

الباب الثالث

التضليـل

التأسيس

تأسيس ـ ١ ـ

ربما سمحت لى علاقة امتدت زمناً بالتراث القديم للمنطقة أن أجازف بالزعم : أنه إذا كان النبى (موسى) ــ حسب المأثور التوراتى ـ هو المؤسس الحقيقى للديانة اليهودية، والعقدة الرابطة للقبائل التى ائتلفت فى كيان كونفودرالي عرف بعد ذلك بشعب اسرائيل، وأنه إذا كان (شاول) و (داود) و (وسليمان) هم أصحاب الفضل فى إقامة أول كيان سياسى مركزى لذلك الشعب، فإن (إيمانويل سيمون فليكوفسكى) هو صاحب أهم وأخطر وأثرى تنظير تاريخى لما يسمينه هو (القومية الإسرائيلية)، فى كتابه الذى اكتسب شهرة عالمية فى الأوساط العلمية كافة، والموسوم بعنوان (عصور فى فوضى)، والذى انتهى من كتابته فى شهر فبراير من عام ١٩٥٢م[1].

---

(١) إيمانويل فليكوفسكي: عصور فى فوضى، عن ترجمة مخطوطة قام بها الطبيب د. رفعت السيد.

ملحوظة : بعد طبع كتابنا هذا طبعة أولى تمكن المترجم رفعت السيد من العثور على دار نشر تقبل نشر مخطوطته، وصدر فعلاً عن دار سينا بالقاهرة سنة ١٩٩٥ .

وقبل قراءتى لذلك الكتاب، والتى جاءت متأخرة، بل ومتأخرة جداً فيما يبدو، قضيت وقتاً أحاول فيه البحث لفهم سر الادعاء الاسرائيلى، بأن أسلافهم الغوابر هم بناة أهرام مصر، ومعظم أعلامها الآثارية، وأنهم أصحاب الاصل الرفيع لثقافات المنطقة الشامية منذ فجر التاريخ، ولما لم يهدنى البحث إلى تفسير أى من تلك المعانى، لم أجد سوى أن القوم قد استمرأوا زهوراً تاريخياً زائفاً، وأن الأمر لا يزيد عن كونه مثل كثير من السذاجات والأساطير والمبالغات المسطورة بكتابهم المقدس، الذى هو كتاب لتاريخهم فى المقام الأول، حيث اكتست فيه أحداث التاريخ وتلبّست بألوان عديدة من المبالغات المغرقة فى الأسطرة، واحتسبت ذلك الادعاء كلون من مغامرات يشوع وشمشون وداود وسليمان، لكننى عندما طالعت (عصور فى فوضى)، أكتشفت أن الأمر جد خطير، وأخطر بكثير من كتابات أسطورية قديمة كانت تلائم بنية التفكير فى عصرها، وأن احتساب دعواهم كبناة وكعمادة أساسى لحضارة المنطقة فى عصرها القديم مجرد سذاجة، لهو موقف فى منتهى السذاجة، لأن فى الأمر أمراً، وللادعاء حيثيات وقرائن وشواهد ودلائل وبراهين، قام على جمعها وتصنيفها بأسلوب عصرنا، وصياغتها بالمنهج العلمى الصارم، رجل من نوع نادر، وباحث من طراز فذ، هو (فليكوفسكى).

ورغم الواضح للوهلة الأولى، أن (عصور فى فوضى) كتاب يخدم غرضا سياسياً وعنصرياً من ألفه إلى يائه، فإن الأوضح كان قدرة المؤلف على البحث الدؤوب الذى لا يكل، وامتلاكه جلداً على التقصى المضنى لا يبارى، وسعياً لا يفتر ـ من أول كلمة خطها إلى الختام ــ وراء القرائن والبراهين التى تدعم فروضه وطروحاته لتحويلها إلى بناء راسخ القواعد، مع لهاثه خلال حقبة زمنية طويلة مكتظة بالأحداث والمتغيرات، وفى مساحة شاسعة من أثرى مساحات العالم القديم بالراسب الثقافى الذى لم يزل فاعلاً إلى اليوم، وبين متغيرات اجتماعية واقتصادية وسياسية تلاحقت فى كافة الاتجاهات، وتركت بصماتها على نقوش ورسوم ودلالات حفرية، وكتابات ذات طرائق مختلفة باختلاف الأصول اللغوية لمواطن متباينة، مما كان كفيلاً بجعل أى باحث يقبع وسط شرك من خيوط عنكبوتية متشابكة وكثيفة، يحتاج فكها وفحصها ــ وإعادة نظمها مرتبة ــ إلى صبر قدرة ووعى نفاذ، وربما كان البحث مع البدء عن طرف الخيط فيهاء كان لا يزيدها إلا تشابكاً واضطراباً، وهنا سر عظمة الرجل، الكامن فى هذا القدر العجيب من الصبر، الذى لازمه طوال رحلته مع ذلك الرتل المختل بالأصول، فى سياق قصصى لين سهل، صيغ بلون روايات التحرى المباحثية، مما جعله ــ فى رأينا ــ بحق، صاحب أخطر تنظير معاصر لما يسمى القومية الإسرائيلية بحيث لا يتخلّف

درجة عن موسى أو سليمان، وذلك بعينه ما جعله (النوتة) الأصلية لكل المعزوفات الصهيونية، التى لم تفعل أكثر من إعادة توزيع المعزوفة حسب المقامات المطلوبة، وهذا ـ أيضاً ـ ما جعله صاحب أخطر فكر يشكل قدراً هائلاً من الإقناع، حتى لدى الخصوم السياسيين، بل ولدى الخصوم المصيريين، وهذا ـ أيضاً ـ ما جعله ـ بعقد المقارنات ـ يزيد فى تقزيم مؤسساتنا الفكرية، التى لم تقدم على عراقتها وممكناتها عملاً على ذات المستوى، وربما جاز لتلك المؤسسات مراجعة مناهجها وطرائقها وأدواتها، التى أثبت هذا العمل مدى هشاشاتها وهزالها رغم منتجها الكمى الضخم.

ولا يجوز أن يفهم من كلامنا هنا، دعوة إلى رد من النوع ذاته، رد عنصرى أو قومى، فهذا أبعد ما يكون عما نريد، لكن ربما طلبنا عملاً على ذات الدرجة من الأصولية العلمية، وعلى ذات القدر من التمكن من أدوات العلم، والتى تمكن بها (فليكوفسكى) من تطويع مادته التاريخية، لخدمة أغراض أبعد ما تكون عن العلمية. مع رغبتنا فى تسجيل ملحوظة لابد منها فى حالة المقارنة بين عمل مثل (عصور فى فوضى) وبين أعمال أخرى تزحم أرفف مكتباتنا، ولا حول لها ولا قوة إلا بالله طبعاً، وتكاد تأخذنا الريب والظنون بشأن ذلك الرتل من الزحام فى المكتبة العربية، والذى يفصح ـ بتناوله ـ عن عمد للطرق السهلة، والابتعاد عن مكامن الإشكاليات الحقيقية فى التاريخ القديم، لما يحتاجه تناولها من جلد وصبر ودأب.

ذلك فى الوقت الذى نؤكد فيه أن (عصور فى فوضى) لا يمكن احتسابه نتاج باحث فرد هو (فليكوفسكى)، فلا ريب يراودنا أنه كان (المايسترو) الذى خطط وقاد ووجه فريقاً من المتخصصين بالمراكز الأكاديمية العالمية، والتى بدون معونتها ودعمها ما كان ممكناً إخراج مثل ذلك العمل.

ولا ريب لدينا أن تلك المؤسسات قد عملت لحساب ذلك العمل، وجمعت له المادة العلمية النادرة من الوثائق القديمة، وبحثت له بين قوالب الأجر وقطع الفخار ونقوش المعابد، وباللغات المسمارية سومرية أو سامية، أكادية أو كنعانية أو حثية أو أرامية أو عبرية، أو خطوط هيروغليفية متناثرة، تجد نصف البردية منها فى نيويورك؛ والنصف الآخر فى لينينجراد، وقامت على ترجمة كل تلك الوثائق للباحث الفذ، مع إيضاح إمكانات الاحتمال فيها، مابين صدق نسبتها لعصرها أو لغيره، عبر مقارنات للنص بالعصور من حيث شكل الأسلوب والكتابة والبلاغيات وما يحكيه من أحداث، وهل يوافق ذلك العصر الفلانى أم ذاك، مع بيان مواضع الثغرات التى يمكن للرجل أن يتسلل من خلالها لدعم توجهاته، وباختصار قدمت له جهداً كان يحتاج أى باحث آخر لإتمامه، أن يعيش قرنين من الزمان على أدنى تقدير، مما أهله فى النهاية للخروج بسفره هذا، الذى يصح لأصحابه أن يضعوه بفخر فى مقدمة أسفارهم، ليقف منتصباً بين التوراة والتلمود والهجادا والمشنا والمدراش.

وحُكمنا هذا، الذى نزعم فيه دعم مؤسسات أكاديمية عالمية لصاحب هذا العمل، يتأسس على معرفتنا، وبحكم درايتنا، بتلك المادة الوثائقية القديمة، وعلمنا اليقيني بالحدود القصوى التى يمكن أن تصل إليها قدرات باحث فرد، لإنتاج مثل ذلك العمل، وعلى حكمنا هذا نراهن بسمعتنا العلمية. والعمل مطروح على السادة المتخصصين، بل وكان موجوداً لديهم من زمن بينما نحن الذين تأخرنا فى إعطائه أهمية تجعله جديراً بالقراءة، ولا شك أن بعضهم قد طالعه ـ مع شهرته العالمية ـ خلال الفترة ما بين ١٩٥٢ وحتى اليوم، ولا شك أيضا أن هؤلاء البعض قد آثروا السلامة، لأنه إذا كان الكلام من فضة، فإن مع فليكوفسكى سيكون السكوت من ذهب.

تأسيس ـ٢ـ

ولأن الباحث كثيراً ما يقابل مدهشات لا يجد لها تفسيراً، فمن الطبيعى أن تقابلنا مثل تلك المدهشات، لكن أشد ما أثار عجبى من بينها، هو دأب الباحثين العرب، فى تنظيراتهم التاريخية للقومية العربية، الإشارة، والإشادة بمملكة عربية قديمة عظمى، بلغت سمت الإمبراطوريات [1]، وأن هذه المملكة شملت شرقى المتوسط كاملاً (بلاد الشام والرافدين وجزيرة العرب ومصر وبعض جزر المتوسط الشرقية)، وأن عرب تلك الإمبراطورية هم من جاء ذكرهم عن المؤرخ المصرى (مانيتون Manithon) الذى عاش فى القرن الثالث قبل الميلاد، باسم (الهكسوس)، وهو الأسم الذى ترجمه لنا المؤرخ (يوسفيوس Josphus) بمعنى الملوك الرعاة، بحسبان الكلمة (هكسوس) ملصقة من مقطعين :الأول (هك) بمعنى (ملك) فى اللغة المصرية المقدسة (الهيراطيقية) والثانى (سوس) وهى فى المصرية الدارجة ـ فيما زعم ـ تعنى (راعى).

---

(١) أنظر على سبيل المثال فقط : د. أحمد شلبى : مقارنة الأديان، اليهودية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣، ص٤٤،٥١، وما بعدها . أنظر ايضاً محمد حسين الفرح، أعداد مجلة المنابر من ٣٢ إلى ٤٠ (هذا ما وصلنا حتى كتابة هذه السطور)، بيروت، والموضوع بكامله بعنوان الحضارات العربية الكبرى فى العصور القديمة.

وكان مصدر دهشتنا من باحثينا القوميين آنذاك، هو إطلاقهم ذلك الزعم مرسلاً، دون شواهد أو بينات أو دلائل أركيولوجية، أو حتى مستخلصات من قراءة للنصوص القديمة، أو من عمليات تحليل وتركيب لنصوص بعينها مقارنة بأخرى، مما دفعنا لهاجس أن رجالنا قد أقاموا الأمر برمته على كون (الهكسوس) بدواً رعاة، وأن العرب بدو رعاة، وكفانا بذلك دليلاً، لكن المأساة الحقيقية تكشفت لنا بعد قراءة (عصور فى فوضى)، حيث اكتشفت أن ذلك الكتاب الذى يضع النظرية التاريخية للقومية الإسرائيلية، كان هو المدد الأول لأصحاب فكرة إمبراطورية الهكسوس العربية، وبذلك قدم باحثونا رداً على ذات الدرجة من العنصرية، وإن لم يكن على ذات الدرجة من الكفاءة ولا الأمانة ونزاهة العلم، وهو الأمر الذى لا يتضح إلا بقراءة الكتاب، أو القسم الأول منه على الأقل، وهو الدعامة الأساسية للعمل بكامله.

ومن هنا تجدنا بحاجة إلى تقديم عجالة موجزة لذلك القسم الضخم من الكتاب، ولا شك أن أى عملية إيجاز له لن تؤدى ما يمكن أن تؤديه قراءة العمل ذاته، لأن كل كلمة فيه وضعت فى موضعها بمقاييس دقيقة، وكل عبارة فيه، وكل فقرة، كان عليها دور يجب أن تؤديه كما هو محسوب ومخطط له تماماً، وبدونها يفقد العمل بعض تأثيره وقدرته، لكننا هنا مضطرون لذلك، حتى يمكننا أن نقدم التحليل اللازم لذلك القسم من الكتاب، والذى قامت على أعمدته بقية فصول الكتاب التى جاءت فقط لدعم ومساندة القسم الأول منه.

تأسيس ـ٣ـ

من المستحسن هنا أن نبدأ بالإهداء الذى صدر به (فليكوفسكى) كتابه، والذى يستحق التسجيل كـاملاً دون تدخـل، لأنـه يفصـح بجـلاء عن الرجل وهويته وأهدافه، والروح التى كتب بها كتابه. يقول:

> هـذا العمـل مهـدى إلـى أبـى، وأحـب أن أوضـح فـى بضعة أسطر، من هو سيمون إيمـانويل فليكوفسـكى؟ منذ ذلك اليوم، وهو فى الثالثة عشرة من عمره، حين غادر منزل والديه، وذهـب سيراً علـى الأقدام، إلـى واحـد مـن تلـك المراكـز المتخصصـة فـى تدريـس **التلمود بروسيا**، وحتى يوم وافته المنيـة فـى ديسـمبر ١٩٣٧ **علـى أرض إسرائيل**، كـل ذلـك العمـر، مـع ثروته وراحة باله وكل ما يملك، كرسه لتحقيـق مـا كان يوماً مجرد فكـرة، ألا وهـى **إعـادة بنـاء نهضـة الشعب اليهودى على أرضه القديمة**، لقد أنجز الكثير لإحياء لغة الكتاب المقدس، وتطوير العبرية الحديثـة، بإنجـازه مـع الدكتـور ج كلوشنر كمحـرر للأعمـال العبرية القديمة المجمعة، كما ساهم فـى إحيـاء الفكـر العلمى اليهودى، بنشر كتابه المخطوطة العالمية، من

خلال المؤسسة التى سبق له إنشاؤها، وكانت تلك الأعمال بمثابة البنية التحتية، التى قامت عليها أعمدة الجامعة العبرية بالقدس بعد ذلك، كما كان من أوائل من استعادوا الأرض فى النقب، أرض الأحبار، وأنشأ هناك أول مستعمرة تعاونية أطلق عليها اسم : زدحاما، وتعد اليوم من أكبر المنشآت الزراعية المتطورة شمالى النقب، ولا أعرف لمن أتوجه بالعرفان فى إنجاز هذا العمل الفكرى، فى إعادة بناء التاريخ القديم، إن لم أتوجه به إلى أبى سيمون.

الأمر واضح من البداية، لكنه رغم وضوحه، وإمكان اتخاذ مواقف مناسبة من جانب القارئ إزاء ما سيطالع بعد الصدمة النفسية لذلك الإهداء فإن الرجل غامر وصدر به الكتاب وهو واثق تماماً من قدراته، ويعلم سلفاً إلى أى حد يمكن أن يؤثر فى قارئه ويزحزحه عن موقفه، إن لم يجعله يتبنى فى النهاية كل أطروحات الكتاب عن قناعة، وهنا قمة خطورة الرجل والكتاب.

ولعل الغرض الأساسى للكتاب قد وضح فى الإهداء، فى قوله: « هذا العمل الفكرى فى **إعادة بناء التاريخ القديم** »، وفى الفصل

الأول يشرح دوافع ذلك الغرض بقوله: «لقد تبنى الكثير من الدارسين رأياً خلاصته، أن إقامة الإسرائيليين بمصرواستعبادهم وخروجهم ورحيلهم، مجرد تصورات دينية بحتة، وقد لقى هذا الرأى تعضيداً قوياً، فى غياب أى دليل مباشر على وقوع تلك الأحداث فى الآثارالمصرية القديمة، أو فى المدونات البردية. وعلى العكس من ذلك تبنى آخرون وجهة نظر مضادة، فحواها أنه من العسير أن يخترع شعب أساطير عن العبودية، والتى لم يكن فى الحسبان وقتها، أنها ستحفز وتخلق كرامة قومية، وعليه فلا بد من وجود أسس تاريخية للقصة ». ولأن (فليكوفسكى) من أصحاب وجهة النظر الثانية، فقد كرر الحديث عن دوافع الكرامة القومية لشعب إسرائيل، كما فى قوله : « إن الرجوع الدائم بالذكرى اليهودية لتجربة البحر، يوحى بأن القصة كلها لم تكن من نسج الخيال... والغريب حقاً هو مثابرة الشعب اليهودى على التعلق بهذه القصة، جاعلاً منها بدايته الحقيقية، وجاعلاً منها فى الوقت ذاته، الحدث الأكبر فى حياته وتاريخه كأمة ».

ومن ثم تصبح الكارثة التى صحبت الخروج، وانشقاق البحر، الركن الأساسى فى عمل (فليكوفسكى)، حتى أنه يذهب إلى أن « الخروج اليهودى من مصر ــ لابد ـ قد حدث فى قمة فوران

الأحداث، وأن الكارثة بالذات، ربما يمكنها البرهنة على كونها كانت **الحلقة الرابطة للتاريخ الإسرائيلى بالتاريخ المصرى، القديم "**. ومن هنا يبدأ بتأسيس موطئ قدم لقبائل بنى إسرائيل فى التاريخ، ذلك التاريخ الذى لا يعرف شيئاً عنهم فى وثائقه، وذلك بدءاً من أحداث الخروج، تلك الأحداث الأكثر أسطورية فى الميثولوجيات القديمة، والتى ينجو فيها شعب إسرائيل ويغرق المصريون وفرعونهم، لكن ليجعل تلك الأحداث بعد عدة فصول ــ وسط إثارة رائعة حقاً وأسلوب متميز وقرائن منتقاة ــ من أشد الأمور قبولاً واعتيادية، بحيث لا يجد القارئ بعدها مانعاً فى قبول ميثولجيات أقل إدهاشاً بالكتاب المقدس، والتى سيعالجها فى بقية أقسام الكتاب، والتى لا ترقى إلى مستوى شق البحر إغراقاً فى الأسطرة، **معتمداً على إثارة الدهشة وبأسلوب المباغتة، التى يتحول فيها الواقع إلى منظومة أسطورية. بينما تتحول أحداث الأسطورة إلى وقائع حية وفاعلة.**

من تلك الحادثة (حادثة البحر) ينطلق (فليكوفسكى) ليؤسس فروضه، تلك الفروض التى تقف بدورها كأمر نافر عسير القبول، لكنه مدهش ومثير وجديد، ومع مخالفته لكل ما تم التعارف عليه حتى الآن، والفرضية الأساس عنده تبدأ من كون مدونات التاريخ القديم سواء فى مصر أو الشام أو الرافدين أو حتى فلسطين ذاتها، لا تعرف

شخصاً باسم (موسى) رغم أهميته القصوى فى التاريخ اليهودى وفى تاريخ الأديان الكبرى فى الشرق الأوسط عموماً، ولا تعرف ملكاً أسس مملكة لشعب إسرائيل بأسم (شاول)، ولا عظيماً باسم (داود)، ولا حكيماً حاز شهرة فلكية فى التاريخ الدينى باسم (سليمان)، كما لا يعلم علم التاريخ شيئا البتة عن دخول قبائل بنى إسرائيل إلى مصر، ولا عن خروجها ولا عن بحر ينشق ويبتلع جيوش دولة عظمى آنذاك، وهو الحدث الذى كان جديراً بالتسجيل فى مدونات مصر والشام والرافدين وتركيا لأهميته وخطورته. بينما على الجانب الآخر نجد الكتاب المقدس فى الأسفار من الخروج إلى القضاة لا يذكر مصر إطلاقاً، ولا يحكى أحداثاً عنها كعادته، وهو زمن امتد زهاء أربعة قرون، رغم المفترض تاريخياً أن الخروج قد حدث زمن الأسرة الثامنة عشر الفرعونية، أولى أسرات الدولة الحديثة المعروفة بدولة الإمبراطورية، وهو زمن كانت مصر تسيطر فيه على بلدان المتوسط الشرقية، وبضمنها فلسطين.

ومن هنا يتأسس العمل كله على فرضية تذهب إلى أن ثمة خطأ وقع فى تأريخ التاريخ المصرى القديم، حيث ــ وهذا رأى (فليكوفسكى) ــ **توقف تاريخ مصر عند لحظة محددة مع نهاية الأسرة الثانية عشرة فى الدولة الوسطى، مع دخول الهكسوس الى مصر**، ولأن هؤلاء الغزاة كانوا بدواً برابرة لايحترمون الحضارة،

ولايعرفون حتى الكتابة، فقد حطموا حضارة مصر، ولم يحاولوا أن يتعلموا شيئاً من المصريين، لذلك لم يتم تدوين شئ ذى بال طوال فترة الاحتلال، **هذا بينما كان بنو إسرائيل وقت دخول الهكسوس الى مصر، فى طريق الخروج لشبه جزيرة سيناء**، ووقت فوران أحداث جسام لم تسمح بتدوين واضح كامل لتلك الأحداث، أما كون بنى إسرائيل كانوا فى مصر قبل دخول الهكسوس، وفى زمن أسبق سمح لهم بالتكاثر مدة طويلة فى أرض النيل، فإن ذلك **سيعود بنا الى عهد بناة الأهرام** فى الدول القديمة. ومكمن الخطأ، يكمن فى **أن المؤرخين قد قاموا بوصل نهاية الأسرة الثانية عشرة آخر أسر الدولة الوسطى (١٧٨٨ ق.م) ببداية الأسرة الثامنة عشرة أولى أسر الدولة الحديثة بعد التحرر من الهكسوس (١٥٨٠ق.م)، ولم يتركوا الأسر من الثالثة عشرة الى السابعة عشرة سوى مئتى عام تزيد قليلاً**، يتم تقسيمها على مجموعة الأسر المصرية والهكسوسية خلال خمس أسر كاملة، بينما يرى (فليكوفسكى) **أنه قد سقط من ذلك التاريخ ـ بالإضافة الى المئتى عام المفترضة ـ مالايقل عن أربعمائة عام كاملة، هى زمن قضاة إسرائيل، وزمن احتلال الهكسوس** لمصر، وعليه فيجب أن تكون بداية الأسرة الثامنة عشرة التى أسسها (أحمس) الذى قضى على الهكسوس، واقعة فى تاريخ يبعد عما حدده

المؤرخون بأربعة قرون إضافية، أى يجب أن تكون بدايتها بين ١١٨٠ و ١١٠٠ ق.م على وجه التحديد.

والخطورة عند (فليكوفسكى) فى ذلك الخطأ، لا تكمن فى اختلال تاريخ مصر، أو فى سقوط ذكر بنى إسرائيل من التاريخ، إنما ينسحب الخطأ على عمليات التأريخ لحضارات المنطقة بكاملها، حيث **كان التاريخ المصرى هو المعيار الذى قيست بالنسبة إليه عهود الحضارات الأخرى وتم تزمينها وفقه**، ومن هنا جاز له القول : « إن تاريخ الآشوريين البابليين والفرس قد تم تشويهه وتخريبه، وتاريخ الإمبراطورية الحثية (تركيا القديمة) قد اخترع بأكمله، وكذلك التاريخ اليونانى فى عصره البرونزى لم يوضع فى موضعه الحقيقى من السياق الزمنى، كما تم تشويه التاريخ السابق للإسكندر الأكبر.. ومن ثم يتضح أن هناك ملوكاً قد وضعوا فى مواضع أحفاد أحفادهم، ووصفت إمبراطوريات وهمية، بينما كانت قطع الآثار نتاج قرون أخرى، وعصور تخالف ما نسبت إليه، وكان هذا هو الحال بالنسبة للإمبراطورية الحثية وفنونها، وكانت كذلك أيضاً بالنسبة للشعوب الحورية ولغاتها، لأنها ببساطة لم توجد أصلاً »، ومن هنا كانت فوضى العصور فى حاجة إلى (فليكوفسكى).

تأسيس ـ ٤ ـ

وحتى لا يبدو الرجل كمن يلقى القول جزافاً، كان عليه أن يقوم بأمرين : الأمر الأول هو عرض ما انتهت إليه النظريات التاريخية التقليدية بشأن الخروج، ومناقشة مدى مصداقيتها، بحيث إذا ثبت بطلانها انتقل إلى الأمر الثانى، وهو تقديم الأدلة الكافية لتأكيد فروضه، تلك الأدلة التى استغرقت كتابه حتى آخر صفحة فيه، ومن هنا يبدأ مناقشة التاريخ ونظريات المؤرخين، ومحاكمتها محاكمة عادلة تماماً، وربما ساعده على تلك المحاكمات أن حيثيات إدانة أى نظرية منها، سبق وقدمتها نظرية أخرى بديلة.

ويبدأ بأقدم نظرية قدمت عن حدث الخروج، وقد وردت عند المؤرخ المصرى (مانيتون). وتقرن تلك النظرية بين ظهور الهكسوس وبين ظهور الإسرائيليين، كما تقرن الهكسوس بخروج الإسرائيليين، حيث سجل (مانيتون) أن الهكسوس بعد طردهم من مصر اتجهوا إلى فلسطين، حيث أنشأوا هناك مملكة (أورشليم)، وقد أخذ المؤرخ اليهودى (يوسفيوس) بكلام (مانيتون). وذهب المذهب نفسه ـ من القدماء ـ الأب (يوليوس الأفريقى)، الذى روى أن اليهود تمردوا فى مصر بقيادة (موسى)، على ملك باسم (احمس)، وحتى

الآن، وبعد مضى أكثر من تسعة عشر قرناً على تلك النظرية، لم يزل هناك من يأخذ بها إلى اليوم.

لكن على الجانب الآخر نجد من يرفض تلك النظرية تأسيساً على مقدمة منطقية تماماً، وهى كيف يقع اليهود تحت نير العبودية فى مصر إذا كانوا هم الذين حكموها باسم الهكسوس، إضافة إلى المقدمة الثانية فى ذلك القياس وهى أن حكام مصر بعد (أحمس) قائد التحرير، كانوا من الحكام الأقوياء الذين فرضوا هيمنتهم على شرقى المتوسط بما فيه فلسطين، مما يستحيل معه أن يخرج بنو إسرائيل رغماً عن إرادة مصر، بل ويقومون بغزو فلسطين المفترض أنها خاضعة للحكم المصرى آنذاك، بل ويتمكن الإسرائيليون من إنشاء دولة فى فلسطين!! لذلك لجأ آخرون إلى البحث عن فترات ضعف إبان حكم الأسرة الثامنة عشرة، يمكن أن تسمح بالخروج وبقيام الدولة، ومن ثم ذهبوا إلى احتمال حدوث ذلك بعد انتكاسة (إخناتون) فرعون التوحيد، لكن ما يدحض ذلك المذهب بدوره، أسانيد وثائقية تم العثور عليها بين وثائق مدينة (إخناتون) فى تل العمارنة، فى شكل رسائل من حاكم أورشليم، يحذر فيها الفرعون من مهاجمة قبائل بربرية لحدوده من عبر الأردن باسم (الخابيرو)، والتى تنطق أيضاً (عابيرو)، ويمكن أن تكون مسمى للعبريين اليهود، لذلك لا بد أن

يكون الخروج قد حدث قبل إخناتون بفترة كافية، وتسقط بذلك تلك النظرية بدورها.

ومن هنا ذهبت نظرية ثالثة إلى أن بنى إسرائيل قد غادروا مصر زمن (أحمس)، إبان طرده للعناصر الأجنبية مع الهكسوس، ووصلوا فلسطين زمن (إخناتون) باسم (الخابيرو)، لكن العقبة فى قبول تلك النظرية، أنها تهمل مئتى عام بين زمن أحمس وزمن إخناتون، وتعنى أمراً غير مقبول، هو أن يكون زمن التيه الإسرائيلى في سيناء قد استغرق مئتى عام بدلاً من أربعين عاما قررتها التوراة، وتعد بذاتها زمناً طويلاً جداً استغرقه الخارجون من مصر إلى فلسطين.

لذلك طرحت النظرية الرابعة رأياً مخالفاً تماماً، وهو أن يكون الخروج قد حدث ـــ لابد ـ زمن الفرعون (مرنبتاح) بن الفرعون (رمسيس الثانى) حوالى ١٢٢٠ق.م فى الأسرة التاسعة عشرة، بعد العثور على غطاء تابوته الذى يعدد عليه البلاد التى أخضعها، وبينها عبارة تقول : « أبيدت إسرائيل ولم يبق لها بذر »، وهو أول ذكر لإسرائيل فى أى وثيقة مصرية على الإطلاق، مما يؤكد أن (مرنبتاح) هو فرعون الخروج، بينما كان أبوه (رمسيس الثانى) هو فرعون الاضطهاد، لكن تلك النظرية بدورها تبدو غير كاملة الإقناع،

لأن نص مرنبتاح يشير لإسرائيل ضمن إشارته لـدول خـارج مصـر، وليس لقوم داخل مصر، بما يعني حديثه عن دولة كانت قائمة بـالفعل قبل أن يشن هجومه عليها، إضافة لعدم ذكر فرعون دمر إسرائيل باسم (مرنبتاح) ضمن الأسماء الواردة فـى المـأثور التوراتـى لأعداء اسرائيل، كما لا يتفق ذلك مع أى محاولة لتزمينه مع أحداث التـوراة وزمنها، حيـث لا بد أن يكـون الاسـرائيليون قد دخلـوا فلسطين بعد خروجهم من مصر، ولكـن بمئـة عـام أى حوالـى ١١٩٠ق.م، وبذلـك لا يتبقى لعصر القضاة سوى قرن واحد، وهو ما يخالف بشدة الزمـن المفترض، والذى يحتسب ثلاثة قرون كاملة على الأقل لذلك العصـر، وربما أربعة، لذلك اعتبر عصـر (مرنبتـاح) كموعـد للخـروج موعـداً متأخراً جداً وأكثر مما ينبغي، ورغم ذلك تعد هذه النظريـة من أشـيع النظريات حتى اليوم.

وبين النظريات التى حازت ذيوعـاً أيضـاً، تلـك التـى اعتبرت حدثى الدخول والخـروج مسـألة اعتياديـة فـى تـاريخ مصـر، باعتبـار دخول البدو إلى مصر وخروجهم منها فى عصور متباينة، كان أمـراً دورياً ومعتاداً، لذلك كان دخول بنى إسرائيل وخروجهم أمراً هامشـياً فـى اهتمامـات المصريين، إلـى الحـد الـذى لـم يجـدوا معـه أى دا للأهتمام بتسجيله، لكن ذلك لا يتفق مع إصرار التـوراة علـى تفصيـل الأحداث وهولها وشدتها، ومن هنا لجأ أصحــاب نظريـة مشـابهة إلـى

الاعتراف بما قالت التوراة، لكن مع النزوع إلى تأويل النصوص التوراتية لتبدو مقبولة، وذلك بإلباس الأساطير التي سبقت الخروج وصحبته ثوباً يظهرها كأمر اعتيادى، ومن هنا قامت تفسر الضربات التى أنزلها رب موسى بالمصريين من قمل وضفادع وبعوض وذباب، باعتبارها أموراً اعتيادية تماماً عند المصريين، بالنظر إلى أرض مصر الشديدة الخصب، والتى تسمح بكافة أنواع الحياة، بينما بدا ذلك غريباً على بدو رعاة، كذلك رياح الخماسين التى تهب من الصحراء الليبية محملة بالرمال والأتربة، مع ما تجلبه معها أحياناً من أسراب الجراد، يمكن أن تفسر ضربة الإله اليهودى (يهوه) لمصر بالظلام والجراد، أما مسألة انشقاق البحر فهى أسطورة متكررة فى الميثولوجيات القديمة عند مختلف الشعوب، وإذا كان لابد من الاعتراف بانشقاق البحر وانطباقه، فلن يكون له تفسير سوى موجة مد عالية ضاعفها إعصار مفاجئ. ثم تستكمل النظرية مسوغاتها بالميل الإسرائيلى المعهود، والواضح فى كتابهم المقدس، للصياغات الإعجازية والميل الشديد للخوارق، حتى أن شعلة بيد قائد الخروج، تتحول فى نص التوراة إلى إله يسير أمامهم فى عمود دخان ونار.

وقد ذهب أحد هؤلاء، وهو (تشالزبيك) إلى أن جبل سيناء الذى عبروا إليه كان بركاناً، والبركان هو الظاهرة الوحيدة التى

تعطي صورة عمود دخان بالنهار ونار بالليل، ولأنه عادة ما تصاحب ثورات البراكين النشطة ضربات زلزالية، فإن زلزالاً قد سحب الماء ليلة الخروج بعيداً عن الشاطئ، ثم ارتدت المياه لتحطم كل ما جاور البحر وتبتلعه، وهو ما يفسر معجزة البحر الموسوية، لكن المشكلة الكبرى التي واجهت هذا التفسير.. رغم براعته.. أن منطقة سيناء لم تكن منطقة بركانية، إضافة إلى أن المنطقة الواقعة ما بين البحر المتوسط وخليجي السويس والعقبة تفتقد تماماً ظاهرة المد الإعصاري، ناهيك على كون (بيك) اضطر في النهاية، وفي نهاية حياته، إلى الاعتراف بخطئه، وسحب نظريته.

الوثائق والأدلة

وهكذا أصبح الميدان خالياً من نظرية تامة الصدق تفسر حدث الخروج وزمانه، ومرة أخرى تبيبت الحاجة ماسة إلى (فليكوفسكي)؟!، ولا يبقى سوى أن ندخل مع الرجل إلى عالمه، بادئين بقوله : «سنجد أنفسنا مضطرين للإقرار باعتراف مباشر وصريح، أن الكلمات (يقصد كلمات الكتاب المقدس) تعني ما تقوله تماماً، وأن مدى الكارثة كان يفوق بدرجة كبيرة أية نتائج أخرى يمكن أن تنجم عن ثورة بركان لقد ساهمت الارض والبحر والسماء فى الثورة المفاجئة، البحر غمر الأرض، والحمم الساخنة تدفقت من أرض ممزقة، وقد وصفت النصوص المقدسة فوضى العناصر التى انطلقت من عقالها:

إرتجت الأرض، وارتعشت أسس الجبال .. تحركت واهتزت .. دخان ونار .. ظهرت أعماق المياه، وانكشفت أسس المسكونة. هو المزحزح الجبال، ولا تعلم الذى يقلبها في غضبه .. هو المزعزع الأرض من مقرها فتتزلزل أعمدتها » .

لكن قبل تلك الأحداث الهائلة، وقبل حدث انفلاق البحر، فإن « النص التوراتي يصرّ على حدوث البلاء بمصر قبل رحيل الإسرائيليين عنها، وكانت نذيراً سابقاً للدمار الذى سببته عناصر الطبيعة التى أفلتت من عقالها.. إن الأسئلة المنطقية التى تفرض نفسها فى هذا الموضع هى: هل هذه الشهادة مزيفة بأكملها؟.. هل من الممكن ألا يكون المصريون قد لاحظوا شيئاً من تلك الأحداث؟.. هل هناك أى زلزال على الإطلاق تم ذكره فى السجلات المصرية القديمة؟ إن التسجيلات المصرية التقليدية لاتحتوى على أى ذكر لهزة أرضية، ولاتحتوى على أى أثر لكوارث، ولكننا نصر.. فقد نحصل على مفتاح هام لمشكلة مستعصية، اختلف الكثيرون بشأنها واختصموا، وظلت حتى الآن ما يقرت من ألفى عام دون إجابة قاطعة » وبالفعل، ولأول مرة فى التاريخ، يقدم لنا (فليكوفسكى) ما عثر عليه من وثائق وأدلة.

الوثيقة الأولى :

بردية ليدن :

تحت عنوان « شاهد عيان مصرى يشهد بحدوث البلاء »، وبأسلوبه المتميز، يقدم لنا (فليكوفسكى) فيما يبدو أنه كشف خاص

وخطير، بردية (إيبور) المعروفة ببردية ليدن، في قالب لا يخلو من ملابسات الغموض، وضبابية الماضي السحيق، ودخان ما قبل الكشف عن اللغز وغموض الأمر، بحيث يبدو كما لو كان يقلب البردية بين يديه، ويصفها وصفاً دقيقاً، بادئاً بالقول : «ليس من المعروف تحت أية ظروف، تم العثور على البردية التي تحتوي كلمات (أبيور)، وطبقاً لرواية (أنستاسي) مالكها الأول، فقد عثر عليها في منف، وهو ما يشير للمنطقة المحيطة بهرم سقارة، ثم انتقلت ملكيتها في عام ١٨٢٨م إلى متحف ليدن بهولندا، وأدرجت بقائمة محتويات المتحف تحت رقم ٣٤٤ ليدن.. إلخ »، وفي عجالات سريعة يشير إلى ما قدمه المتخصصون من تفسيرات بشأنها، فهناك من اعتبرها عملاً فلسفياً، وآخر لم يجد فيها سوى مجموعة أحاجي وألغاز، وذهب ثالث إلى أنها نبوءة بأوقات شدة كانت مقبلة على مصر، لكن الوثيقة ــ فيما يرى (فليكوفسكي) ـ تنطق بلسان مبين لشاهد عيان مصري عاصر الأحداث التي سبقت الخروج بأيام أو بأسابيع، وبتطابق مبهر مع نصوص التوراة بذات الخصوص، ويبدأ بأخطر النصوص دلالة، والتي تشير بوضوح إلى كارثة أصابت الأرض، مصحوبة بأصوات الطبيعة الهادرة :

٢ :٨ أنظروا الأرض تدور حول نفسها كما تدور عجلة صانع الفخار.

٢ :١١ المدن دمرت .. وصعيد مصر أصبح يباباً.

٣ : ١١ الكل خراب.

٤ : ٧ انقلب المسكن فى لحظة.

٢ : ٤ سنوات من الضجيج ولا نهاية للضجيج.

٦ : ١ آه لو تتوقف الأرض عن الضجيج وتنقطع الجلبة.

ويعقب على مدلول (الضجيج) فى البردية، بأنها « الأصوات التى تصم الآذان وعادة ما تصاحب الزلازل، ويبدو أن الهزات كانت متتابعة الحدوث مرة بعد أخرى، حتى تحولت البلاد إلى حطام وانهار نظام الدولة فجأة، وأصبحت الحياة لا يمكن أحتمالها ».

ثم يدلف مباشرة إلى المقارنة بين مقاطع من البردية، وبين مقاطع من سفر الخروج التوراتى،، وهى تفصح بوضوح عن ضربات (يهوه) رب التوراة لأرض مصر قبل الخروج مباشرة:

بلاء تحويل ماء النهر إلى دماء :

الخروج ٧ : ٢٠ فتحول كل الماء الذى فى النهر دماً.

البردية ٢ : ٦٥ النهر دم.

الخروج ٧ : ٢١ وكان الدم فى كل أرض مصر.

البردية ٢ : ٦٥ البلاء انتشر ففى كل أنحاء البلاد .. الدماء فى كل مكان.

الخروج ٧ :٢٤ وحفر جميع المصريين حول النهر لأجل ماء ليشربوا، لأنهم لم يقدروا أن يشربوا من ماء النهر.

البردية ٢ : ١٠ عاف الناس شرب الماء.

الخروج ٧ : ٢١ مات السمك الذى فى النهر وأنتن النهر.

البردية ٣ : ١٠ ـ ١٣ هذه مياهنا، وهذه سعادتنا، فماذ سنفعل بعد الآن؟..الكل حطام.

بلاء البرد والنار:

الخروج : ٩ : ٢٥ فضرب البرد فى كل أرض مصر، جميع ما فى الحقل من الناس والبهائم، وضرب البرد جميع عشب الحقل، وكسر جميع شجر الحقل.

البردية : ٦ : ١ لا فاكهة ولا محاصيل موجودة.

الخروج ٩ : ٢٣ ، ٢٤ وجرت نار على الأرض، وأمطر الرب برداً على أرض مصر، فكان برداً وناراً متواصلة وسط البرد.

البردية ٢ : ١٠ التهمت النار البوابات والاعمدة والحوائط. والنار التى أهلكت الأرض لم تنشرها ايد بشرية، لكنها سقطت من السماء.

الخروج ١٠ : ١٥ لم يبق شئ أخضر فى الشجر، ولا فى عشب الحقل فى كل أرض مصر.

البردية ٦ : ٣ أحقا اختفت الحبوب فى كل مكان؟

البردية ٥ : ١٢ أحقا.. اختفى ما كان بالأمس مرئياً؟

فليكوفسكى : يعقب هنا بأن حصر زمن تدمير المحاصيل بيوم واحد، يستبعد الجفاف كسبب تقليدى لقلة المحاصيل، فقط النار والصقيع والجراد هى التى كان بإمكانها ذلك.

بلاء وباء الطاعون :

الخروج ٩ : ٣،١٩ يد الرب تكون على مواشيهم التى فى الحقل، على الخيل والحمير والجمال والبقر والغنم.. سيفتك بها طاعون .. جميع الناس والبهائم الذين يوجدون فى الحقل.. ينزل عليهم البرد فيموتون.

البردية ٥ : ٥ كل الحيوانات قلوبها تنتحب ... والماشية تئن.

البردية ٩ : ٢ ـ ٣ انظروا تركت الماشية شاردة ولا يوجد من يجمعها، كل إنسان انشغل بنفسه.

بلاء الظلام :

الخروج ١٠ : ٢٢ فكان ظلام دامس فى كل أرض مصر ثلاثة أيام.

البردية ٩ : ١١ لم تكن الأرض نوراً.

بلاء ضربة البكر :

الخروج ١٢ : ٣٠ فقام فرعون ليلاً هو وكل عبيده وجميع المصريين وكان صراخ عظيم فى مصر، لأنه لم يكن بيت إلا فيه ميت.

الخروج ١٢ :-٢٧ الرب الذى عبر عن بيوت بنى إسرائيل فى مصر لما ضرب المصريين وخلص بيوتنا.

الخروج ١٢ : ٢٩ فحدث فى نصف الليل أن الرب ضرب كل بكر فى أرض مصر، وبكر فرعون الجالس على كرسيه، إلى بكر الاسير الذى فى السجن، وكل بهيمة.

البردية : انهار المسكن فى لحظة

البردية ٤ : ٣ أحقاً كل أبناء الأمراء سحقت أجسادهم فى الحوائط؟

البردية ٦ : ١٢ أحقاً تشرد أبناء الأمراء فى الطرقات؟

البردية ٣ : ١٤ النواح فى كل أنحاء البلاد يختلط بالنحيب.

(فليكوفسكى) يعقب: إن موت كل هذا العدد فى ليلة واحدة، وفى ذات الساعة من منتصف الليل لا يمكن تفسيره بوباء كالطاعون، إنما بكارثة أرضية ضربت كل أرض مصر.

تكسير آلهة المصريين :

الخروج ١٢ : ١٢ وأصنع أحكاماً بكل آلهة المصريين، أنا الرب.

البردية ٣ : ١٤ وسقطت تماثيل الآلهة مهشمة إلى أجزاء.

خروج كفن يوسف من قبره :

النص من الهجادا: عندما سحقت الأرض فى مصر آخر ليلة وجد الأسرائيليون كفن يوسف على سطح الأرض فحملوه معهم.

(فليكوفسكى) يعقب : ولم تكن الأرض أكثر رحمة بجثث الموتى فى قبورهم فالمقابر لفظت موتاها وتمزقت الأكفان.

البرديه ٤ : ٤ أحقاً أولئك الذين كانوا محنطين فى أكفانهم، صاروا ملفوظين على سطح الأرض؟

ويشرح (فليكوفسكى) أن البردية قد تضمنت ، تمرد السكان وفرار البؤساء والمساكين المسخرين للعبودية، واختفاء الملك فى ظروف غامضة.. والحقيقة الثانية هنا، هى أن زلازل متتابعة صاحبتها ظواهر طبيعية أخرى، قد اجتاحت أرض مصر، صاحبها أكثر من بلاء، سبب هلاك الإنسان والحيوان والنبات، وأتلف كل مصادر الحياة، .. ونظر المصريون إلى ذلك كله على أنه من فعل رب العبيد.. وأسرع العبيد الفارون باتجاه حدود الدولة، يسبقهم نهاراً عمود سحاب ليهديهم فى الطريق، وليلاً فى عمود نار.

الخروج ١٣ : ١١ وكان الرب يسير أمامهم نهاراً فى عمود سحاب ليهديهم فى الطريق، وليلاً فى عمود نار ليضئ لهم، لكى يمضوا نهاراً وليلاً.

البردية ٧ : ١١ يا ويلاه، النار ارتفعت إلى الأعالى وامتد لهيبها أمام أعداء البلاد.

.. مع ما سجلته البردية ٧ : ١- ٢ أن الفرعون قد فقد فى ظروف غير عادية، وأن ذلك لم يحدث من قبل قط لأى فرعون آخر ".

ثم يبرز (فليكوفسكى) حدث دخول الهكسوس البلاد " البردية ٣ : ١ أحقاً صارت الدولة خراباً كالصحراء، وأصبحت الأقاليم يباباً، واقتحمت البلاد قبائل غريبة من وراء الحدود؟ إن الكارثة التى حولت مصر إلى دمار شامل بلا قوة متماسكة تدافع عن أرضها، أغرت الغرباء، وكانت حافزاً لقبائل الصحراء العربية لينقضوا عليها. البردية ١٥ : ١ ماذا حدث؟ لقد علم الأسيويون بحال البلاد ".

الوثيقة الثانية :

حجر العريش :

وحجر العريش كتلة جرانيت سوداء، حفرت عليها نصوص هيروغليفية ورغم أهميته فإنه لم يحظ باهتمام كاف، ولم يعد يذكره أحد إلا لماماً، رغم احتوائه على أسماء ملوك ومدن وأماكن جغرافية، وغزو غرباء للبلاد فى عصر ملك يدعى (توم)، ونص الكتابة فى

رأى (فليكوفسكى) يتطابق كلية مع نص التوراة بشأن الأحداث التى صحبت الخروج من البحر، ومما اقتبسه (فليكوفسكى) من تلك النصوص: «لقد مرت البلاد بلوى عظيمة، سقط الشر على أرضها، وثارت الأرض ثورة عنيفة شملت عاصمة البلاد، ولم يغادر أحد القصر الملكى لمدة تسعة أيام كاملة، وأثناء هذه الأيام التسعة من جيشان الأرض، كانت هناك عاصفة بلغت قوتها حداً لا يستطيع معه الإنسان ولا الإله أن يرى وجوه الآخرين ».

وحجر العريش ليس ـ عند (فليكوفسكى) ـ سوى تسجيل للقصة الكاملة للبلاء العاشر، الذى أنزله الرب الإسرائيلى بمصر فى شكل ظلام وعواصف برية، فالحجر يتابع «وفى خضم المحنة، وتقلبات الطبيعة الوحشية، جمع الملك جيشه وأمرهم باتباعه إلى مناطق، وعدهم أنهم سيرون فيها النور من جديد (سنرى أبانا رع حر أختى فى منطقة باخيت المضيئة).. وفى هدأة الليل، وتحت ستار الظلام، إقتربت جافل الغرباء من حدود مصر ثم إجتازتها (وذهب صاحب الجلالة لمحاربة أبوبى وزمرته.. وحين قاتل جلالة الملك رع حرماكيس، حين قاتل إله الشر **بالقرب من البحر** فى مكان الدوامة، فإن إله الشر لم يتغلب على جلالته، **ولكن جلالته هو الذى اندفع إلى دوامات البحر)**.

وبعد شروح يعود الكاتب إلى المكان الذى انتهت إليه مسيرة الملك قبل غرقه في البحر، وأنها محددة بالاسم فى النص «ووصل جلالته إلى مكان يسمى **بى خاروتى**»، ثم يأتى بنص التوراة «فسعى المصريون وراءهم، وأدركهم جميع خيل مركبات فرعون وفرسان جيشه، وهم نازلون عند البحر، عند **فم الحيروث** ـ خروج ١٤ : ٩»، ثم يوضح «وبى خاروتى فى المصدر المصرى هى (بى حيروث) أو (فم الحيروث) فى المصدر العبرى، إنه المكان نفسه والمطاردة نفسها.. وبعد انقضاء فترة من الزمن خرج ابن الفرعون (صاحب السموجب) باحثاً عن أبيه (وقد أخبره شهود العيان بكل ما حدث لرع فى يات نيبيس، والصراع الذى خاضه الملك توم)، ويحكى النقش أن كل من رافقوا الأمير فى رحلته للبحث عن أبيه قد ماتوا حرقاً، أما الأمير نفسه صاحب السموجب، فقد أصيب بحروق شديدة قبل أن يعود من رحلة البحث وهو يائس من العثورعلى أبيه الذى لقى حتفه، ومن غبرة الصحراء فى طريق يات نيبيس وصل الغزاة واحتلوا مصر (أتى أبناء أبوبى المتمردون الذين كانوا يعيشون فى أوشيرو .. وساروا على طريق يات نيبيس، وحلوا على مصر مع حلول الظلام، لقد غزوا البلاد ليحطموها ويدمروها)، وبمرور الوقت برد الجوفى مصر وجفت الأرض، ولم يعرف ماذا حدث بعد ذلك

للأمير التعس، ولكن نهايته كانت بائسة بالتأكيد (لقد دمرت مصر بالإعصار فأكلتها النيران، أما العاصمة فقد احتلها الآمو).. إن النقش الموجود على حجر العريش يحدد اسم الفرعون الذى هلك فى دوامة البحر، كان توم أو تووم، ومن المثير ان اسم (بى توم) تعنى مسكن أو مقرتوم، و(بى توم) كانت إحدى المدينتين اللتين شيدهما العبيد الإسرائيليون للفرعون الطاغية وبأمر منه، وطبقاً لمانيتون فإن الفرعون الذى حل غضب السماء على مصر عهده قبل غزو الهكسوس، كان يدعى توتيماوس أو تيمايوس ».

الوثيقة الثالثة :

بردية الارميتاج :

وهى بردية الحكيم (نفروحو) المحفوظة بمتحف الأرميتاج بلينينجراد بروسيا ويرى فيها (فليكوفسكى) ترديداً لذات نص بردية ليدن، وإن اختلفت فى كونها نبوءة ألقاها صاحبها أمام أحد الفراعين، وأهم ما يريده (فليكوفسكى) منها قولها فى مقاطع :

ملء قلبى رثاء لهذه الأرض التى نبع منها الفن..

ستهلك هذه البلاد وما عليها ولن يبقى سوى الشر

فانية هذه البلاد

ستحتجب الشمس ولن يرى إنسان النور

لن يبقى أحد حيا

النهر جاف

ستهب الرياح الجنوبية ضد الرياح الشمالية

وتكابد الأرض بؤساً لم تعرفه

ويحتل البلاد البدو حين يأتون من الشرق

سينزل الآسيويون أرض مصر

ستشرب وحوش الصحراء وحيواناتها من نهر مصر

أرى هناك الأرض مقلوبة رأساً على عقب

ويردف (فليكوفسكى) : « إن الرائى نفررحو يتنبأ بعد ذلك بتحرير مصر على أيدى ملك مصرى، يولد من أم نوبية، ويسمى (أمينى)، وهو الذى سيقتل الآمو (البدو) بسيفه، وبعدها سوف يبنى سور الحاكم حتى لا تتكرر عودة الآمو إلى مصر.. واسم (آمنى) يشير إلى (آمن حوتب) الأول، وهو واحد من الملوك الذين حكموا مصر بعد أن تم تحريرها من الهكسوس، وكان وقت بداية حروب التحرير مازال أميراً، وكانت صوره على الجدران المعابد تشير إلى

لون بشرته الأسود، وهو ما يتفق مع مقولة أنه سيولد لأم نوبيــة، وقد تم تبجيله فيما تلا ذلك من عصوره ".

الوثيقة الرابعة :

نبوءة الخزاف :

وهى أثر أدبى ممــاثل فـى مضمونـه للوثـائق السـالفة، لخـزاف عاش فى عهـد (أمينحوتـب) يقـول : " إن نهـر النيـل سيمتلئ بالميـاة، ويعود موسم الشتاء إلى موقعه الصـحيح مـن العـام، وتسـتعيد الشـمس مجراهــا الطبيعــى "، ممــا يشــير إلــى خلــل قــد أصـــاب النظـــام الطبيعى الكونى.

الوثيقة الخامسة :

مقياس سمنة :

" ولاحظ (ليبيسيوس) أن مقياس النيل عند (سمنة) الموجود منذ عصر الدولة الوسطى، يظهر ارتفاعاً عظيماً لمستوى المــاء فـى ذلـك المكان، حيث يجرى النهرى فـوق أرض صـخريـة، ومقدار الارتفـاع يزيد عن أعلى ارتفاع للمياه مسـجل فـى العصـر الحديث بمقدار ٢٢ قدماً، ونظرياً فإن هبوط مستوى الماء فى ذلك المكان بعد ذلك بمقدار اثنين وعشرين قدماً قد يعزى إلى واحد من احتمالين: فإمــا إلــى تغير

كمية المياة المتدفقة من نهر النيل، أو إلى تغير فى التركيب الصخرى والطبقى للأرض، ولو كان النهر يحمل هذا القدر العظيم من الماء قبل الكارثة، فإن العديد من المعابد والمساكن كان من المفترض أن تغطى تماماً بالمياة بانتظام كل عام مع الفيضان، لكن الواضح أن التغيير المرصود عند مقياس سمنة، يدل على حدوث تغيرات ضخمة فى التكوين الصخرى وفى طبقات الأرض بمصر، فى أواخر الدولة الوسطى أو بعدها ».

الوثيقة السادسة :

نقش حتشبسوت :

وهو نقش حجرى فى عهد الملكة (حتشبسوت) التى حكمت بعد جيلين أو ثلاثة من طرد الهكسوس، وتقول فيه الملكة: « إن مقربة كيس قد تحول إلى انقاض، وابتلعت الأرض حرمها المقدس، ولعب الأطفال فوق معبدها، وقد أزالت عنه ما تراكم، وأعادت بناءه.. فقد كان هناك مقر ربه فى وسط الدلتا، وفى حاوار (حواريس عاصمة الهكسوس)، وكانوا هم من دموروا كل المبانى القديمة، وحكموا البلاد غير مؤمنين بالإله رع »، ويعقب (فليكوفسكى) : « إن السطور السابقة تحمل الدليل على أن تلك المعابد قد ابتلعتها الأرض.. وصحيح أن

الهكسوس قد دمروا المبانى، لكنهم لم يدفنوها فى الأرض »، وهو بذلك إنما يشير إلى كارثة طبيعية ليست فى رأيه شيئاً آخر سوى كارثة الخروج.

وينهى الباب الأول من القسم الأول بعبارة تلخص نظريته تماماً، وتقول: «لو كانت كل المقارنات السابقة، والنتائج المترتبة عليها، صحيحة، فإن خروج الإسرائيليين يكون قد سبق غزو الهكسوس لمصر بأسابيع أو بأيام قليلة ».

امبراطورية الهكسوس العربية

وربما الأمر هنا لا يشبه مجموعة الوثائق التى جمعها (فليكوفسكى) للتدليل على صدق أحداث الخروج كما وردت بالكتاب المقدس، إنما هى مجموعة شهادات عربية على القسم الثانى من نظريته، والذى يذهب إلى أن الهكسوس كانوا من عرب شبه الجزيرة العربية، وليسوا كما ذهب المؤرخون إلى احتسابهم من منطقة أرمينيا. فهو يلتقط طرف الخيط من (مانيتون) فى شذرة تقول: « البعض قالوا أنهم كانوا عرباً » ، وهم من أطلق عليهم المصريون اسم (آمو). وكان الهكسوس من الشعوب التى تشربت حتى النخاع بروح التدمير والتحطيم، وعلى قدر ما هو معروف، لم يترك الهكسوس أثراً أو نصباً تذكارياً ذا قيمة تاريخية أو فنية طوال فترة حكمهم، وأن هؤلاء الهكسوس ليسوا سوى التسمية المصرية لمن ذكرهم سفر الخروج باسم العمالقة، حيث « أتى عماليق وقاتلوا إسرائيل عند رفيديم » فى طريق الخروج بسيناء، لذلك قال الرب لموسى: « أكتب هذا تذكاراً فى الكتاب وضعه فى مسامع يشوع، فإنى سوف أمحو ذكر عماليق من تحت السماء ١٧ : ١٤ ».

وإن هؤلاء العماليق في هجرتهم انقسموا خطين عظيمين: الأول احتل كل منطقة شرقي المتوسط، بينما احتل الثاني مصر، وعند خروج بني إسرائيل من مصر وقت انهمار سيول العمالقة على المنطقة، «وبسبب وجود العماليق في جنوب فلسطين، اضطر الإسرائيليون للبقاء في الصحراء على مدى جيل كامل»، وبذلك يفسر (فليكوفسكي) مسألة التيه أربعين عاماً في سيناء.

ولتأكيد فروضه حول كون الهكسوس هم ذاتهم العمالقة، وأنهم كانوا من غرب شبه الجزيرة، فإنه يؤكد أن ما حدث للطبيعة من هياج مفاجئ في مصر، قد حدث أيضاً على الضفة الأخرى من البحر الأحمر في جزيرة العرب.

وبصبر غريب ينقب الرجل عن كل ما يدعمه في كتب التراث الإسلامية، وما جاء فيها من تاريخ جزيرة العرب في عصورها الأولى. ومعلوم أن حديث العماليق من الأحاديث المتواترة في كتبنا الإخبارية بحسبان العماليق من أشهر قبائل العرب البائدة، وأنهم بادوا كما جاء في مستندات (فليكوفسكي) بنصوص من (المسعودي) وصف فيها الغضب الإلهي الذي حاق بهم، وكيف أرسل عليهم الله سيلاً هربوا على إثره من البلاد متتبعين سحباً قادتهم إلى أماكن دمارها أشد هولاً. يقول المسعودي : «ودمرت مكة في ليلة واحدة بضجيج

يصم الآذان، وتحولت كل المنطقة إلى صحـراء بلقـع، وأصبحت كـل الأرض من الحجون إلى الصفا صحراء قفرا .. وصل العمـاليق إلـى سوريا ومصر وامتلكوا البلاد، وكان طغاة سورية وفراعنة مصر من أولئك العمـاليق، .. وقدم ملـك العمـاليق الوليد بن دوما من سوريا وغزا مصر وقهرها واستولى على العرش.. وغزا العمـاليق مصـر بعد أن عبروا حدودها وبدأوا في نهب البلاد، وحطموا أعمالهـا الفنيـة وخربوا كـل آثارهـا (ويلفت فليكوفسكى نظرنـا إلـى تشـابه تعبيرات المسعودى مـع نـص حتشبسوت)، كذلك طَعَّم مستنداته بأسانيد مـن شهادة الطبرى "ثم مات ملك مصر، وارتقى ملك آخر عرش البلاد وكان من العماليق، كان يدعى قابوس بن مصعب بـن مويـا بـن نمير بن سلواز بن عمرو بن عماليق"، ومن شهادة أبـى الفدا "كـان هنـاك فراعنـة مصريـون مـن أصـل عمـاليقى"، ومـن شـهادة أبـى الفـرج الأصبهانى "إن العماليق انتهكوا حدود الحرم فحلت عليهم نقمـة اللـه، فتركوا مكة.. وساقهم الله إلى منشئهم حيث أغرقهم بالطوفان".

وحسب (مانيتون)، فقد أنشأ الهكسوس لهم عاصمة شرقى الدلتا باسم (حواريس)، وكان أول ستة ملوك منهم يشكلون الأسرة الأولـى مـن الفراعنـة الهكسوس، وأشـهرهم الملـك الرابـع فـى هـذه الأسـرة (أبو فيس)، وهنا يصدر فليكوفسكى بعض الأحكام من قبيل "وكـان

حكم الهكسوس قاسياً، ولم تدرك قلوبهم شفقة ولا رحمة »، ثم يضيف «ولم تقتصر هيمنة الآمو الهكسوس على مصر وحدها فقد وجدت جعارين وأختام رسمية فى العديد من البلدان تحمل اسم الملك المصرى (أبوب = أبو فيس) والملك (خيان)، كما وجد اسم خيان أيضاً على تمثال لأبى الهول اكتشف فى (بغداد)، وعلى غطاء آنية فى (كونسوس) بجزيرة (كريت)، كما وجد نقش يعود للملك (أبوب) ذكر فيه « أن أبوب الملك، ست رب حواريس، قد أخضع كل البلاد تحت قدميه .. ووجد بعض المورخين أنفسهم مجبرين على قبول حقيقة أن الهكسوس كانوا أصحاب إمبراطورية كبرى، ولو لفترة محددة من الزمن .. وطبقاً لمانيتون .. كان آخر ملوك الفراعنة الهكسوس ملكاً قوياً يدعى أبوب الثانى ».

ولأن الإسرائيليين غادروا مصر وقت دخول الهكسوس، ولأنهم لقوهم فى سيناء، ولأن تلك النظرية لاتجد نصاً توراتياً واضحاً بشأنها، فإن (فليكوفسكى) يعثر على ذلك النص، ويكتشف أن الإسرائيليين قد عرفوا بالفعل الكارثة الحادية عشرة التى حلت بمصر ممثلة فى غزو الهكسوس، والنص فى سفر المزامير، ويقول : « أرسل الله عليهم حمو غضبه سخطاً ورجزاً وضيقاً، جيش ملائكة

أشرار ـ ٧٨ :٤٩ "، ويكتشف أن تعبير (ملائكة أشرار) خطأ فى القراءة والترجمة، حيث (ملائكة) و (ملوك) تتشابهان فى العبرية، ثم تأتى زيادة حرف (ألف) إلى كلمة (رعاة) فتحولها إلى كلمة (أشرار)، ومن ثم فقد كان الأصل: **أرسل الله عليهم جيش ملوك رعاة، وهو الأصطلاح المأخوذ من كلمة (هكسوس)** " .

وتأسيساً على كل تلك القرائن، وإعمالاً لتلك الشواهد الغزيرة، ينتهى (فليكوفسكى) إلى إعادة التزامن الصحيح للتاريخ، ويعيد إليه أربعمائة سنة مفقودة بين نهاية الدولة الوسطى وبداية الدولة الحديثة، إضافة للمئتى عام المفترضة من قبل المؤرخين لتلك الفترة الزمنية وهو الفرض غيرالمقبول منطقياً. ليصبح الزمن ما بين سقوط الأسرة الثانية عشرة آخر أسر الدولة القديمة، وبين الأسرة الثامنة عشرة أولى أسر الدولة الحديثة، ستة قرون كاملة، **ومن ثم يكون زمن التيه، ويشوع، والقضاة، الذى استغرق فى تاريخ إسرائيل أربعة قرون، يقع فى توقيت واحد مع حكم الهكسوس العماليق لمصر**، وتبقى المئتى سنة الأولى لأسر مصر متهالكة فيها يعرف بالعصر المتوسط الثانى.

ومن هنا يستمر (فليكوفسكى) فى دعم فرضيته ليسوق المزيد من الأدلة على صدقها، ويقف مع نص العراف (بلعام) بالتوراة،

والذى يمتدح فيه إسرائيل ويقول : "يجرى ماء من دلائه، ويكون زرعه على مياه كثيرة، ويتسامى فى ملكه على أجاج وترتفع مملكته.. ثم رأى عماليق فنطق بمثله وقال : عماليق أول الشعوب وأما آخرته فإلى هلاك - عدد ٢٤ : ٧،٢٠ "، ويستنطق (فليكوفسكى) ذلك النص مالم يخطرببال أحد حتى اليوم، فعماليق أول الشعوب تشير أن العمالقة كانوا أصحاب إمبراطورية عظمى، لكن آخرته ستكون الهلاك على يد بنى إسرائيل، و(أجاج) الملك بالنص ليس سوى (ابوب الثانى) آخر ملوك تلك الأمبراطورية، حيث كانت العبرية القديمة تحمل تشابها يؤدى إلى اللبس بين حرفى (ج) و (ب).

ومن بردية سالیه يخرج (فليكوفسكى) بمدى الازدراء والاحتقار الذى كان يعامل به الهكسوس أمراء الولايات المصرية، وكيف حكت تلك البردية عن رسالة مهينة من (أبوب الثانى) إلى (سقننرع) أمير طيبة، وكيف "ظل أمير المدينة الجنوبية صامتاً، ثم بكى لوقت طويل، ولم يدر بم يجيب على رسالة الملك أبو فيس" ومن ثم "قبض على الأمير المصرى، وساقه رسول الملك أبوب الثانى إلى حواريس، ونهاية البردية مفقود " .

لكن الأمير (كاموس) ابن الملك الطيبى (سقنترع) قاد أولى عمليات المقاومة **ضد الهكسوس العرب، بمعاونة قوات أجنبية**، كما هو مسجل بلوح كارنارفون، كما أن قصة طرد الهكسوس محفورة على جدران مقبرة الضابط (أحمس)، وكان ضابطاً فى جيس الملك (أحمس) الذى حمل الاسم ذاته، أخى الملك (كاموس)، وقد قاد الكفاح ضد الهكسوس بعد أخيه، وهنا يقول (فليكوفسكى): « **إن الأمراء المصريين المتمردين على حكم الهكسوس، لم يكونوا هم من حرر مصر، لكن مقاتلين أجانب من خارج مصر** هم المحررون الحقيقيون لها، فالنقش بمقبرة الضابط أحمس يقول : تابعت الملك سيراً على أقدامي فى حين ركب عجلته الحربية، فى طريقه إلى خارج الولاية.. **كانوا هم** يحاصرون مدينة حواريس، أظهرت بسالة فى القتال مترجلاً أمام سموه.. **كانوا هم يحاربون** من جهة قناة المياه فى حواريس، ثم نشب قتال جديد فى ذلك المكان.. وشاركت فى القتال مرة أخرى.. **حاربواهم** فى مصر هذه جنوب تلك المدينة.. ثم استطعت اقتياد أسير حى.. **استولوا هم** على حواريس **وهم حاصروا** شاروهين لاربعة أعوام، ثم أخذها جلالته » .

ويتوقف (فليكوفسكى) مع أولئك الأجانب المشار إليهم بإشار الغائب (كانوا هم) فى النص، ليشير إلى أنهم أصحاب الفضل الحقيقى

فى تحرير مصر من العرب العمالقة الهكسوس، ليقرنه مباشرة بنص الكتاب المقدس، حيث يقول (صموئيل) آخر قضاة إسرائيل، (لشاول) أول ملوك إسرائيل: « هكذا يقول رب الجنوب : إنى قد افتقدت ما عمل عماليق بإسرائيل، حيث وقف له فى الطريق عند صعوده من مصر، فالآن اذهب واضرب عماليق، واحرموا كل ماله (أحرموا اصطلاح توراتى بمعنى أبيدوا، والإشارة من عندنا) ، ولا تعف عنهم بل اقتل رجلاً وامرأة، وطفلاً ورضيعاً، بقراً وغنماً، حملاً وحماراً... ثم جاء شاول إلى مدينة عماليق وكمن فى الوادى .. وضرب شاول عماليق من حويلة حتى مجيئك إلى شور التى مقابل مصر وأمسك أجاج ملك عماليق حيا ــ صموئيل أول ١٥ : ٢ ــ ٨ »، ويعقب « كانت عبارة مدينة عماليق عقبة دائمة أمام دارسى التوراة.. فقد كانوا يفترضون أن العماليق ليسوا سوى قبيلة صغيرة.. والأدلة الوحيدة على موقع تلك المدينة هى العلامات الطبوغرافية لموقعها، فالمدينة حوصرت من جهة مجرى قناة للمياه، أو نهر ـ ناخال .. ولا يوجد فى كل تلك المنطقة سوى نهر وادى العريش ... حيث تجرى مياهه غزيرة بالشتاء، ويجف مجراه صيفاً » .

ونكتشف أن مدينة العماليق ليست سوى (حواريس)، وأن أجاج هو (أبوب)، وأن (هم) ليسو سوى بنى إسرائيل بقيادة الملك (شاول)،

ومن ثم وجد (فليكوفسكى) أن من واجبه إعلان «أن هناك ديناً تاريخياً يدين به الشرق الأدنى لنيله حريته، وتخليصه من نير عبودية الهكسوس على يد شاول، لكن أعماله العظيمة لم تقدر، بل حتى لم يعترف بها، لقد كان سقوط حواريس وتدمير جيوش العماليق، تغييراً حاسماً لمسار التاريخ، ومن جديد نهضت مصر لتبنى قوتها مرة أخرى، وتستعيد إشراقها بعد أن تحررت من العبودية التى دامت مئات السنين، **وكان محررها واحد من بين أحفاد اليهود الذين كانوا عبيداً بمصر**».

بل أن حصار (شاروهين) بعد ذلك حيث أنسحب الهكسوس، والذى دام ثلاث سنوات لم ينته على يد المصريين كما يظن علم التاريخ التقليدى، لكن على يد أحد قادة جند الملك (داود) خليفة (شاول) والمعروف باسم (يؤاب)، والذى تتواتر عنه أسطورة تقول أنه اخترق بمفرده أسوار عاصمة العماليق، وقد كتب الضابط (أحمس) : «لقد **حاصر هو** شاروهين لمدة ثلاثة أعوام ثم أخذها جلالته».

وقبل أن يصل (فليكوفسكى) إلى إغلاق القسم الأول والأساس الصلب لنظريته لايفوته القول : «لم يستطع الإسرائيليون أبداً أن

ينسوا معاناتهم فى مصر، ولكنهم لم يحملوا أبداً أية كراهية للمصريين، أو للشعوب الأخرى فى تلك المنطقة القديمة، لكن العماليق وحدهم هم الذين أصبحوا رمز الشر فى نظرهم، ومن ثم هدفاً لكراهيتهم.. إن الشر الهائل فى ذلك الشعب ظل يتكرر حتى الملل فى آداب الفكر القديم، وكيف كانوا يمتصون دماء الشعب المرهق فى تيه الصحراء (يقصد بذلك الشعب المرهق اليهود)، وكيف كانوا ينصبون الكمائن بكل خسة وجبن، ويستولون على الأقوات القليلة، وكيف كانت حقارتهم ووضاعتهم ووحشيتهم تظهر فى مهاجمتهم للضعفاء فى مؤخرة القافلة، وكانوا يبترون أعضاء وأطراف الجرحى ويمثلون بهم ويهرطقون ويجدفون بكفر صارخ، بقذف الأعضاء المبتورة من الجرحى نحو السماء، ويسخرون من الرب .. لقد خلف الهكسوس ذات الكراهية فى نفوس المصريين، فقسوتهم البالغة، ووحشيتهم التى لا تعرف رحمة، تركت آثاراً من المستحيل محوها من ذاكرة الشعوب.. لقد كان قدر شاول أن يحمل مهمة تحرير إسرائيل ومصر على عاتقه، **ولم يذكر المصريون إسرائيل بالتقدير المناسب، وأشار إليهم المصريون بـ(هو) و(هم)** وكان ذلك بعض الظلم، وكانت مكافأتهم للاسرائيليين ما قام به المؤرخون المصريون بجمعهم الإسرائيليين مع المخربين الهكسوس فى سلة واحدة، مع أن الإسرائيليين هم من طردوا الهكسوس من

مصر ومن حواريس.. وفى عالم الإغريق وإمبراطوريتهم لم توجد إشارة واحدة إلى كراهية عنصرية لليهود، حتى بدأت قصص المصرى (مانيتون) فى الانتشار والذيوع .. وحين عرف اليهود كسلالة منحدرة من العماليق الغزاة المتوحشين .. وكانت هناك كراهية موازية لا تقل عنها ومتأججة على الدوام من نفوس اليهود وذاكرتهم نحو العماليق. إن الكراهية من الممكن أن تدوم وتمتد عبر الزمن حتى ولو لم يعد المستهدف بالكره موجوداً على ظهر الأرض. وكم كان يصبح عليه مقدار هذا الكره، إن لم يكن المكروهون قد ذابوا بشخصيتهم القومية من آلاف السنين فى شعوب شبه الجزيرة العربية .. لقد رأى المؤرخ المصرى مانيتون أن اليهود هم البذرة الخسيسة للطغاة المتوحشين.. وتسللت تلك الكراهية إلى كل الأجيال.. إن اللعنة التى وجهت إلى العماليق تحولت لتنصب على بنى إسرائيل .. ومحيت ذكرى العماليق حتى لم يعد هناك من يعرف أن العماليق كانوا هم الهكسوس، واستمر الإسرائيليون يعانون أشد المعاناة بسبب تشويه حقائق التاريخ، وحملوا آلام إدراجهم فى سلالة العماليق، وبدأ ذلك العقاب التاريخى حين أطلق مانيتو أحكامه الخاطئة، مانيتو المصرى الذى تحررت أمته من الهكسوس على يد اليهود؟ » .

ومن هنا يبدأ (فليكوفسكى) مشواره الطويل لإعادة كتابة تـاريخ العـالم وترتيـب فوضـى العصـور، مـع الإصـرار علـى معالجـة ذلـك التشويه الظالم الذى لحق بنى جلداتـه، وإلـى هنـا نوقفـه، لنبـدأ رحلتنـا معه مرة أخـرى مـن البدايـة، ورغـم اعترافنـا بقدرتـه العظيمـة علـى البحث، واحترامنا لجهده الهائل، ووصفنا له بأنه رجل من نـوع نـادر وفذ. فإن ذلك لا يمنعنا من وصفه الآن بأنه أبرع رجـل علـم ، تمكـن مـن اسـتخدام أدوات البحـث العلمـى لإجـراء أروع بـل وأمتـع عمليـة **تزييـف وتلفيق وتزوير**، فى تاريخ العلم والعالم.

التحــــدى

وعود على بدء، ومع مقدمة (عصور فى فوضى)، تلك المقدمة الهادئة المغلفة داخل طرح علمى لأهم الإشكاليات التى سيتناولها ذلك التنظير التاريخى للقومية الإسرائيلية، دون أن تبدو أية ملامح لتلك النقمة الشديد على التاريخ الذى أهمل شأن شعب إسرائيل، ورماهم بكل ما فى قاموسه من اصطلاحات عدائية فى كتاباته المتأخرة من بعد الميلاد، ـ لذلك استحق أن يعاد النظر فيه، لأنه بخطيئته كان خاطئاً ـ يوحى كاتبنا بمدى ما أصيب به من عسر ومشقة وهو يبحث فى مدونات العالم القديم، وهو لا شك محق فى ذلك تماماً. لكن الإيحاء يتوسع فى دلالاته، حيث يصف الكاتب نفسه بأنه سيكون كرجل المباحث، الذى لا يهمل فى بحثه وراء الجريمة شيئاً مهما بدا تافهاً و " حتى لو كان شعرة على عتبة نافذة "، لكن ما وضح لنا بعد أن أتممنا قراءة العمل، وسعينا وراء مصادره، وفى ضوء معرفتنا بالتراث، أن الرجل فعلاً لم يهمل شعرة على عتبة نافذة، ولا خطا عفوياً على حائط، ولا كومة قمامة ملقاة فى ركن غرفة، لكنه أهمل عن قصد مبيت وعن رغبة، عوارض خشبية تسد الطريق، وألواحاً من حديد لا يمكن النفاذ من خلالها، وهنا مكمن خطورة الكتاب على قارئ ذى اهتمام عام بشؤون التراث، لا يمتلك

أدوات كافيــة للتعــامل مــع الكتــاب ومؤسســاته، وإمكانيــات اللعــب بنصوص ذلك التراث لعبــة تلفيقيـة، ذات أغرض سياسـية عنصريـة، مغلفة بأردية شديدة الكثافة، ومُخاطة بقدر عظيم من الذكـاء، مادتهـا عقلانية ساطعة وعلم باهر. لذلك كان الرجل فخوراً بعمله إلـى حـد وصفه فى مقدمته أنه « إنجازه الأعظم على الإطلاق »، ثـم لايلبث أن يقدم تحديه للجميع سافراً: « وأنـا أقدم هنـا معركـة كبرى للتـاريخيين والمؤرخين » ورغم أن الرجل يطلب عراكاً، ويقفز على الحلبـة طـول الوقـت دون أن يستقر ودون أن يلهث، مستفزاً الجميـع داعيـاً إيـاهم للنزال. فإننا فيما نعلم، وفى حدود بلادنا على الأقل، لم نجـد مـن قبـل النزال، إنما ما بدا حتى الآن هو القبول بقفازه المرمى علـى الوجـوه، ثم يقول عن عمله « إعادة بناء التاريخ القديم للعـالم مـن جـذوره » إنـه عمـل « غير مسبوق بمحـاولات مثيلـة » بـل « إنـه ليســت هنـاك أيـة فرضيـات قويـة، ولا أدلـة ولا براهين، يمكنهـا أن تواجـه أو تدحـض إعادة صياغة التاريخ التى أوردناها » .

لكن؛ وفق أى معيار يقوم بإعادة كتابة التاريخ وإعادة تزمينـه، مادام الأصل المصرى فاقداً السلامة؟ إنـه كمـا عرضنـا سـار بنـا مـع وثائق وبرديات وحفائر وأحداث وكوارث، لكن كان يلقى بنا كل مـرة فى قبضة التاريخ الإسرائيلى، حيث ينتهى إلى قياس كل شـئ بمعيـار

التاريخ اليهودى وحده، والكتاب الذى دون ذلك التاريخ، الكتاب اليهودى المقدس وحده، والعقل الذى صاغه، العقل اليهودى وحده. لكنك لا تلمس بطول كتابه نزوعاً إيمانياً حقيقياً، ولا يبدو الرجل كحبر من الأحبار، ولا حتى ذا ميول دينية، بل إنك تلمس رغبة الرجل فى ألا يبدو رجل دين تقليدى، بل يكاد يفصح أحياناً بإلحاده. لكن لأن قيام الدولة الإسرائيلية حالياً، لا يجد أى دعامات من مقومات الكيانات السياسية، ولا يجمع عقدها المتنافرة سوى الدين وتلك الذكريات التاريخية، كأسس للقومية الإسرائيلية. فإن (فليكوفسكى) بكتابه هذا. سجل أعظم نقطة فى رصيد القوميات العنصرية، بقراءة موثقة، وتنظير قلّ أن يوجد مثيلا له لتاريخ إسرائيل المقدس، وبحيث تطابق ما كنا نظنه خرافة وميثولوجيا، مع وثائق أخرى رصدت ما بدا أنه حدث موضوعى واقعى، سحبت مصداقيتها على النصوص التوراتية فى أدق تفاصيله، وفى منمنات تلك التفاصيل وفسيفسائها، حتى بدا كتاباً لا يدخله الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وربما من باب التحدى لمن يفكر فى النزال، قام الرجل يروعنا بمغامراته التى صاحبت نشر كتابه الأسبق (عوالم فى تصادم)، ويقول : « إن مجموعة العلماء التى هاجمت عوالم فى تصادم وأدانت مؤلفه، ولعدم قدرتهم على إثبات أن الكتاب أو حتى جزءاً منه قد جانبه الصواب، أو أن إحدى الوثائق الواردة به مزيفة، فإن تلك المجموعة

من العلماء انزلقت إلى موجة من التعصب الأعمى، بلا أدنى أسس علمية، وحاولوا وأد الكتاب في مهده، وهو بين يدى أول ناشر، بالتهديد بمقاطعة كل ما تنتجه تلك الدار من كتب ومراجع.. وبلغ الأمر حدته حيث أجبروا عالماً وكاتباً صحفياً على الاستقالة من عملهما، لكونهما اتخذا موقفاً موضوعياً علنياً من الكتاب، مما حدا بكثير من المفكرين الأكاديميين بالجامعات، إلى السعى لقراءة كتاب عوالم فى تصادم سراً، والاتصال بكاتبه فى الخفاء ».

نحن إذن بإزاء كاتب ألجأ علماء الدنيا للتخلى عن موضوعيتهم وحيادهم ووقارهم العلمى، والتحول إلى استخدام أساليب قمعية إزاءه، عندما لم يجدوا لديه تزييفاً فى الوثائق، أما نحن، فنعقب «كاد المريب يقول خذونى» لأننا رغم كوننا غير محسوبين على علماء العرب، ناهيك عن علماء الدنيا، قد كشفنا فى كتابه (عوالم فى فوضى) تزييفاً، لكن من نوع جديد وخطير.

أما لماذا كل ذلك الهجوم الذى تعرض له كاتبنا؟ فيرجع ـ فيما يوعز به للقارئ ـ إلى أن كتابه احتسب مروقاً على الدين، وتجديفاً على الملة اليهودية، وهو ما يتضح بقوله فى المقدمة : «لقد كان حراس العقيدة، وما زالوا، متحفزين دوماً لمهاجمة أى جديد وإدانته بأساليب رجعية، بعيدة عن الحجة الموضوعية وعن النقاش، فضلاً

عن تحقير صاحب كل فكر جديد فى أعين الرأى العام .. وفى مسوح من يريدون إظهاركم هى خطـأ تلك الأفكار المتمردة والمنشقة عن الدين »، وهكذا فالكاتب يطمئن القارئ على أمرين : الأول : أن الذين يهاجمونه رجال دين تقليديون متعفنون يترصدون لكل جديد بعقلية متخلفة، وبذلك يكسب اشد القوى استثارة، لأن معنى ذلك اتخاذه موقفاً، علمياً موضوعياً لا ينحاز لرأى أو عقيدة. أما الثانى، فهو أنه سيقول ما يعتبر تجديفاً فى عرف بنى ملته، وأنه قد قبل بذلك الموقف التزاماً من جانبه لوجه الحق بغض النظر عمن سيغضب ومن سيرضى.

وبين المقدمة والتمهيد، يعمد إلى فصل يبدو كنتوء مقصود تحت عنوان (اعتراف بالفضل)، وهو ما اعتدنا كباحثين إدراجه بالمقدمات لتقديم التقدير لمن ساهم فى إنجاز البحث وقدم العون للباحث، لكن (فليكوفسكى) قصد ما هو أكثر من تقديم الامتنان، حيث أورد مجموعة أسماء لعلماء ومتخصصين فى صيغة الشكر على المعاونة، لكنها ملتبسة بما يشير إلى موافقتهم على عمله واقتناعهم بفروضه ونتائجه، وبشكل لحظنا فيه مالا يبدو واضحاً من التواء يعسر مؤاخذته عليه، وخرجنا بنتيجة مفادها أنه لا العلماء المذكورون وافقوا وأيدوا... ولا هم - فى ضوء الأسلوب الملتوى - بقادرين على

الاحتجاج، ولا القارئ سيلتفت إلى الخدعة المبيتة، ونضرب لذلك أمثلة لأهميتها كنموذج لأسلوبه الذى احتذاه بطول كتابه :

يقول « أشعر بامتنان أيضاً للدكتور (والتر فيديون) بمعهد دراسات آسيا بنيويورك، الذى لم يتوان عن مد يد العون بمعلوماته الغزيرة عن الأدب القديم، ويزيد من إحساسي بالعرفان أنه لم يحاول أبداً أن يقحم نفسه بأى شكل على فرضياتى الخاصة بالكتاب، ولقد **اقتضى الأمر ما يزيد على ستة أعوام، حتى اقتنع** وأقر بأن التاريخ التقليدى كما نعرفه، غير مبنى على أسس ثابتة. » ولا أخفى القارئ سراً، أنى رغم اهتمامى الواسع بالتراث القديم، فلم يصادفنى إطلاقاً عالم باسم (والتر فيديون)، واحتسبت ذلك للوهلة الأولى تقصيراً ينبغى تلافيه. أما كلام فليكوفسكى فيشير إلى اقتناع (د.فيديون) أخيراً برأى (فليكوفسكى) وموافقته على إعادة صياغة التاريخ المبنى على أسس غير ثابتة، ومع قراءة متأنية تكتشف أن (فيديون) كان لديه تحفظات وآراء ترفع بها عن الإقحام فى عمل (فليكوفسكى) ، لكن الأهم هو أن فيديون احتاج ست سنوات ليقتنع أن التاريخ القديم يقوم على (أسس غير ثابتة)، أما التعبير الأصدق (غير يقينية أو قاطعة)، وهو أمر معلوم لدى جميع العارفين بذلك التاريخ، ويعلمون أيضاً أن ذلك ليس لعيب فيه أو خلل ينتظر (فليكوفسكى) ليصلحه، إنما هو ناتج

حلقات مفقودة لم تقدمها لنا الحفائر الأركيولويجية حتى الأن، والتى تقدم كل يوم جديداً يملأ مثل تلك الثغرات. والقول باحتياج (فيديون) لست سنوات للاقتناع بفرضية الكتاب ـ، اسلوب فيه التواء يسمح بتسرب المعنى الآخر للذهن، لكن إن كان حقاً، قد احتاج (فيديون) ست سنوات ليقتنع بأمر معلوم، فربما فسر لنا ذلك أننا لم نسمع به من قبل بين العلماء المتخصصين.

ثم يقول : «كما أدين أيضاً للدكتور روبرت هـ. فايفر المرجع الفذ لدراسات الكتاب المقدس، ومدير بعثة التاريخ القديم بجامعة بوسطن، ومحرر جريدة الكتاب المقدس، ومؤلف العمل المميز عن العهد القديم (لاحظ الألقاب التى يعددها فليكوفسكى للمرجع الفذ، محذراً فيما يبدو أى متواضع مثلى لا يحمل مثلها من محاولة التعرض له)، وهو من الشخصيات التى يركن إلى آرائها،.. إن فايفر اقترح علىّ أن أحاول إثبات فرضياتى على أسس من الوثائق الآثارية، وهو ما أخذت به»، وهنا واضح من رؤية فايفر ما يشير إلى خلل تلك الفرضيات، وعدم قناعته بما قدم كاتبنا، مع رفضه التورط بالتأييد لفليكوفسكى.

وللأختصار نصل مباشرة إلى قوله : «كما قرأ أيضاً البروفيسورج . جارستانج المنقب فى آثار جيركو، النسخة الأولية

للقسم الأول (الذى نحن بصدده)، وأقر بأن وصف الوثائق المصرية القديمة للكارثة التى صاحبت الخروج، يتطابق تماماً مع وصف الكتاب المقدس، مما يثبت أنهما وصفان لحدث واحد »، وهنا أرى من واجبى الإشارة إلى أن (جارستانج) هذا هو صاحب كشف لجعران فى (جيركو) المزعوم أنها (أريحا)، وأن هذا الجعران المصرى عليه كتابة تشير بالقطع وباليقين أن النبى موسى هو ابن الفرعونة (حتشبسوت). بينما نرى نحن من جانبنا أن تلك كانت أكبر تلفيقة فى تاريخ علم الأثار، وكارثة علمية حقيقية، ولا يمكن أن تتفق بأية حال مع بقية الشواهد والقرائن التى جمعناها لكتابنا (النبى موسى وآخر أيام تل العمارنة). ولأن عملنا هذا مازال قيد البحث، فمن الأفضل تأجيل نشر الفضائح الآن، ومؤقتاً، لأننا مع (فليكوفسكى) مع ما هو أكثر من فضحية. وعليه يبدو أننا قد غامرنا بنزلو الساحة أمام (فليكوفسكى) ، وقبلنا التحدى، الذى لا نقدم فيه الآن بديلاً لفروض وطروحات فليكوفسكى، قدر ما سنثبت أن تلك الفروض والطروحات قامت على تلفيق وتزوير، إحتاج كشفها صبراً وجلداً، ربما لا يصل إلى صبر (فليكوفسكى) وجلده على البحث بطول كتابه، لكنه كان كافياً لتقويض كل ما قدمه لتأسيس خرسانته المسلحة، بحيث إذا نجحنا فى مهمتنا تلك فإن ذلك سيكون كفيلاً بسقوط كامل التنظيرة التاريخية للقومية الإسرائيلية، فى كتابها (عصور فى فوضى)، التى تم وضعها

أصلاً لشعب إسرائيل ودولته الحديثة، وللجميع لا شك. لكن فى المقام الثانى بعد إسرائيل فهى موجهة بشكل خاص للمصريين، الذين يجب عليهم أن يلحظوا فى ضوء ما قدمه، أن أنهيارهم، وتحولهم من دولة عظمى وحضارة كبرى قديمة، إلى دولة من دول العالم الثالث الآن، يجب أن يقارن فيه الحالى بالماضى، وإن صورة اليوم طبق أصل ماض، وأن ذلك السقوط لم يكن إلا ناتج سيطرة بدوية عربية متخلفة، تلقى بمرآتها فى مرآة القرون الخوالى، أيام احتلال أسلافهم الهكسوس لمصر. وأنه كما تحالف (شاول) أو ملوك إسرائيل مع الفرعون (أحمس) للقضاء عليهم، فلا خلاص إلا بتحالف مماثل للقضاء على هكسوس العصر، بما يعيد للمملكتين : الإسرائيلية والمصرية ماضيهما التليد، وكان هذا قمة أهداف العمل غير المعلنة. لكنا قبل البدء فى التعامل مع (فليكوفسكى)، نؤكد مرة أخرى أنه عقل من نوع نادر، **ولا يصح بحال مقارنته بالمضحكات المبكيات فيما قدمه باحثونا بذات السبيل عن تاريخ بنى إسرائيل وعقائدهم، وهى أعمال تنضح بالعنصرية وتدعى العلمية، لكنها بجوار عمل كهذا تصبح لوناً من خطب أيام الجمعة، وصفحات الإنشاء القلقشندى،** الذى لا يؤثر إلا منفراً، ناهيك عن سطحيته وسذاجته، وما يتركه من انطباعات أن تلك الأعمال كانت لديهم اهتماماً جانبياً، لأنه لا يصح ــ إيمانياً ــ إلا الصحيح، وأن عقائد بنى إسرائيل وتاريخهم لا يحتاج

لأكثر من جرة قلم وينتهي الأمر[1]. هذا بينما كرس (فليكوفسكى) عمره كله من أجل عمله هذا، فأين نحن من ذاك؟ استفسار - لا شك - أشد سذاجة من أعمال باحثينا.

لقد بدأ (فليكوفسكى) من حدث الخروج، والأحداث التى صاحبت ذلك الحدث، وبنى كل عمله على التاريخ لزمن الخروج، الذى استدعى بدوره إعادة النظر فى تاريخ المنطقة برمتها، بعد كشفه لخطأ هائل، سببه ذهاب التاريخ التقليدى إلى كون ذلك الخروج قد حدث فى عصر الدولة الحديثة (الإمبراطورية) بينما هو حسب إعادة الصياغة والتزمين، ينبغى الرجوع به إلى العصر المتوسط الثانى، مع نهاية الاسرة الثانية عشرة فى الدولة الوسطى، مما يشير إلى أن دخول بنى إسرائيل إلى مصر يجب أن يكون قد سبق ذلك الزمن بفترة مناسبة، معتمداً خلال ذلك كله على قياس تلك الفترة الزمنية مقارنة بالكتاب المقدس، الذى أثبت صدقاً مذهلاً، وتطابقاً يفوق الوصف مع الوثائق التى أكتشف (فليكوفسكى) أنها تشهد بأحداث الخروج.

---

(١) انظر مثلاً : د. صابر طعيمة، التاريخ اليهودى العام (فى مجلدين فاخرين ومُذهبين)، دار الجيل ، بيروت، ط٢، ١٩٨٣.

لكن ماذا عن الدخول ؟

إن (فليكوفسكى) لا يتعرض لهذا الأمر بالمرة ولا مرة؟! وهو الأمر الذى يضع عدداً من علامات الاستفهام، ودونه لا يمكن البدء فى التعامل مع حدث الخروج وباقى عمل (فليكوفسكى) المثير. وحدث الدخول يبدأ من أسباط بنى إسرائيل الاثنى عشر، وأبيهم (يعقوب) الملقب بإسرائيل، ومع بداية الإصحاح ٣٧ من سفر التكوين، حيث يلقى الأسباط المكرمين بأخيهم المميز (يوسف) فى بئر، حيث تلتقطه قافلة تجار (إسماعيليين) أو (مديانيين) ـ يتضارب الكتاب المقدس هنا ـ يبيعونه لفوطيفار رئيس شرطة مصر إلى أن يعلم الفرعون بقدرات يوسف على التبصير وقراءة الطالع فى الأحلام فيقربه منه. وبمهارة يوسفية يتمكن ابن إسرائيل ذو الجمال الأخاذ من الوصول إلى كرسى وزارة خزانة مصر، ويرسل فى طلب أبيه وأخوته ليقيموا معه فى بلاد النيل، ويستقر الرعاة فى مصر، وكانت "جميع نفوس بيت يعقوب التى جاءت إلى مصر سبعون ٤٦ ـــ ٣٧" و "سكن إسرائيل فى مصر فى أرض جاسان ٤٧ : ٢٧" "ثم مات يوسف وهو ابن مئة وعشرة سنين فحنطوه ووضع فى تابوت فى مصر ٥٠ : ٢٦".

ثم يستكمل سفر الخروج قصة الدخول، فيقول « وأما بنو إسرائيل فأثمروا وتوالدوا ونموا وكثروا كثيراً جداً، وامتلأت الأرض منهم، ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف، فقال لشعبه: هو ذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا، هل نحتال لهم لئلا ينموا فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا، ويحاربوننا ويصعدون من الأرض، فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكى يذلوهم بأثقالهم، فبنوا لفرعون مدينتى مخازن فيثوم ورعمسيس ١ : ٧ ــ ١١ »، ثم يلى ذلك سرد الاحداث المعروفة مع ظهور (موسى) من نسل يعقوب (اسرائيل) حتى الخروج الإعجازى، وحسب النص التوراتى اليونانى المعروف بالسبتواجت (السبعينى)، فإن مدة بقاء بنى إسرائيل فى مصر كانت ٢١٥ سنة، أما النص العبرانىالمازرورى وهو الأصل الذى ترجمت عنه النسخة العربيةالمتداولة الآن، فيذهب إلى أن مدة بقاء بنى إسرائيل فى مصر استغرقت ٤٣٠ سنة وتشهد على ذلك عدة نصوص توراتية، منها بالنص العبرانى : «ودور ربيعى يشبوا هنا» وتعنى «فى الجيل الرابع يرجعون إلى هنا»، وقد احتسبت كلمة (دور) بمعنى مئة سنة كاملة، بدليل نص آخر يقول فيه الرب لإبراهيم، «إعلم يقينا أن نسلك سيكون غريباً فى أرض ليست لهم، ويستعبدون لهم فيذلونهم أربع مئة سنة ــ

تكوين ١٥ ـ ١٣»، وبالاستناد إلى نص آخر واضح تماماً يقول: «وأما إقامة بنى إسرائيل التى أقاموها فى مصر، فكانت أربع مئة سنة وثلاثين ـ خروج ١٢ ـ ٤٠ »، هذا بينما يحدد لنا الإصحاح السادس من سفر الخروج أسماء لأربعة أجيال فقط من نسل يعقوب عاشت فى مصر إلى زمن الخروج، فقد أنجب (لاوى) أخو يوسف وابن يعقوب (كوجات)، وأنجب كوجات (عمران) وانجب عمران (موسى) الذى قاد رحلة الخروج، ولو افترضنا أن كلاً منهم قد انجب ابنه وله من العمر خمس وعشرون عاماً، فإنهم يكونون قد لبثوا فى مصر حوالى مئة سنة ربما تزيد قليلاً، وليس اربعمائة سنة، ذلك الزمن المعمول به لدى الباحثين التوراتيين لمدة بقاء الاسرائيليين بمصر، وهو رقم (أى الاربعمائة سنة) بجمعه لستمائة ساقطة من تاريخ (فليكوفسكى) ، يذهب بنا إلى عصر بناة الأهرام، **ويكون بنو إسرائيل اليوم، هم فعلاً أحفاد بناة الأهرام، الذين استعبدوا فى مصر.**

هذا بينما على الجانب الآخر، يعطى لنا سفر الخروج عدد الخارجين من بنى إسرائيل فى قوله: «فارتحل بنو إسرائيل .. نحو ست مئة ألف ماش من الرجال، عدا الأولاد ١٢ : ٣٧ »، وبإضافة الأولاد والنساء ربما ارتفع الرقم إلى أكثر من مليون، وربما ارتفع إلى مليونين إذا أخذنا بالاعتبار بقية النص «وصعد معهم لفيف كثير

جداً أيضاً ـ ١٢ : ٣٨ »، وإن كان لا يحدد جنس هؤلاء اللفيف الذين لن يكونوا بالطبع جنساً آخر غير المصريين، بما يشير إلى خروج أعداد من المصريين مع الخارجين.

وهكذا فإن (فليكوفسكى) لا يتعرض بالمرة لهذه الإشكالية، التي دفعت المؤرخين إلى قرن بنى إسرائيل بالهكسوس بالنظر إلى عدد الخارجين الهائل، وهو ما كان مناط احتجاجه ورفضه، وقد أسس هؤلاء المؤرخون رأيهم بالإضافة إلى عدد الخارجين، على الزمن الذى استغرقوه بمصر وهو أربعة قرون، مع الأخذ بالحسبان أن رقم الخارجين لا يتناسب بحال مع سبعين فرداً دخلوا مصر وعاشوا فيها لأربعة أجيال فقط. هذا بينما أهمل (فليكوفسكى) مسألة الدخول بالمرة، حتى لا يتعرض لإشكالية : كيف ينجب سبعون شخصاً ما يزيد عن مليون شخص خلال أربعة أجيال فقط، وهو ماكان ممكناً أن يضطره إلى الأخذ بأحد احتمالين، لا بد أن يكون الكتاب المقدس بموجبه كاذباً فى الاحتمال الآخر.

ـ فإما أن يأخذ بكون الخارجين نسلاً لأربعة أجيال فقط، وفى هذه الحال لن يزيدوا بحال عن **خمسمائة شخص**، مع افتراض فحولة لا تبارى فى الرجال، وخصوبة عظيمة فى النساء، وهو ـ أساساً ـ ما لن يلتقى مع فروضه ونتائجه، حيث أنتهى إلى أن

(شاول) ملك اليهود، مع مئات **الألوف** من جنوده، وهم من دمروا عاصمة الهكسوس (حواريس) وحرروا مصر.

ـ وإما أن يأخذ بالاحتمال الثانى الذى يؤيد فروضه، وهو أنهم عاشوا فى مصر أربعمائة سنة ليتيسر لهم إنجاب هذا العدد الهائل، **لكنه فى هذا الحال كان لابد أن يقر بنظرية أنهم كانوا هم ذات عين الهكسوس.**

وحتى لايقع بين شقى الرحا، فقد أهمل تماماً الإشارة إلى حدث الدخول، وهو الأمر الذى ربما غرب على بال القارئ، وسط زحمة الإثارة وكم الإدهاش، لكنه بتعمده هذا أثبت غرضية واضحة بعيدة عن روح العلم، وأول شروط العلم هو الأمانة فيما نعلم، وهذا أول الغيث الفليكوفسكى، كان لا بد من الإشارة إليه، قبل البدء فى مناقشة فروضه وطروحاته ووثائقه وبراهينه واحداً واحداً.

ونعود الآن لكلامه «إننا سنجد أنفسنا مضطرين للإقرار وباعتراف صريح مباشر، أن الكلمات ـ فى الكتاب المقدس ـ تعنى ما تقوله تماماً» لنجدها حسب ما أوردنا الآن لا تعنى ما تقول، ولا تلتقى مع أى فروض، وكان كلامه تمهيداً للاستشهاد بالنص الذى أورده هكذا «إرتجت الأرض.. وارتعشت أسس الجبال.. تحركت

واهتزت.. دخان ونار.. فظهرت أعماق المياه، وانكشفت أسس المسكونة » (أسقط هنا الإشارة إلى موضع النص بالكتاب المقدس؟!).

هنا عمد (فليكوفسكي) مباشرة إلى النص التوراتي الذى رآه أهلاً لتصوير الكارثة التى صاحبت الخروج، وربما مر القارئ على النقاط الأفقية بين العبارات مرور الكرام، وهي في عرف الباحثين مواضع لجمل أو فقرات تم الاستغناء عنها لعدم صلتها بالموضوع، وحتى لا تصرف ذهن القارئ عن جوهر الموضوع، وهى إحدى ادوات البحث العلمي ولا أعتراض، لكن كل الاعتراض يكون عندما نعلم أن للكاتب مقاصد غير أمينة، وأنه قد عمد إلى الإسقاط والحذف لأن المحذوف كان ممكناً أن يتعارض مع فروض الكاتب وما يريد الوصول إليه، باختصار هى انتقائية وعدم أمانة واضحة، وللتأكد إليك النص الأصلى من الكتاب المقدس :

« وفي ضيقي دعوت ربي، وإلى إلهي صرخت، فسمع من هيكله صوتي، وصراخي قدامه دخل أذنيه، **فارتجت الأرض، وارتعشت أسس الجبال**، ارتعدت وارتجفت لأنه غضب، صعد دخان من أنفه ونار من فمه، أكلت جمراً، اشتعلت فيه، طأطأ السماوات ونزل وضباب تحت رجليه، ركب على كروب

وطار، وهف على أجنحة الرياح، جعل الظلمة ستره،
حول مظلته ضباب المياه وظلال الغمام، من الشعاع
قدامه عبرت سحبه، برد وجمر ونار، أرعد الرب
من السماوات والعلى، أعطى صوته برداً وجمراً
وناراً، أرسل سهامه فشتتهم، وبرقاً كثيرة فأزعجهم،
فظهرت أعماق المياه وانكشفت أسس المسكونة من
زجرك يارب، من نسمة ريح أنفك، أرسل من العلى
فأخذنى .. المزامير ١٨ : ٦ ـ ١٦".

هذا هو النص، وقد عمدنا إلى إبراز ما انتقاه (فليكوفسكى) ببنط مميز، انظر مثلاً "صعد دخان من أنفه ونار من فمه"، أصبحت فى النص الذى استشهد به "دخان ونار" حتى تشير إلى صورة الكارثة التى صاحبت الخروج كما صورها، ولا بأس علينا إن لفق الرجل فى نصوص الكتاب المقدس، لأن بنى ملته أدرى بالنصوص الأصلية، لكن البأس أن زور علينا وعلى العالمين!!

واضح أن الرب (يهوه) هنا استجاب لدعوة الداعى بغضب، ولغضبه اهتزت الأرض والجبال، وفى حنقه ترك عرشه السماوى وركب كروباً (الكروب نوع من الثيران المجنحة، وهى بالقلب اللسانى ـ الميتاتيز ـ تصبح بروكاً أو براقاً)، وهبط ينفث غيظه دخاناً

من أنفه وناراً من فمه. وهي صفات اعتيادية لرب التوراة يعرفها جيداً المعتاد على التعامل مع المقدس الإسرائيلي، فعادة ما يظهر الإله في صورة التنانين، وهي الصورة التي دفعت الباحثين، ودفعتنا (في كتاب : منابع سفر التكوين) إلى جمع الأدلة لتأكيد أنه ليس أكثر من رمز لقوى بركانية، لكن فليكوفسكي الذي انتوى **أن يجد لكل كلمة بالتوراة نظيرها في الواقع وفي التاريخ** وما يتبع ذلك بالضرورة من موضعة النص التوراتي وعقلنته، فقد قام من البداية **باستبعاد كل ما يمكن أن يعطي دلالات أسطورية**، هذا ناهيك عن كون هذا النص تحديداً من النصوص التي كتبت متأخرة عن كتابات أخرى بالكتاب المقدس، ويذهب الباحثون إلى احتمال كتابتها إبان أسر اليهود في بابل أو ربما قبله بقليل، أي أنها لا ترقى أصلاً لعصر قائلها النبي (داود) في الألف الأولى قبل الميلاد. وحتى (لو) كانت نسبتها لداود صحيحة، وحتى (لو) كانت نسبتها للألف الأولى قبل الميلاد، وما قبلها بقليل صحيحة، وحتى (لو) دونت وقتها فوراً (بالفرض)، وفي كل (لو) كسر لحقيقة علمية، فإن النص يبعد عن زمن الخروج، وحسب تزمينه هو للعصور حوالي ستة قرون كاملة، فهل يصلح للشهادة على واقعة مضى عليها ستمائة سنة؟ مع ملاحظة إن كاتبنا لم يشر بالمرة إلى كل تلك الملابسات المحيطة بالنص، وإنما أورده كما لو كان شهادة شاهد عيان على الكارثة، أما الأجدر من كل هذا،

ويدفعنا لنصح القارئ **بإلقاء تلك الشهادة في أول صندوق قمامة يقابله**، فهو ماجاء في مقدمة ذلك النص ويشرح الظروف التي قيل فيها، حيث يقول : « المزمور الثامن عشر لإمام المغنين، لعبد الرب داود، الذي كلم الرب بكلام هذا النشيد، في اليوم الذي أنقذه فيه الرب من أيدي كل أعدائه، ومن يد شاول » .

ولإيضاح المقصود في تلك المقدمة التي سبقت النص، نورد قصة من أطرف القصص التوراتية المقدسة، بإيجاز: بعد أن هزم الفلسطينيون بني إسرائيل ايام القضاة، اجتمعت قبائل إسرائيل وطلبت من القاضي الكاهن (صموئيل) أن يختار لهم ملكاً كبقية الشعوب، يجمع صفوفهم وينظمهم ويقودهم باسلوب الجيوش النظامية لحرب الفلسطينيين، « فالآن أجعل لنا ملكاً يقضي لنا كسائر الشعوب ـ صموئيل أول ٨ : ٥ »، فاختار لهم (شاول) كأول ملك لإسرائيل، وكان أهم صفاته التي أهلته للملك، أنه كان « شاب، وحسن الصورة، ولم يكن رجل في بني إسرائيل احسن منه، من كتفه فما فوق كان أطول من جميع الشعب ـ ٩ : ٢ »، ودخل (شاول) عدة حروب منها حربه مع العمالقة التي أهتم بها (فليكوفسكي)، لكن شاول أبقى على الغنائم من الأطفال والبهائم، وأطلق سراح زعيمهم (أجاج) بعد إذلاله وكسر شوكته، فغضب يهوه على (شاول)، لأن أوامر الرب كانت:

« أذهب واضرب عماليق، وحرموا (أى أبيدوا، وهو اصطلاح توراتى معروف ومتواتر) كل ماله، ولا تعف عنهم، **بل اقتل رجلاً وامرأة، طفلاً ورضيعاً**، بقراً وغنماً، جملا وحماراً ـ صموئيل أول ١٥ : ٢،٣ » (لاحظ أن فليكوفسكى **لا يأتى أبداً على ذكر بربرية بنى إسرائيل الوحشية تلك بالمرة بطول كتابه، ولا يذكر شيئاً عن إبداتهم للرجال والنساء والاطفال حتى البهائم**، لأى شعب يوقعه سوء الحظ فى أيديهم، لكنه ينعى وينعب طوال كتابه على العرب الهكسوس، دونما دليل واضح على وحشية مشابهة اتسم بها الهكسوس تشابه وحشية وقسوة بنى إسرائيل وربهم يهوه).

المهم أن الرب يغضب على (شاول) لرحمته بملك العماليق (أجاج)، ويسلط عليه عفريتاً يلبسه، لذلك احتاج شاول إلى إقامة حفلات الزار بالطبول والزمور لتصرف عنه العفاريت، وكان رجل الزار هو (داود بن يسي إمام المغنين والزمارين)، الذى دخل البلاط ولمس حلاوته فطمح إلى الاستيلاء على العرش، بالتعاون مع الكاهن (صموئيل)، وبدأ الصراع الذى انتهى بمقتل (شاول) وتسلق (داود) سدة الحكم، ومن هنا قام (داود) يغنى على مزماره تلك الأنشودة، التى يقدم فيها الشكر للرب عرفاناً، ولا علاقة لهذه التزميرة البتة بحدث الخروج، وقد أرفق (فليكوفسكى) معها شهادات أخرى،

كالاستشهاد بمقاطع من سفر (أيوب) المتأخر بدوره عن الأحداث بما لا يقل عن ألف عام، من قبيل «وهو المزحزح الجبال .. إلخ»، وهى عبارات تجدها فى التوراة بطوله، أو فى أى نص دينى فى أى دين آخر لتمجيد عظمة الإله، أى إله، وتصوير قدراته على اللعب بأركان الطبيعة الثابتة.

وهكذا يعزف (فليكوفسكى) مع داود على مزماره مرة، وينوح مع بكائيات (أيوب) على حاله المتدهور وتوقعه تدخل الغضب الإلهى مرة أخرى، بنزوع غير خاف لنزع النصوص من سياقها، وتفريغها من دلالاتها الأصلية، لتشهد معه على حدث الخروج الأسطورى.

مناقشة الوثائق

١ ــ تزييف دلالات بردية ليدن :

من المعروف أن بردية ليدن (إيبور) قد نسخت من قبل شخص عاش فى الأسرة الثامنة عشرة أو بعدها، عن أصل يعود إلى بداية العصر المتوسط الأول بعد الدولة القديمة، وقد انتهى إلى هذا الرأى - بقرائن لاتهم تفاصيلها إلا المصرولوجيين ــ السير آلن هنرى جاردنر)، ووافقة عليها بعد نشرة الترجمة كاملة جمهرة العلماء. والبردية على حالها الراهن تتكون من أربع عشرة صفحة، تشمل فقرات نثرية، وست قصائد شعرية طويلة، وربما كان من الأفضل هنا استحضار كلام (جاردنر) نفسه حول تلك البردية حيث يقول « أن الفوضى التى ظلت قائمة بصفة مستمرة أو متقطعة حتى الأسرة الحادية عشرة، إنما هى صورة لثورة حقيقية انطبعت فى أعجب واهم بردية من الأدب المصرى، الذى استطاع أن يبقى رغم مخاطر الأيام، **ولا ترجع هذه البردية المحفوظة فى مجموعة ليدن إلى ما قبل الأسرة الثامنة عشرة**، ولكن حالة البلاد التى تناولتها بالوصف، لا يمكن أن تكون من وصف خيال قصاص أو راوية، ولاهى تصلح لأن توضع فى أى مكان من التاريخ المصرى، سوى **الفترة اللاحقة**

لنهاية الدولة القديمة، أما المقدمة فضائعة لسوء الحظ، وقد فقد معها كذلك تسجيل الظروف التي دفعت المتحدث لإلقاء موعظته، وهناك أول الأمر مجموعة كبيرة من الفقرات المختصرة تصور حالة الدمار والغزو، التي سقطت البلاد فريسة لها نتيجة عدوان مغامرين منحطي الأصول، وآسيويين يشقون طريقهم إلى الدلتا.. إنها تعكس صورة لما آلت إليه الارستقراطية المنهارة.. أما الملك الذي يهيل إيبور اللوم على رأسه من جراء ضعفه وتراخيه، فربما كان من آخر فرع بين الملوك المنفيين (آخرهم هو آخر ملوك الأسرة السادسة بيومي الثاني، والإضافة من عندنا) ومهما كان من أمر، فإنه لا نزاع في أصالة بردية ليدن وصدقها، من حيث هي وصف لمصر في العهد الوسيط الأول » [1].

وكان حرياً بأي باحث غير مختصص في المصريات وأركيولوجيتها، أن يترك الأمر لأهل مكة فهم أدرى بشعابها، وربما جازله أن يأخذ بأرجح الشهادات، ليبني بعد ذلك عمله أو كشوفه، لكن (فليكوفسكي) ليس باحثاً عادياً، لذلك رفض كل ما قيل بشأن تلك البردية وركن إلى احتمال ضعيف قدمه (زيته)، ومن ثم رفض نسبتها

---

(١) جاردنر (آلن هنري) : مصر الفراعنة، ترجمة نجيب ميخائيل الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٢، ١٩٨٧، القاهرة، ص١٣٠، ١٣١.

للعصر المتوسط الأول، وألحقها بالعصر المتوسط الثانى، لأنها فى هذه الحال ستوافق ما ذهب إليه، بينما نحن سبق أن أقمنا عملاً كاملاً تأسس على إشارات لجاردنر وبيت وبرستد وإرمان وسليم حسن ونجيب ميخائيل وعبد العزيز صالح.. إلخ)، وهى شذرات تشير إلى تصوير البردية لحال يبدو كلون من ألوان الثورة، ثم أقمنا عمد العمل وجمعنا له الدلائل والشواهد مع مالحقها من استنتاجات، بحيث أثبتنا فى كتابنا (أوزيريس عقيدة الخلود فى مصر القديمة)[1]، أن الظلم الذى حاق بالجماهير فى عصر بناة الأهرام، والفوارق الطبقية الهائلة التى اكتمل نضجها فى ذلك العصر، أدت إلى ثورة شعبية عارمة، كانت هى السبب فى سقوط الأسرة السادسة والدولة القديمة، وأن بردية (إيبور) ليست سوى واحدة من رجع الصدى الأدبى لتلك الأحداث الجسام.

وهنا أجدنى مضطراً لتقديم اعتراف متواضع، مضمونه أنى ما كدت أنتهى فى قراءتى الثالثة لكتاب عصور فى فوضى حتى كان (فليكوفسكى) قد أنشب كل إمكاناته وبراعته فى دماغى، حتى وصلت إلى لحظة كادت تكون هى التسليم له بكل ما ذهب إليه، ومن ثم كان لابد أن أعيد النظر فيما سبق أن وصلت إليه فى أعمالى المنشورة

---

(١) د. سيد محمود القمنى: دار الفكر، القاهرة ط١، ١٩٨٨.

لى على الأقل، وأن أعلن فى أقرب مناسبة تراجعى الكامل عن كل ما وصلت إليه فى أبحاثى من باب أمانة واجبة علمياً، كما كان ينبغى إذا أردت الاستمرار أن أبدأ من نقطة الصفر مرة أخرى، واعيد النظر فى كل ما وصلت إليه حتى الآن فى قراءتى للتراث، وهذا طبعاً عدا كم المعاناة التى عشتها ما بين انتماءاتى الوطنية والقومية، وبين إصرارى على التزام نتائج العلم الصادق – وهى ما تصورت (فليكوفسكى) قد انتهى إليها - حتى لو خالفت أشد الأمور حميمية، وكان الحل هو العروف الكامل عن البحث والدرس بشكل نهائى.

ولولا محاولة أخيرة فى قراءة رابعة لعصور فى فوضى، تسعى للاطمئنان اليائس قبل أن أنفض يدى من شؤون البحث، قصدت منها مراجعة أخيرة لمكمن سقطاتى البحثية قياساً على نتائج (فليكوفسكى)، لأضعها بين يدى باحث صديق أطمئن لإخلاصه ليأخذ الخطوة المناسبة أقول: لولا تلك القراءة ما كان ممكناً أن أكتب هذه الصفحات، فسرعان ما بدأت تتالى اكتشافاتى لمكامن الشراك والفخاخ، وبدأ التلفيق يظهر ثم تزييف الدلالات آخذاً بعضه برقاب بعض، تلك الشراك التى تمت صياغتها وتربيتها بحرفية عالية الجودة، وبإتقان غاية فى الكفاءة.

وهنا لا أجد مندوحة من إطلاع قارئى على فكرة أساسية تتعلق بذات الوثائق التى استشهد بها (فليكوفسكى) من نصوص مصر القديمة، وأدت فيها تلك الوثائق ـ عندنا ـ دوراً يختلف تماماً، وسنكتفى بتلك الفكرة الأس فى عملنا (أوزيريس..) والتى استغرقتها ثلاث أسر فى الدولة المصرية القديمة (الرابعة والخامسة والسادسة)، وما أفرزته تلك الأحداث من بنى فكرية، مع عدد من القرائن والبراهين التى تشير إلى ثورة جماهيرية شعبية حقيقة، صاحبتها حركة فكرية نشطة أفرزت للثورة تنظيرها ووضعت لها أيديولوجيتها، تلك الأيديولوجيا التى تمثلت فى ديانة جديدة، ورب جديد، يهتم بشؤون المستضعفين، ويضع أسس النظام الاجتماعى والاقتصادى والسياسى الذى طمح إليه الثوار، وقد تمثلت الأدلوجة فى ديانة الإله (أوزيريس)، وهو ما دفعنا لجمع عدد آخر من البراهين لدعم فكرة محورية، هى حداثة ذلك الإله بالنسبة للآلهة الرسمية وشبه الرسمية، وأن ظهوره وافق مقدمات تلك الثورة، مما استدعانا للرجوع إلى ما تركه العصر من تراث أدبى ينطق بما حدث، وكان على راس تلك الأدبيات (بردية ليدن).

ولا يبقى الان سوى موقفين يجب أن يثبت أحدهما صدقه الموضوعى: الأول: أن تكون الأحداث التى سجلتها البردية تصويراً حقيقياً لكارثة الخروج كما رواها الكتاب المقدس، والثانى : أن تكون تلك الاحداث تصويراً لثورة شعبية، واعية لأهدافها الطبقية، دلت

عليها – فى رأينا – روح ثورية فى أشعارها، متضمنة مطالب بالعدل الاجتماعى، والتقريب بين الطبقات، مع بعض المحافظة التقليدية الطبيعية تماماً، من شاعر حكيم، أتاحت له ظروفه الاجتماعية ذلك القدر من التعليم.

وحتى لا نفعل فعل (فليكوفسكى)، فسنقدم الوثيقة كما ترجمها المتخصصون من علماء المصريات عن الهيروغليفية، ولن نتدخل فى النص إطلاقاً ، فقط سنسقط الأبيات التى يعاد تكرارها نصياً، مع الاستعانة الأساسية بـ (سليم حسن)، مع التدخل بالاستعانة بترجمة (جاردنر) فى بعض المواضع لم نجده غير واضح أو مفهوم لتيسيره على القارئ، كذلك سنستعين بترجمة (هنرى برستد) لذات الغرض فى أحيان أخرى، وللمدقق أن يراجع وراءنا.

ويقول الحكيم (إيبور):

حقاً فإن (.. تالف)، وملأى بالعصابات، ويذهب الرجل ليحرث ومعه درعه،.. وحامل القوس أصبح مستعداً، والمجرمون فى كل مكان.

حقاً إن النيل فى وقت الفيضان، ولكن لا أحد يحرث من أجله ..

حقاً لقد أصبح المعوزون يمتلكون ـ الآن ـ أشياء جميلة، ومن كان يرقّع نعليه أصبح صاحب ثروة.

حقاً إن القلب لثائر، والوباء قد أنبث فى كل الأراضى، والدم صار فى كل مكان، ولفائف المومياوات تتكلم.

حقاً لقد أصبح الحزن يملأ أصحاب الأصل الرفيع، أما الفقراء فقد امتلأوا سروراً، وأضحت كل قرية تقول : دعونا نقصى العتاه من بيننا.

حقاً لقد أصبحت **الأرض تدور كعجلة صانع الفخار، وصار اللص صاحب ثروة ..**

حقاً لقد تحول النهر دماً فهل يشرب الإنسان منه؟

حقاً إن (... تالف) والعمد والجدران قد التهمتها النيران... حقاً **إن حجرة الملك لا تزال باقية وتقف ثابتة..**

حقاً **لقد أصبحت التماسيح متخمة بما تقتنصه بعد** أن ذهب إليها الناس عن طيب خاطر..

حقاً لقد أصبح ابن الاصل التليد مجهولاً، وأصبح ابن زوجته ابن خادمته...

ونزل اقوام من الخارج إلى أرض مصر..

حقاً إن الذهب والفضة والياقوت والكرنيليان والبرونز و المرمر (..تالف). تحلى جيد الجوارى، والنبيلات مشردات فى الشوارع، وربات الخدور. يقلن : ليت عندنا شيئاً نأكله.

حقاً فإن (..تالف) أعضاء النبيلات فى حالة يرثى لها إذ يرتدين الخرق الممزقة ..

حقاً إن صناديق الأبانوس تتكسر وخشب سسنم الثمين يقطع لصنع الأسرة..

حقاً إن (ألفنتن) و (طينة) لا تؤديان الضرائب بسبب الحروب الداخلية.. فما فائدة وجود خزانة للدولة بدون دخل؟.. هذا ماؤنا وهذه سعادتنا ولكن ما العمل؟ وكل شئ ينحدر إلى دماء .. حقاً إن الأموات أصبحوا كالاحياء .. وأصبح لا يميز بين ابن رفيع الأصل وبين من لا أب له، والجلبة لم تكن بهذه الشدة فى سنى الجلبة، ولا نهاية للضوضاء..

حقاً لقد أصبح أولاد الأمراء يضرب بهم عرض الحائط، وأطفال الشهوة يلقون على قارعة الطريق، وأصبح الإله خنوم يئن تعباً..

حقاً هؤلاء الذين يرتدون الكتان الراقى أصبحوا يضربون، واللاتى لم يسبق أن شاهدهن نور النهار قد خرجن، واللاتى كن على

أسرة أزواجهن بتن ينمن على مضاجع مقضة، وأصبحت السيدات يتألمن كالإماء...

حقاً لقد أصبحت الخادمات يوجهن ألسنتهن حيث شئن، وعندما تتكلم السيدات فإنهن يبدين الملل..

حقاً لقد أصبح الولاة بائسين جياعاً.

حقاً لقد أصبح الأحمق يقول : « لو عرفت أين الإله؟ قدمت له القرابين!. حقاً إن قلوب الماشية تبكى والقطعان تندب حال البلاد...

حقاً لقد عمت الوقاحة كل الناس.

حقاً لقد دمر ماكان بالأمس مرئياً..

حقاً لقد أصبح القوم يأكلون الحشائش ويشربون الماء.. وأصبحت القاذورات تختطف من أفواه الخنازير... وجرد الملأ من الملابس والعطر والزيت.

حقاً لقد ذبح الموظفون الرسميون وسلبت منهم سجلاتهم، ودمرت دفاتر كاتب الضرائب، وأصبحت غلال مصر مشاعاً.

حقاً لقد وضعت قوانين الحكم فى الساحات، وأخذ العوام يدوسونها بالأقدام فى الطرقات والفقراء يمزقونها فى الأزقة.

حقاً لقد وصل الفقير إلى مرتبة الآلهة التسع.. وازدحمت قاعات المحاكم العليا بالغوغاء، وأخذ الفقراء يروحون ويجيئون فى البيوت العظيمة.

حقاً لقد أصبح أولاد ولاة الأقاليم يلقون فى الشوارع...

انظر إن النار قد اشتعل لهيبها عالياً ضد أعداء البلاد.

انظر لقد حدثت أمور لم تحدث من عهد بعيد فقد **أختطف الفقراء الملك.**

انظر إن الذى دفن كصقر يرقد الأن على نعش وما أخفاه الهرم بات خاوياً..

انظر إن الناس يظهرون العداء لليورايس (ثعبان التاج الملكى، التوضيح من عندنا) حامى الدرع، الذى جعل الأرضين فى سلام..

أنظر إن الأرض ملأى بالعصابات.. والثاوين فى المقابر ألقوا على قارعة الطريق، ومن لم يكن بمقدوره الحصول على كفن أصبح يملك ثروة.. ومن لم يملك، حجرة صار يمتلك فناء مسوراً.

انظر إن كبار القضاة قد طردوا ليهيموا فى الأرض...

أنظر إن النبيلات يرقدن على الفراش الخشن.. ومن لم يكن ينام على مصطبة حجرية بات يمتلك سريراً..

انظر إن الرجل الغنى يمضى ليلة عطشان، ومن كان يتلقى فضلاته أصبح يمتلك الجعة الفاخرة..

انظر إن أولئك الذين كانوا يملكون الملابس الكتانية أصبحوا فى خرق بالية، ومن كان لا ينسج لنفسه يلبس الكتان الراقى..

انظر إن الذى ما كان يستطيع صنع قارب لنفسه أصبح يمتلك سفينة بينما صاحبها ينظر إليها بعد أن سلبت منه...

انظر إن من كان يجهل الضرب على العود أصبح يملك الهارب البديع، ومن كان لا يغنى له أحد بات تغنيه آلهة الطرب..

انظر إن من كان ينام بلا امرأة لفقره أصبح يجد الأميرات

أنظر إن الفقير أصبح يمتلك ثروة تجلب له مديح العظماء.

أنظر إن من كانوا يملكون خوى وفاضهم..

أنظر إن الأصلع الذى لا يعرف الزيت أصبح يمتلك أوانى العطور الزكية

أنظر إن التى كانت تشاهد وجهها فى الماء أصبحت تملك مرآة

أنظر إن أبناء البلاط فى ملابس ممزقة وماشيتهم منهوبة.

انظر إلى القصابين يذبحون الماشية للفقراء.

أنظر أن **القصابين يذبحون الأوز ويقدمونه للآلهة على أنه ثيران(؟!)**

أنظر أن من كانوا ينامون على أسرة ينامون اليوم على الأرض، وذاك الذى كان ينام فى الأوساخ يتدثر فى سرير.

أنظر أن من كان لا يمتلك أتباعاً أصبح صاحب عبيد، ومن كان من السادة أصبح ينفذ الأوامر. إن الفقراء يستيقظون وهم لا يخشون نور النهار، وأنها لخيام صنعوها مثل المتوحشين.

أنظر أين هو ليحاسب الناس؟.. إنه يطفئ اللهيب، يقال عنه راعى كل الناس، ولا يحمل فى قلبه شراً، وحينما تكن قليلة العدد، فإنه يصرف يومه فى جمعها إلى بعضها وقلوبها محمومة.. فأين هو اليوم؟ هل هو بالمصادفة نائم؟ إن بأسه لا يرى (تلفيات شديدة).

إن القيادة معك والفطنة وأسباب العدالة، لكنك نشرت الفوضى فى البلاد مع الفتن، الغوغاء يحدثون الضوضاء. بينما تتلى عليك الأكاذيب والبلاد كالقش الملتهب.. ليتك تذوقت بعض هذه المصائب بنفسك.. (بعد ذلك تلفيات لا تسمح بتكوين فكرة صحيحة أو جملة مفيدة)[1]. ..

---

(١) أدرجت تلك البردية فى متحف ليدن تحت إسم ورقم Leyden Papyrus, No. 344 وقد اعتمدنا هنا ترجمة د. سليم حسن : الأدب المصرى القديم، كتاب اليوم، ١٩٩٠، ج١،ص٣١٠، ٣٣٢ .

وتأسيساً على تلك المعانى، اعتمدنا بردية ليدن كوثيقة دالة على الثورة، التى بدات عملياً وفعلياً بانتشار الكفر بالآلهة الرسمية للدولة، حتى صار الرجل الاحمق يقول: إذا عرفت أين الألة قدمت له القرابين، و(الأحمق) هنا تترجم أيضاً (المنفعل، ما هو ضد الرزانة والتصرف الكيس عموماً). وبينما كان القصابون مشغولين بذبح الثيران للجوعى، كانوا يقدمون للآلهة الأوز على أنه شيران، إشارة وسخرية من آلهة لا تميز فى توزيع الأرزاق، ثم الأحداث التى تلت ذلك لإقصاء العتاة وتدمير مبانى القضاء الظالم وسجلاتها، ونهب ثروات مقابر الأغنياء والملوك، وبدا أن كل شئ ينقلب رأساً على عقب، فالأرض «تدور حول نفسها كعجلة صانع الفخار»، والشطر الثانى من البيت يشرح مباشرة «وصار اللص صاحب ثروة»، وتمكن الثوار من القبض على الملك الذى لم توضح البردية مصيره، وهو معلوم على أية حال، وانفلتت الجماهير من عقالها لتدمر بدون تمييز حتى صار نهر النيل بلون الدم لكثرة القتلى وما كانت تلتهمه التماسيح، مع إشارات نادرة ويتيمة لتسلل أغراب للدلتا، بحيث بدا الحدث هامشياً بجور الأحداث الأخرى الجسام، وهو التسلل الذى تم القضاء عليه مع استقرار ملك أسرة أهناسيا الإقليمية إبان العصر المتوسط الأول، حتى يقول أحد ملوكها (خيتى) لولده (مرى كارع) :

« لا تزعج نفسك بالآسيوى التعس، إن هو إلا آسيوى »، ثم تابع حكام الأسرة الحادية عشرة تطهير البلاد منهم، ولم يأت زمن الاسرة الثامنة عشر ونجد أى ذكر لوجود آسيوى على أرض مصر، وإن كان المعلوم أن ذلك التسلل قد تكرر لكن فى شكل غزو كبير للهكسوس جاء بعد سقوط الدولة الوسطى، ولعل إشارة (إيبور) إلى أن الفقراء إبان الثورة ، قد أقاموا لأنفسهم خياماً فى الشوارع مثل المتوحشين، إشارة ساطعة تقطع بأن هؤلاء كانوا ثواراً مصريين يأتون تصرفات تشبه المتوحشين، وهى الوصف المصرى للبدو ، أما أن تذكر البردية الإله رع والإله خنوم، ولا ذكر إطلاقاً للإله آمون، فذلك فى رأينا يشير إلى وجوب نسبة البردية للعصر المتوسط الأول وليس إلى العصر المتوسط الثانى كما يريد فليكوفسكى، حيث لم يكن آمون قد ظهر بعد، لأنه ظهر مع الملك امنمحات الأول فى الأسرة الثانية عشرة من الدولة الوسطى.

هذا ما كان عن بردية ليدن ودلالاتها، فماذا عن تلك الدلالات عند (فليكوفسكى)؟ مع الانتقاء، وملء الثغرات من عنده، لا يجد المرء نفسه إلا أمام حدث كونى عظيم « الأرض تدور حول نفسها، المدن دمرت، الكل خراب، سنوات من الضجيج »، هذا مع المقاطع التوراتية مع كل مقطع مقتطع من البردية، مع كلام من لون « إن تلك

الهزات كانت متتابعة الحدوث مرة بعد أخرى، حتى تحولت البلاد إلى أنقاض، وانهار نظام الدولة فجأة واصبحت الحياة لا تطاق، فيقول إيبور : آه لو تتوقف الأرض عن الضجيج، إن بردية إيبور تحتوى على دلالة على حدوث كارثة أرضية مصحوبة بزلزال ".

ولا يفوت المدقق هنا أن تصدير هذه الفصول بعنوان (أرض مصر فى جيشان) أو (فى ضجيج)، عمد واضح لتزييف الدلالات فى البردية، حيث عمد إلى الكلمة المصرية (هرو) التى تعنى عدداً من المعانى مثل (الركض، الثورة، أصوات الشغب والجدل والصراخ، الزمجرة، نفثات الغضب، الصراع)، ليأخذ منها فقط بمعنى زمجرة الأرض القاصرة على جيشان الزلازل، وغنى عن البيان هنا، أن أسلوب المصرى القديم فى التدوين، له سمات خاصة، وتعبيرات خاصة، ويقصد إلى دلالات يجب الاعتياد عليها مرتبطة ببلاغيات العبارة وتراكيبها، وهو اعتياد من لزوم ما يلزم للفهم السليم لتلك الدلالات، فمثلاً عندما كان المصرى القديم يقول (الأرض) نفهم فوراً أنه يقصد مصر تحديداً دون العالم أجمع، وعندما يقول (الناس) يقصد الشعب المصرى وحده دون الناس، حتى أنه فى البرديات المتأخرة وفى عصور الانحطاط كان المصرى يبدى أسفه لأن الأجانب قد

أصبحوا من (الناس)[1] ؟!، لكنه يفصل عن دلالات (الأرض) و(الناس) معنى (الحكومة)، بحيث لا تدخل المؤسسة السياسية ضمن تلك الدلالات، فالكلمة الدالة عليها تصبح (برعو) أى السور أو البيت العظيم، المأخوذ منها كلمة (فرعون)، والأمر هنا يشبه استخدام تعبير (الباب العالى) للإشارة للسلطان أو مقر الحكم العثمانى، لذلك فإن (إيبور) عندما يتمنى أن تكف الأرض عن الضجيج، **يعنى تماماً أمنية توقف أرض مصر عن الثورة وناسها عن تدمير البلاد.**

و (فليكوفسكى) الذى يريد تحقيق المطابقة التامة بين أحداث البردية وأحداث التوراة، لا يعمد إلى التأويل، لكنه يركن إلى قدرته على استخدام الأدوات الفنية فى الصياغة والتوصيل، فيمزج كلامه بكلام التوراة بكلام البردية، ويتداخل الكل وسط شوق متأجج يضع فيه القارئ الذى إن التفت إلى الأمر فى البداية، فلن يستمر منتبهاً له وسط زحمة الأحداث وتسارعها، وعندما يدرك (فليكوفسكى) التوقيت المناسب الذى يحتمل أن يكون القارئ قد بات فيه مستسلماً له، يدخل مباشرة بكل ثقله ليمرر ما قد لا يتفق إطلاقاً مع فروضه، ويربط بين ما لايمكن توافقه بين البردية والتوراة. فبينما كان حديث الدم فى

---

(١) جون ولسن : مصر، ضمن كتاب (ما قبل الفلسفة) بالمشاركة مع آخرين، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، مكتبة دار الحياة، بغداد، د.ت، ص ٤٥ ، ٤٦.

النهر لضحايا الثورة وتماسيح النيل، يصبح حديثاً عن تحويل مجرى النهر دماً، دون الإشارة إلى ثورة أو تماسيح، ويأتي بالنص « هذه مياهنا وهذه سعادتنا فماذا سنفعل؟» لتشير دون أى وجه لتشابه مع نص التوراة « مات السمك الذى فى النهر وأنتن النهر »، ولما لا يجد بالبردية نصاً واحداً يشير إلى ضربة البرد لا يجد باساً من الاستشهاد بنصوص تشير لنتائج الثورة الوخيمة، كإهمال شؤون الفلاحة والرى، من قبيل « لا فاكهة ولا محاصيل موجودة » كما يجعله أيضاً دلالة على ضربة الجراد الذى لا يوجد لها أى ذكر بالبردية، لكنه يجد صيداً ثميناً فى النيران التى اشعلها الثوار فى المبانى الحكومية ليطابقها مع التوراة « وجرت نار على أرض مصر »، لكن الفاضح فى الأمر أنه لا يزيف الدلالات فقط، بل يبلغ حد تزوير النص عندما يضيف من عنده داخل علامات تنصيص البردية « والنار التى أهلكت الأرض لم تنشرها أيد بشرية لكنها سقطت من السماء ».

وأحياناً يحمل الالفاظ فوق طاقتها، كما فى تعقيبه على نص البردية « أحقاً اختفى ما كان بالأمس مرئياً »، رغم أن المصرى لم يزل حتى اليوم يستخدم كلمة (بالأمس) للدلالة على وقائع واحداث

مرت عليها أجيال. أما انتحاب الماشية على أحوال البلاد، وهو تعبير شائع فى الكتابات المصرية، فيتحول بقدرة قادر ليلتقى مع قول التوراة : «يد الله تكون على مواشيهم التى فى الحقل، على الخيل والحمير والجمال والبقر والغنم.. سيفتك بها طاعون »، والمثير أن مصر لم تعرف فى تاريخها القديم ولا نقوشه ولا ألفاظه ما يشير إلى معرفتها بالجمل، أما الأكثر إثارة فهو أن فليكوفسكى قد فاته أ المصريين لم يعرفوا الحصان والعجلة التى تجرها الخيل إطلاقاً والقطع، قبل قدومهما مع الهكسوس الغزاة. وحسب نظريته هو، فإن بنى إسرائيل خرجوا من مصر قبل دخول الهكسوس إليها؟!.

ولأن التوراة تتحدث عن ضربة البرد، ولا يرد فى البردية، فإن (فليكوفسكى) يتقصى حتى يجد معلومة يتيمة من كتاب وضعه (أرتبانوس) عن أحداث غير معلومة المصدر، نقلها عن (إيسابيوس) يحكى فيها عن صقيع وزلازل أثناء ليلة البلاء الأخير «حتى أن أولئك الذين فروا من بيوتهم خوفاً من الزلزال قتلهم البرد »، والمعلوم أن (إيسابيوس) راوية مرتبط بروايات التوراة فى كثير من تخريجاته، أما الكتاب الأصلى الذى وضعه (ارتبانوس) ونقل عنه (إيسابيوس) فهو كتاب مجهول، ولم تُكتشف منه نسخة واحدة إلى اليوم !.

وكان معنى أن يسقط (فليكوفسكى) من اعتباراته الإشارات الكثيفة والواضحة والمتكررة إلى الثورة الطاحنة، أن يلحق الشك عمله بكامله، ولأنه أذكى من ذلك، فقد خصص فصلاً بعنوان (البكر أو المختار) ليفرغ فيه المحتوى الثورى ودلالته، ليصب فى دلالات أخرى توافق التوراة، ولأنه من جانب آخر لم يجد فى التوراة ذاتها ما يشير إلى تلك الثورة الشعبية الطبقية، فقد جعل من فصله متاهة للقارئ بعبقرية يحسد عليها، مهد له بفصل (الليلة الأخيرة)، وألحقه بملاط لاصق جيد التماسك فى فصل (تمرد وفرار). بحيث أصبحت كل نصوص البردية التى تتحدث عما لحق الأغنياء والفقراء من تحولات، ومآل إليه أبناء النبلاء من مصير بالقتل أو التشرد، إنما حديث واضح عن الضربة الأخيرة فى الليلة الأخيرة، حيث سفك الرب دم المصريين فى تلك الليلة، ولم يعد قانعاً بقمله وذبابه وبعوضه وجراده وضفادعه، فنزل تقتيلاً لكل بكر فى كل بيت، إنسان أو بهيمة، مع الأخذ بالحسبان أن تلك الضربة لم تلحق أياً من بنى إسرائيل او مواشيهم، بعد أن ميزوا بيوتهم للرب الذى هبط يتخبط كرهاً وفظاظة، والتاثت روحه برائحة الدماء، وذلك بأن قام بنو إسرائيل يرشون دماء الحيوانات على أبواب بيوتهم كعلامات للرب الهائج، كى يظن أنه قد سفك دم أهلها فيعبر عنها[1].

(١) انظر : سفر الخروج، الإصحاح الثانى عشر

ويؤكد الرجل وجهة نظره فى مقتل المختارين من مصر بنص البردية « إنهار المسكن فى لحظة »، بحيث إن الزلزال قتل سكان المنازل الفخمة، والبيت الملكى تحديداً (رغم نص البردية على سلامته)، لكن السؤال المشروع هنا هو : كيف أمكن لزلزال بهذه الشدة أن ينتقى إنتقاءين متميزين: الأول: أن يصيب المصريين ولا يصيب الإسرائيليين (ولا يمكن فى هذه الحال قبول حجة أن الإسرائيليين كانوا يسكنون بعيداً عن المصريين فى مصر، وإلا ما ميزوا بيوتهم بالدم، وما تيسر لنسائهم استعارة ذهب المصريات الساكنات معن ونزيلات بيوتهن لسلبه ليلة الخروج حسب نصيحة موسى لهن وحسب نص التوراة)[1]، أما الانتقاء الثانى غير المفهوم، فهو **كيف أمكن زلزال أن ينتقى أغنياء مصر ويميز أمراءها ويصيبهم دون الفقراء؟** إن الكارثة الوحيدة والوباء الوحيد الذى يمكن أن يفرز هذا الفرز هو ثورة طبقية واعية، وهو ما يفسر لنا بقاء المعابد الضخمة والأهرام وغيرها من آثار سبق بناؤها العصر الذى نحن بصدده، ولم يشر إليه (فليكوفسكى) إزاء زلزاله العظيم.

ويلاحظ القارئ هنا أن كاتبنا ـ وهو بسبيل التغلب على العقبة الكأداء بالبردية، وما تحمله من أحداث تشير إلى ثورة الجماهير

---

(١) انظر : سفر الخروج : الإصحاح ٣ : ١٨-٢٢.

المصرية ضد طغيان النبلاء والملك ـ يروح ويجئ قبل إلقـاء مـا فـى جعبته فيقلب أكثر من حقيقة رأساً على عقب. فهو يحول الحديث عـن السجن الذى حطمه الثوار لإطلاق المعتقلين، إلى حديـث آخـر يقـول: «لقد حـرك مشـهد أبنـاء الأمـراء المسحوقين علــى أرض الشـوارع الصخرية المظلمة (لا توجد فى مصـر شـوارع صخريـة بالمناسبة)، والجرحـى والموتـى بيـن الأنقـاض، حـرك لوعـة وأسـى الشـاهد المصرى، ولم ير أحد ما حدث فـى أقبية السـجن، تلـك الأقبيـة التـى حفرت تحت الأرض وأغلقت أبوابها على السجناء (الرجل هنا يصـور لنا مصر كما لو كانت أوروبا العصور الوسطى)، ولم ير أحد العذاب الذى تعرضوا لـه حين انهـارت تلـك الأقبيـة فـوق رؤوسـهم ودفنتهـم أحياء تحت الارض »، وكل ذلك جاء فيمـا يـرى فـى العبـارة اليتيمـة، التى بحثنا عنها عبثاً، وتقول « السجن حطام »، وأبداً لم نجدها .

أما كفر الناس بالآلهة الرسمية وتطاولهم عليها، فهو مـا يشـير إلى قول التوراة «وأصنع أحكاماً بكل آلهة المصريين »، ونبـش قبـول الموتى الأثرياء أصبـح عنـده «ولـم تكـن الأرض أكـثر رحمـة بجـثـث الموتـى فـى قبورهـم، فالمقـابر لفظـت موتاهـا وتمزقـت الاكفـان » أم الدليل فمن الهجادا التى كتبت بعد ذلك بما يصل إلى ألفى عام.

كل هذا وورطـة الأحداث الثوريـة قائمـة، لكن الآن قد خفت حدتها في ذهن القـارئ، ويسـهل عندئذ أن يسوق تخريجه الضعيف المتكلف والمبتسر، فى كون إصرار البردية على تعرض أبناء الأمراء والحكام فقط للقتل والتشريد، هو موافقة تامة للتوراة، التى قررت قتل الرب لأبكار المصريين. والأبكار فى تفسيره ليست سوى أبناء النخبة والطبقة البكر المصطفاة، ولأنه لا يمكن ـ عقلاً ـ قبول أن يكون يهوه قد أمضى ليلته يمارس نزوته الشاذة فى قتل أطفال الأغنياء، فلم يبق أمام (فليكوفسكى) سوى مزج فكرة الثورة ـ التى يعترف بها بسرعة وبألفاظ غير حاسمة ـ بإرادة الرب (يهوه) ـ وينتهى إلى أن ربه انتقم من المصريين بقتل المختارين المميزين من النبلاء والمترفين. ثم يردف فوراً بما يشعر القارئ بمدى موضوعيته ونزاهته فيقول: «وبرغم أن البردية المهترئة **لم تحتو على أى ذكر للإسرائيليين صراحة أو تلميحاً، ولم تشر إلى أى من قادتهم (؟!)**، فإن ثلاثاً من الحقائق ظهرت بوضوح تام كنتيجة للكارثة، أو مجموعة الكوارث المتتالية، وهي : تمرد السكان، فرار البؤساء والمساكين المسخرين للعبودية، واختفاء الملك فى ظروف غامضة، وبالرغم من التطابق الوصفي للكوارث بين ما ذكرته البردية، وما سردته أحداث الكتاب المقدس، فإننى ان حاولت أن أستخرج من البردية أكثر من الحقائق، فقد أعرض نفسى للريب والظنون، بمحاولة

استغلال الحالة السيئة التي وجدت عليها البردية، لإثبات نتائج مسبقة بتضمينها مالم تتضمنه، لكن الإشارة للكارثة، والجماهير التي تمردت وفرت ليست غامضة، ومعناها واضح وليس فيها أي مجال للبس أو غموض.. وهي زلازل متتابعة صاحبت ظواهر طبيعية أخرى اجتاحت أرض مصر، صاحبها أكثر من بلاء سبب هلاك الإنسان والحيوان والنبات، واتلاف كل مصادر المياة ».

والرجل هنا، وهو يلبس ثوب العالم النزيه والأمين، يقوم بأكثر من تلفيق، وأكثر من تزوير لدلالات الوثيقة، فإذا كان السكان قد تمردوا فهذه حقيقة، وأن يكون المعتلقون قد فروا من الحبس فهي حقيقة أخرى، لكنها لا تشير بالمرة إلى فرار بني إسرائيل من عبودية مصر إلى فلسطين، أما ما يسميه إختفاء الملك في ظروف غامضة، فهو إشارة ذات تخابث واضح على عقل القارئ، وتذهب به فوراً إلى فكرة الغرق في البحر.

أما أن يطابق بين النص البردي « انظروا أن النار قد اشتعل لهيبها عالياً ضد أعداء البلاد » وترجمها هو « أمام أعداء البلاد »، وبين نص التوراة « وكان الرب يسير أمامهم نهاراً في عمود سحاب ليهديهم في الطريق، وليلاً في عمود نار ليضئ لهم » فهو افتئات

واضح على اللفظة المصرية التى تفيد معنى (مقابل) والتى ترجمها (سليم حسن) بمعنى (ضد)، والتى تحمل ضمنياً معنى أن لهيب الثورة كان إشارة للبدو بتجاوز حدود مصر وهى فى حالتها المتردية، وهو ما توضحه البردية دون لبس فى قولها ـ حسب ترجمته هو ـ « ماذا حدث؟ لقد علم الآسيويون بحال البلاد ».

وعن قول (إيبور) فى النص الفليكوفسكى « إن ذلك لم يحدث لأى فرعون آخر قط » فهو ليس إشارة لغرق جلالته إنما لخطف الفقراء لجلالته، وربما محاكمة جلالته، وربما إعدام جلالته.

إننا نقرر مع التاريخ التقليدى، الذى لم يعجب (فليكوفسكى)، والذى لم يذكر بنى إسرائيل بالمرة إلا فى نص مرنبتاح المعروف، **أن البدو الذين تسللوا إلى البلاد إثر الثورة، فى العصر المتوسط كانوا شيئاً يختلف تماماً عن غزو الهكسوس الذى دخل بجحافله فى العصر المتوسط الثانى**، وأن الغزو الأول كان تسللاً غير ذى بال و« لا تزعج به نفسك، إن هو إلا آسيوى » وإن أصحاب الغزو الاول أطلق عليهم اللسان المصرى « العاموحريشع » أى البدو فوق الرمال، أما الغزو الثانى فكان باللسان المصرى « حقاو ـ خاسوت » التى

نطقت عند (مانيتون) « هكسوس »، ولم يخلط التاريخ فى وثائقه بينهما ولا مرة واحدة.

٢ ـ تزييف دلالات حجر العريش :

من سيهتم ـ حقاً ـ بالبحث وراء رجل بهذا القدر من الأجتراء؟ أو من سيشك أصلاً فى قرائن تركب بعضها فوق ذهن قارئ أسلم قياده لمفكر يبدو بهذا القدر من النزاهة؟ وعليه من سيهتم مع الصدمة النفسية والوجدانية بالبحث والاهتمام؟ أو من سيجد نفعاً يرجى بمراجعة نصوص قديمة بعد الصدمة العقلية لكل ما تعارف عليه التاريخ والمؤرخون؟ أو من سيجد فى ذاته بواعث تدفعه للسعى وراء نص لا تجد له ذكراً فى أغلب المصنفات التى تناولت مصر القديمة؟ وربما كان على الباحث المصرى على التأكد أن يذهب بنفسه إلى متحف الإسماعيلية ليستفسر عن (حجر العريش) ومصيره، وعن ترجمته الصادقة، وربما عاد بعد ذلك يائساً من كل شئ، بعد كم اللامبالاة والاستهانة والاستخفاف التى سيلقاها من مؤسقد جاء مدونا على حجر العريش ساتنا العتيدة.

فما هو حجر العريش؟

لقد حكى لنا (فليكوفسكى) قصة العثور عليه بكثير من الصدق، ثم حكى لنا القصة المدونة عليه بما هو أكثر من الإفك، فحمّل النص

فوق ما يحتمل، وأنطقه بدلالات لم يقصد إليها ولا خطرت ببال الرجل الذى قضى ينقره بالإزميل زمناً. فالنص عند (فليكوفسكى) يحكى بلسان مبين عن بلوى عظيمة تعرضت لها مصر القديمة، من عواصف، وجيشان للأرض، ودمار، مما حدا بالفرعون المدعو (توم) ـ والذى أكد كونه كان ملكاً أن اسمه قد جاء مدونا على حجر العريش فى خرطوش ملكى ـ إلى جمع جيوشه، ووعد جنوده فى ظل الظلام الذى حل بالبلاد، أنهم سيرون النور من جديد بقول «سنرى أبانا رع حر أختى فى منطقة باخيت المضيئة»، و(رع) هو إله الشمس المصرى كما هو معلوم، هذا بينما الملك قد أضمر غرضاً آخر، فقد «ذهب صاحب الجلالة لمحاربة أبوبى وزمرته»، لكن النتيجة كانت وخيمة على الفرغون وجنده، لأنه «حين قاتل جلالة الملك رع حرماكيس (نظراً للتضارب بين حر أختى، وبين حرماكيس، يضع فليكوفسكى هنا علامة استفهام وعلامة تعجب)، حيث قاتل إله الشر بالقرب من البحر مكان الدوامة، فإن إله الشر لم يتغلب على جلالته، **ولكن جلالته هو الذى اندفع إلى دوامات البحر**».

وإذا كانت المنطقة المضيئة اسمها (باخيت) فإن (فليكوفسكى) بعد صفحتين، وبعد مرور كثير من الأسماء الغريبة الكفيلة بنسيان

الاسم الأصلى، يعود لذات النص ولكن الكلمة تصبح هذه المرة (بى خاروتى)، وذلك كى تلتقى مع كلمة (بى هحيروث) العبرية، التى تشير للموقع الذى توقف فيه الإسرائيليون قبل عبور البحر مباشرة والمترجمة فى التوراة العربية إلى (فم الحيروث)، ولأن (باخيت) بعيدة فيلولوجيا عن (بى هحيروث) فإنه يضع بينهما متوسطاً مزوراً لم يرد بحجر العريش هو (بى ـ خاروتى).

ونستمر مع (فليكوفسكى) : «خرج ابن الفرعون صاحب السمو جب ليبحث عن أبيه، وقد أخبره شهود العيان بكل ما حدث لرع فى بات نيبيس .. والصراع الذى خاضه الملك توم »، ولا شك ان المدقق سيتوه هنا وهو يحاول معرفة اسم ذاك الذى خاض الصراع وغرق فى دومات البحر، هل هو ملك باسم (رع) أم باسم (توم)، لكنه يعلمنا بعد ذلك أن أبناء (أبوبى) قد غزوا البلاد ليحطموها، وسلبوا الإبن (جب) عرشه، بينما اعتزل هو فى مسكن ناء، ربما كان منفى اختيارياً أو إجبارياً.

وبينما يهمل (فليكوفسكى) الاسم (رع) تماماً كما لو كان غير موجود، وركز على (توم)، لأنه الاسم الذى سيلتقى مع الاسم الوارد فى التوراة، للمدينة التى استعبد الإسرائيليون فى بنائها لفرعون الخروج، واسمها (فيثوم)، ويمكن نطقها (فيتوم) و (بى توم)، وفى

هذه الحالة يصبح معناها (منزل توم). ولا ينسى أن يربط ببراعة، بين إشارة (مانيتون) ــ الذى سبق أن هاجمه وسفه آراءه وتاريخه لكنه احتاجه الآن ـ إلى فرعون الخروج باسم (توتيماوس)، ويرى أن الاسم يحوى فى تركيبه شقاً هو (توم).

لكن أى مهتم بالتاريخ الديني لمصر القديمة، سيعرف كم كان (فليكوفسكى) ملفقاً؟ وكم كان بارعاً؟ لأن القصة المنقوشة على حجر العريش ليست سوى ترديد لأسطورة دينية قديمة، اعتقد فيها المصرى منذ فجر التاريخ، وأن الأسطورة قد صيغت فى أسلوب التعاويذ السحرية، التى يتم ترديدها فى زمن محدد، لدرء خطر عظيم سيلحق بإله الشمس المصرى، وبالتالى بمصر جميعاً. وكان إلـه الشمس ذاك يحمل الاسم المركب (رع أتوم) او (أتوم رع). ومنذ استقرار الإنسان فى الوادى، أدرك أهمية الشمس فى تجفيف التربة والمستنقعات، وفى نضوج النباتات، لذلك حظيت بأهمية بلغت بالشمس سمت السيادة بين الآلهة، وبحيث أصبحت الرب الرسمى للدولة، وقد ارتبطت الشمس بعناصر أخرى لازمة لحياة الإنسان و النبات، هى حسب أهميتها : الهواء، والرطوبة أو الندى، والتربة أو الأرض، والسماء التى هى مقر (رع آتوم). وفى واحدة من الصياغات الدينية لمدينة (أون) المقدسة، نجد إله الشمس يخلق من ذاته بالاستمناء ـ إيغالا فى توحيده وحتى لا تكون له شريكة ـ إلهاً ذكراً هو (شو) إله الهواء، وإلهة أنثى هى (تفنوت) إلهة الندى أو الرطوبة. ويتزوج (شو) و (تفنوت) لينجبا

إله الارض (جب) الذى يحتسب وفق تلك الصياغة حفيداً لـرع آتوم، وابناً لـ (شو) و (تفنوت)، بينما فى صياغة أخرى يأتى (جب) كأب لإله الشمس (رع).

ولأن أهم وسيلة نقل للمصريين هى الإبحار فى النيل، فقد تصوروا أن هناك نيلاً آخر فى السماء، هو الذى يؤدى إلى سقوط الأمطار أحياناً [1]، وأن دورة الشمس اليومية تتم بإبحار (رع) فى النيل السماوى، فى مركب اسموه (مركب الشمس)، تجوب به السماء من الشرق إلى الغرب نهاراً، لتنتقل إلى زورق آخر مع الغروب لتعبر به سماء سفلى أثناء الليل من الغرب إلى الشرق، وهكذا دواليك. أما تلك اللحظة التى يتم فيها الانتقال فكانت أخطر اللحظات إطلاقاً، حيث كانت غالباً ما تدور حرب هائلة ودموية يظهر أثرها فى لون الغسق النارى وفى لون الشفق، فالرحلة الإلهية لم تكن تتم دوماً فى بهاء وسلام، لأن هناك إلهاً للشر هو الأفعى الضخمة الإفعوانية (أبو فيس) وجنوده، يكمن فى لحظة الظلام ليداهم زورق الشمس ويبتلع إله النور، لذلك كان يحرس الإله فى مركبه بحارة وجنود وحاشية عظيمة، تخوض معارك شرسة ضد إله الظلام والشر (أبو فيس)[2]، حتى لا تسمح له بابتلاع الشمس الذى يعنى خراب

(١) جون ولسن : ما قبل الفلسفة .. سبق ذكره، ص ٦٣.

(٢) المصدر السابق : ص ٦٣.

الزرع والضرع، وتحول البلاد إلى بادية جرداء، لذلك الحق المصريون باسم (أبو فيس) العلامة الهيروغليفية الدالة على الصحراء والجدب، وهى ذات العلامة المستخدمة لكل ما يمت للصحراء والشر والجفاف بصلة.

ومن هنا لا بد من وجود جيوش الخير بصحبة (آتوم رع) لقهر التنين (أبو فيس) وجنوده، وهو اعتقاد مرده إلى اعتقاد آخر شاع فى أقطار الشرق القديم ـ ولم يزل ـ وهو أن كسوف الشمس أو خسوف القمر، ناجم عن ابتلاع ثعبان ضخم أو شيطان أو مجموعة من الجن للجرم السماوى. وما زال الأهلون فى قرانا يخرجون بالطبول والعصى والسيوف فى جماعات منظمة تمثل جنود الخير تهلل وتكبر لمساعدة الجرم عند ظهور حالة الخسوف، لتخويف الثعبان ليطلق الجرم السماوى. ومن هذا اعتقد المصرى القديم فى تعرض (آتوم رع) أحياناً، بل وفى أى وقت، للالتهام أثناء إبحارة فى دوامات النيل السماوى، لذلك وضعوا تلك الترتيلة السحرية المعوذة لمساعدة إله الشمس على الهروب من (أبو فيس) والإبحار السريع فى مياه السماوات العظيمة، حيث لا يتمكن (أبو فيس) من اللحاق به أمام جحافل جيش الخير التى تعطله دوماً عن غايته الشريرة. وقد صيغت ترتيلة (فشل التنين) عدة صياغات متواترة فى نقوش متعددة فى مواضع مختلفة بالوادى، وليس على حجر العريش وحده، وتستخدم

التعويذة خاصة عند الغروب حيث تختفى الشمس فى الظلام وتكون أكثر تعرضاً للابتلاع، وربما لا تعود للظهور فى اليوم التالى، وإن الشمس ما كانت تتأخر فى الظهور شتاء (هو فصل الجدب) إلا لأنها كانت تخوض حرباً مريرة مع جيشها كل ليلة ضد الشيطان (أبو فيس)، الذى لا يستقوى إلا فى فصول الجدب الباردة.

ومطلع النص معنون بـ «فاتحة قهر أبو فيس عدو رع وعدو الملك أون نفر (اصطلاح ملكى يشير ملكى يشير لأى فرعون بمعنى له الحياة)، له الحياة والفلاح والصحة .. كتاب معرفة الخلق لرع وقهر (أبو فيس)، الكلام الذى يتلى » ، ثم يبدأ المقطع الأول بترديد عظمة آتوم رع باعتبار الخالق «قال إله الجميع بعد أن جاء إلى الوجود .. (هنا حديث طويل عن خلقه للآلهة من أبنائه وأحفاده ومنهم (جب رب الأرض).. **أمرتهم بإبادة أعدائى بواسطة السحر الفعال** لحديثهم، وأخرجت هؤلاء الذين جاؤوا إلى الوجود من جسمى أن تصب عليه لعنة.. **ينتصر رع عليك.. هكذا تكون فى مركبك**، ستعبر السماءين فى سلام ...الخ » [1].

---

(١) بريتشارد (جيمس): نصوص الشرق الأدنى القديم المتعلقة بالعهد القديم، ترجمة وتعليق: د. عبد الحميد زايد، نشر هيئة الآثار المصرية، القاهرة ١٩٨٧، ص٤١، ٤٣.

وهكذا يهمل (فليكوفسكى) اسم (رع) تماماً من النص، ويفصل عنه (آتوم)، ويحذف الهمزة ليصبح (توم) حتى يلتقى باسم الموضع التوراتى للخروج (بى توم). ثم تصبح المعركة ضد ظلام الكسوف، معركة الفرعون (توم) الملك الهكسوسى (أبوب) عند موضع عبور بنى إسرائيل الميامين (بى حيروث)، ويتحول إسراع (آتوم رع) بالهرب من أبو فيس (حيث كانت مهمته الهرب دوماً والحفاظ على ذاته بينما يحارب جنوده عنه ليهرب) إلى خضم الماء السماوى، يتحول إلى فرعون يندفع من جيشه إلى دوامات البحر (وعليه نفهم أنه غرق رغم أن القصة ليس فيها أى غرق)، وبكل براعة يطابق بين اسم التنين (أبو فيس) اسم الملك الهكسوسى (أبوب) مع استثمار عدم معرفة القارئ غير المتخصص لمعنى (خرطوش)، فيشير إلى أن وجود اسم (توم) محفوراً على خرطوش يشير إلى كونه كان ملكاً لأنها الصيغة المصرية المتبعة لكتابة أسماء الملوك. بينما المعلوم لدى أى مهتم بالمصريات أن الخرطوش كان لتدوين اسماء الآلهة، فى المقام الأول، ثم لتدوين أسماء الملوك المؤلهين، أو الحاكمين بحق النسل الإلهى فى المقام الثانى. لذلك كان طبيعياً أن ينقش أسم (رع آتوم) داخل خرطوش، أما اسم حالة ما بين النور والظلام المضيئة بين ذهاب النهار الذى أظلم، وبين قدوم ظلمة الليل، فيتحول من التسمية (باخيت) التى تدل على الخوف من الظلام وماقد يحيق برب الشمس، ولم يزل يقولها المصرى اليوم تخويفا (بخ)، تتحول إلى (بى حيروث).

ثم إن (فليكوفسكى) يضع علامة استفهام وعلامة تعجب من تلقيب (رع) مرة بلقب (حر أختى) ومرة بلقب (حرماكيس)، وهو ما يشير إلى أنه يوحى لقارئه، أنه قد لمس خطأ فى النص ربما يرجع لجهل من كاتبه. لكن معنا ربما انصرف الذهن الآن إلى جهل فى (فليكوفسكى) ذاته. لكن الرجل حتى الآن أثبت براعة تجعلنا ننأى به عن صفة الجهل، لكنها لا تنأى به عن العمد إلى التزوير، لأن (حر أختى) هو اسم الشمس أو لقبها فى حالة الشروق، أما (حرماكيس) فهو عندما تكون فى حالة الغروب ويمثلها أبو الهول، واللقب الحورى لإله الشمس (رع آتوم) يشبه الشمس بالحر أو (حور) الصقر، إنها تطير كالصقر، إضافة لما يحمله لفظ (حر) من معنى الحرارة.

و (فليكوفسكى) وهو يقوم بهذه التلفيقة الكبرى، يعمد إلى ترجمة (نتر) ومرادفاتها بالقصة إلى ملك، وهى إن صلحت للدلالتين إله وملك، فإنها تستعمل عادة للإشارة للآلهة، أما (جب) إله الأرض، وحفيد (رع آتوم) فيصبح عند (فليكوفسكى) الأمير الملكى الذى فقد عرشه بعد غرق أبيه بمعجزة البحر المفلوق بالعصا السحرية، ولأن حجر العريش فيما يبدو كان تسجيلاً لحالة هامة من حالات الكسوف، فقد قام جب بالدور المطلوب منه حسب نص التعويذة والذى من أجله وجد أصلاً هو وأشقاؤه من آلهة، فخلقهم كان بغرض حماية (رع آتوم) من (أبو فيس).

لكن من المهم هنا أن نسجل للعالم البارع (فليكوفسكى) سقطة لا تليق به، فالسرد هنا جميعه يتناول حرباً خاضها الفرعون - حسبما يقول - ضد الملك الهكسوسى (أبو فيس)، إذن لم تكن مطاردة ضد الإسرائيليين - حتى لو أخذنا بتزويره -، وحتى يلتقى النص مع الزمن الذى حدده لدخول الهكسوس، وهو ذات الوقت الذى خرج فيه بنو إسرائيل، فلا بد أن يكون الملك الهكسوسى ليس (أبو فيس)، إنما يجب أن يكون (سالاتيس) أول ملوك الهكسوس على مصر، لأن (أبو فيس) الأول وليس الثانى أو (أبوب الأول) هو الملك الرابع من ملوك الهكسوس الفعليين على مصر، وليس ملك الغزو، ولو ذهبنا إلى كونه ربما كان (أبو فيس) أو (أبوب الثانى)، فإن ذلك يعنى أن تلك الحرب قد حدثت فى آخر عصر الهكسوس، وهو ما يبعد أربعة قرون عن عصر خروج بنى إسرائيل حسب تاريخه هو وتزمينه للأحداث.

الحقيقة أن الرجل رغم براعته، ورغم أنه أمتعنا فعلاً بأكبر عملية تزوير وتلفيق، فإنه كبا حتى الآن أكثر من كبوة، أما هذه فكانت سقطة شديدة.

٣ - تزييف دلالات بردية الارميتاج :

إكتشف بردية الأرميتاج المصرولوجى (جولنشيف)، وقام بترجمتها ودرسها وتحقيقها وتحليلها كل من (بيت وبرستد وإرمان

وجن وجاردينر)، وهي محفوظة الآن بمتحف (لينجراد)، وتحوى نبوءات الكاهن المرتل (نفررحو). وتدعى البردية أنها أُلقيت في حضرة الفرعون (سنفرو) أحد أوائل ملوك الأسرة الرابعة من الدولة القديمة. وفي رأينا أنه قد دخلها على حالتها التي وصلتنا أكثر من خدعة: الأولى في كونها تحكي عن أحداث تخص عصراً، وكتبت في عصر آخر ونسبت إليه، وقد ذهبنا في كتاب (أوزيريس..) **إنها كتبت في عصر الثورة في العصر المتوسط الأول، وأعطيت قيمة تقليدية ـ حيث القديم يكتسى القداسة والتبجيل - بنسبتها إلى عصر موغل في القدم، عصر (سنفرو) قبل عصر الثورة بقرون طوال.**

أما الخدعة الثانية فهي في نسبتها لعصر موغل في القدم قبل الأحداث التي تروج لها بالفعل، مما يكسبها قدرة أعظم على التنبؤ.

والخدعة الثالثة التي ربما جازت على كثير من الباحثين، فهي أنها استُثمرت مرة ثالثة في عصر يخالف العصرين السابقين : عصر (سنفرو) وعصر الثورة، بأن أضيف إلى متنها الأصلي نصاً إضافياً ألحُق بآخرها، وهو النص الذي ـ بعد سرد أحداث الصراع الاجتماعي، وتسلل الآسيويين إلى البلاد ـ يضيف نبوءة بملك منقذ يأتي ويخلص البلاد من كبوتها، أشارت إليه باسمه المختصر (آميني)، وذهب المؤرخون إلى أنه هو (أمنمحات الأول) مؤسس

الأسرة الثانية عشرة من الدولة الوسطى، مما حدا بهم إلى تزمينها **بإثبات تاريخها فى عصر ذلك الفرعون، وأنها كتبت فى عهده ثم نسيت إلى أيام** (سنفرو)، **كى تتحول إلى لون من ألوان الدعاية لأمنمحات كملك عادل منقذ**، وهو ما نوافق عليه تماماً، لكنا سقنا فى المقابل عدداً من القرائن التى تشير إلى **أن الجزء الأخير الذى يتنبأ بالملك المنقذ** (آمينى) **هو فقط الذى تصح نسبته لعصر** (أمنمحات)، وأنه أضيف بالفعل أيامه أو قبل صعوده سدة العرض بزمن يسير، وكان معلوماً باليقين للكاتب الذى اضاف تلك النبوءة أن (أمنمحات) لابد سيصبح ملكاً للبلاد، أما بقية متن الوثيقة فكان بالفعل يسبق عصر (أمنمحات) بزمان، **وأن ذلك الأصل قد تم تدوينه زمن الثورة، وبالتحديد أيام فوضى العصر المتوسط الأول**، وهكذا اصبحت الوثيقة تبدو بكاملها كرؤية تنبؤية بقدوم (أمنمحات).

أما السر فى عدم اليقين من التأريخ الصادق لزمن الأحداث الواردة بها، أنها لم تدون بالفعل على النسخة التى وصلتنا إلا فى عهد الدولة الحديثة، من قبل كاتب عاش فى القرن ١٥٠٠ق.م، حيث ظهرت له أهمية النص الأصلى الذى بدا موشكاً على التلف، فقرر نسخة والاحتفاظ به، ولما لم يجد بردية خالية عنده قام بنسخها على ظهر بردية كان يستخدمها لإجراء حساباته الخاصة، وبذلك وصلتنا نبوءة (نفررحو) بالصدفة البحتة، بما تحويه من غموض ومن أغلاط

كثيرة حدثت نتيجة النسخ عن نص قديم يختلف فى أسلوبه عن أسلوب عصر الناسخ.

وترجع أهمية الوثيقة لكونها ـ في رأينا ـ **دونت لأول مرة فى عصر الثورة بالعصر المتوسط الأول**، لكنها بعكس (إيبور) الذى ركز أهتمامه على أحداث الثورة، فإنها **ركزت أهتمامها على تسلل الآسيويين للبلاد**، فألقت الضوء على ما أهمله (إيبور) وساقه فى شذرات لا تعطى تفصيلاً عن ذلك التسلل بشكل واف، وهنا يجدر بنا أن نضيف أنه ليست فقط مؤخرة البردية هى التى أضيفت إليها فى عهد (أمنمحات)، بل إن بالمدخل شواهد واضحة على كونها بدورها تمت إضافتها فى عهد (أمنمحات).

الوثيقة تبدأ بالملك (سنفرو) جالساً وسط حاشيته : "وقال لهم جلالته: يا إخوتى لقد أمرت بطلبكم لتبحثوا لى .. عن أى شخص يتحدث بكلام جميل وألفاظ منتقاة، عندما أسمعها أجد فيها تسلية، عندئذ سجدوا.. وقالوا .. يوجد مرتل عظيم للإلهة باست يا أيها الملك، اسمه نفررحو، وهو **رجل شعبى قوى الساعد** وكاتب حاذق الأنامل... فقال جلالته : اذهبوا وأئتونى به.. فقال المرتل نفررحو: هل تريد كلماتى عما حدث أو ما سيحدث يا مولاى الملك؟ فقال جلالته: لا، مما سيحدث، لأن الحاضر قد أتى إلى الوجود يمر بنا، ثم

مد يده إلى صندوق مواد الكتابة، وأخذ قلماً وقرطاساً ومداداً وكتب: كتابة ما تحدث به الرائى نفررحو. ابن مقاطعة عين شمس، حينما كان يفكر فيما سيحدث فى الأرض، ويفكر فى حالة الشرق حينما أتى الآسيويون بقوتهم "، (ولنلحظ أن نفررحو من عين شمس بالدلتا، مما يجعله أقرب إلى معايشة أحداث التسلل البدوى بل وكان في مركز هذا التسلسل في بوبسطة معبد الربة القطة باستت)، ويقول نص كلام (نفررحو):

فؤادى، لطالما تألمت من أجل تلك الأرض التى نشأت فيها

وقد أصبح الصمت نقيصة

وثمة أمور يتحدث القوم عنها...

وقد ولى زمان الرجل الكفء..

فمن أين تبدأ؟..

لا تراع فؤادى

فالأمر واضح أمامك وعليك أن تقاومه

لقد أصبح حكام البلاد يأتون أموراً ما كان ينبغى حدوثها

وخربت الأرض وليس من يأسى عليها

..يتحدث الجميع عن الحب ... لكن الخير اختفى

تناقصت الأرض لكن الموظفين تزايدوا

جفت الأرض لكن الضرائب تضخمت

قلت المحاصيل لكن المكيال اتسع

واقتحم القبليون أرض مصر

وما من مدافع ليسمع أو يجيب تباعد (رع) عن الناس

وأصبح الكليل صاحب سلاح

وصار القوم يبجلون من كان يبجلهم..

لكن سيأتى ملك من الجنوب اسمه آمينى

ابن سيدة من تاستى

طفل خن نخن

سوف يتسلم التاج الأبيض

ويلبس التاج الأحمر

والناس فى زمنه سيكونون سعداء

إن ابن أحدهم (أو ابن الإنسان) (*)

سيخلد اسمه إلى أبد الآبدين (١)

أما الذين تآمروا على الشر ودبروا الفتنة

فقد أخرسوا أفواههم خوفاً منه

والآسيويون سيقتلون بسيفه

واللوبيين سيحرقون بلهيبه

والثوار سيستسلمون لنصائحه

والعصاة لبطشه

سيخضع المتمردون للصل الذى على جبينه

وسيقيم أسوار الحاكم

حتى لا يتمكن الآسيويون من غزو مصر

وسيستجدون الماء حسب طريقتهم المعروفة

(*) هذا التعبير يعنى ما يعنيه ذات التعبير في الدراجة المصرية الآن (ابن ناس)، وهو تعبير لا يشترط الأصل الثرى بقدر ما يقصد الأصل والمنبت الطيب.

(١) عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٦٧، ج١، ص ٣٦٥.

حتى ترده أنعامهم

وستعود العدالة إلى مكانها

وينفى الظلم من الأرض

فليبتهج من سيراها

ومن سيكون من نصيبه التعاون مع ذلك الآتى[1].

هذا، وكنا قد ذهبنا فى كتابنا (أوزيريس..) إلى أن تولى (أمنمحات الأول) عرش مصر، يوحى أن تلك الولاية كانت قمة أغراض العمل الثورى، استنادا إلى شواهد أهمها:

ـ أن (أمنمحات) لم يكن من سلاسلة ملكية، ولا حتى من أبناء النبلاء، بل كان رجلاً من سواد الشعب، وإن كان طيب المنبت، أثبت صلاحيات عسكرية وحربية أوصلته إلى وزارة الحرب، ويعلمنا (سليم حسن) مستفيداً من (جاردنر) أن تعبير (ابن أحدهم)

---

(١) استندنا هنا إلى ترجمة د/ سليم حسن (سبق ذكره ج١، من ص ٣٣٣ : ٣٣٩) والتعديلات التى أدخلناها على الترجمة هنا مستندة إلى:

- Gardiner, the jomal of Ehgption Archaeology, voll, pp.100ff.
- Gunn, vol x ll, 1926, pp. 250ff.

أو (ابن الإنسان) تعبير متواتر يشير إلى شخص من نسل غير ملكى أو نبيل، وإن كان ابن أسرة طيبة[1].

ويقول (جيمس برستد) صراحة، " إن أمنمحات قد اغتصب الملك قهراً "[2]، ويذهب معه آخرون إلى أنه كان وزيراً قوياً فى عهد (منتوحتب الرابع) آخر ملوك الأسرة الحادية عشر، واستطاع - أثناء وزارته - أن يركز بيديه سلطات كبيرة، وأن يشرف إشرافاً فعلياً على شؤون الدولة، وانتهز وفاة مليكه فوثب على العرش[3]، هذا ناهيك عن الاتفاق شبه الكامل على أنه هو ذاته (آمنحتب سحتب أب رع) رئيس الجند فى عهد (منتوحتب الرابع)، وأنه استغل رياسة الجند للإطاحة بمليكه والقضاء على شأفة أسرته، وقد أكد (برستد) وهو مصر ولوجى ثقة أنه هو ذاته (آمنمحات سحتب أب رع) صاحب آخر حملة مشهورة تم تجريدها لتطهير البلاد تماماً من بقايا الآسيويين، وذلك قبل قيام الأسرة الثانية عشرة بزعامته بزمان يسير[4].

---

(١) سليم حسن : سبق ذكره، ج١، ص٣٣٨.

(٢) جيمس هنرى برستد: كتاب تاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى الفتح الفارسى، ترجمة د. حسن كمال. وزارة المعارف المصرية، ط١، القاهرة، ١٩٧٩، ص٩.

(٣) محمد العزب موسى : أو ثورة على الإقطاع، دار الهلال، القاهرة ، ١٩٦٦، ص٩٩.

(٤) برستد كتاب تاريخ .. سبق ذكره ، ص٩.

ـ والشاهد الثانى هو أن قائد الجند (أمن محات) ينتمى باسمه الذى يعنى (آمن فى الطليعة) إلى إله كان مغموراً حتى ذلك الحين هو (آمن)، مما يشير إلى اتباعه عقيدة تخالف عقيدة سادته، المناتحة التابعين للإله (منتو) إله أرمنت، وهو أمر غريب مع وزير فى حكومة فرعونية، ومنذ تولى (آمنمحات) الحكم يرتفع شأن (آمن) حتى يصبح أهم الآلهة على الإطلاق حتى نهاية العصور الفرعونية. والخطير فى رأينا هو أن (آمون أو آمن) كان فى العقيدة الشعبية هو " .. روح أوزيريس "[1] ذلك الإله الذى احتسبناه أدلوجة الثورة.

ـ والشاهد الثالث هو أن (أمنمحات) اعتبر فى نظر رجال الفكر المصرى القديم ـ كما عند (نفررحو) ـ المخَلِّص المنتظر، إضافة إلى كونه الرجل الذى وجه همه إلى كسر شوكة النبلاء الذين بقوا من العصور القديمة[2].

وقد أسسنا على ذلك تكهناً مفاده أن أمنمحات كان رجل الشعب المنتظر، وربما كانت القيادات الشعبية وراء الترويج له كما فى إضافة النبوءة به لاشعار (نفررحو)، مع تمهيد السبيل له بكل الوسائل

---

(١) أدولف إرمان ديانة مصر القديمة، ترجمة د. محمد عبد المنعم أبو بكر، ود. محمد أنور شكرى، نشر مصطفى البابى الحلبى، القاهرة، د.ت. ص١٠٩.

(٢) العزب: سبق ذكره، ص ٩٩.

للوصول إلى الحكم. ولعل فى نص البردية ما يشير إلى حميمية العلاقة بين (أمنمحات) والثوار، فإن الآسيويين سيقتلون بسيفه "واللوبيون سيحرقون بلهيبه"، و"العصاة ببطشه"، لكن "الثوار سيستلمون لنصائحه". وقد استطاع أمنمحات بالفعل أن يجعل من عصره أزهى عصور الدولة الوسطى، ولكن (أندريه إيمار) و(جانين إيوايه) يذهبان إلى تأكيد أنه قد مال آخر أيامه إلى عقد لون من المصالحة مع النبلاء الأقوياء .. الذين بدءوا يستعيدون نفوذهم بعد سكون الأحوال، بحيث أرتضى السماح لهم باستعادة قسط من النفوذ القديم مقابل طاعته[1].

وهنا عثرنا على نصوص تشير إلى مؤامرة قد دبرت فى الخفاء لاغتيال الملك، وبلغت حداً بعيداً حيث دخل عليه الجناة غرفة نومه، وهجموا على شخصه الملكى بالسيوف، مما أضطره للدفاع عن نفسه بنفسه حتى هرع الحراس لمساعدته، وقد احتسبنا تلك المحاولة قد جاءت من جانب القيادات الثورية إزاء سياسته الجديدة مع النبلاء، بحيث إعتبر خائناً لقضية الثورة، مما استدعى تصفيته جسدياً. ويدل حديث (أمنمحات) عقب محاولة اغتياله على ذلك المعنى، فهو يأسف لخيانة حلفائه الذين وثق بهم ، ويقول:

---

(١) إيمار وإيوايه الشرق واليونان القديم، ترجمة فريد داغر وفؤاد أبو ريحان، دار عويدات، بيروت، ١٩٦٤، مج ١، ص٦٣.

لقد أحسنت إلى اليتيم

وأطعمت المساكين

وتحدثت مع الوضيع كمحادثتى مع الأمير

لكن كل من أكل خيرى

قام ضدى[١]

والمعنى الواضح أنه كان حليفاً لطبقة محددة، يصفها باليتم والمسكنة والوضاعة، مؤكداً أن هؤلاء الحلفاء هم من حاولوا اغتياله، وإن كان (برستد) يؤكد أن المتآمرين كانوا من رجال حاشيته[٢]، فإن ذلك يدعم مذهبنا، لأنه من الطبيعى أن تكون حاشيته متشكلة ممن مهدوا له السبيل إلى العرش، ومن هنا نفهم لماذا قام بتصفيتهم جميعاً بعد ذلك؟

كما أن فى بردية (نفررحو) معانى كثيرة تؤيد ما ذهبنا إليه، ونسوقها هنا كأدلة جديدة لم ندرجها بكتابنا المذكور، فالمعتاد أن يسبق اسم فرعون ويتبعه عدد غفير من ألقاب التشريف والسيادة والتفخيم إلى حد مبالغ فيه، ويثير عجباً شديداً بين الباحثين،، وهو الأمر الذى

---

(١) برسند كتاب تاريخ .. ص ١٦٦.

(٢) نفسه : ص ١١٥.

تخلو منه هذه البردية تماماً، وهو أمر خارج على المألوف بالمرة. ناهيك عن كون الملك يخاطب حاشيته بالنداء (إخوتى) ويتوجه بالحديث لأحد رعيته بالقول (يا صاحبى)، وبدلا من أن يأمر بإحضار الكاتب الملكى، يقوم هو بهذا الدور ليسجل ما يقول أصغر رعاياه. وهى مشاهد لا يمكنك أن تجدها قبل أو بعد تلك الوثيقة النادرة، فى تراث مصر القديمة، أما أن يطلب صاحب الجلالة مرتلاً يؤنسه فيخبره رجاله لزيادة سعادته وإدخال السرور على قلبه إن مثل ذلك الرجل موجود، وأنه ليس رجلاً عادياً، ويبشرونه بوصف الرجل المطلوب بالوصف "رجل شعبى قوى الساعد"!! فهو أمر فى غنى عن التعليق.

والآن ماذا قدم لنا (فليكوفسكى) بشأن بردية الأرميتاج !

بعكس الجميع فإن كلمة (آمينى) تشير عنده إلى (آمنحتب الأول) ابن الملك (أحمس) ملك التحرير، ويعد (آمنحتب الأول) ثانى ملوك الأسرة الثامنة عشرة. والاسم هنا بدوره ملصق من مقطعين (آمن+حتب)، ولأنه يريد من كلمة (آمينى) أن تشير إلى محرر مصر من الهكسوس، ولأنها لا تلتقى مع المحرر (أحمس)، فلتلتق مع ولده، ولأن (آمينى) من (تاستى) بالنوبة، فلا بد أن يكون أسود اللون وهو لون (آمنحتب الأول)، لكنه أيضاً لون (أمنمحات) وأغلب حكام مصر

من ملوك طيبة. (أمينى) إذن يحتمل أن تشير (لأمنمحات) حتى يتزامن التاريخ مع زمن التوراة، ولأن الفاصل بين الرجلين (أمنمحات الأول) و (آمنحتب الأول) يصل إلى ستة قرون، إلا أن أخطر ما يدحض (فليكوفسكى) تماماً، هو نص البردية الذى يصف (آمينى) بأنه ابن أحدهم، اى ليس سليل بيت ملكى، بينما الملك (أمنحتب الأول) هو ابن الملك (أحمس) بن الملك (سقننرع).. الخ، أما (آمنمحات) فرجل من عامة الشعب، وهكذا لا ينطبق الوصف على الملك الذى اختاره (فليكوفسكى) ليتزامن مع تاريخه، وقصد به أن يطابق (آمينى) مع (آمنحتب الأول) ليستطيع أن يجعل من بردية الأرميتاج برمتها شهادة على أحداث الخروج ودخول الهكسوس.

أما الدحض الثانى لهذا السند لإعادة كتابة التاريخ حسب التزمين الفليكوفسكى، فهو ما جاء، فى نص البردية « .. الآسيويون سيقتلون بسيفه.. وسيقيم أسوار الحاكم حتى لا يتمكن الآسيويون من غزو مصر »، والمعلوم أن سور الحاكم الذى كان يشار إليه بالتعبير (حائط الحكم التى أقيمت لصد الآسيويين والقضاء على عابرى الرمال) قد بنيت فى عهد ملوك الأسرة الثانية عشرة [1] أسرة (آمنمحات) وقبل زمن (آمنحتب الأول) بستة قرون كاملة.

---

(١) العزب : سبق ذكره ، ص ١٧، ١٨.

وبمزيد من البحث والتدقيق، نجد فـى وثـائق الأدب المصـرى، وفى قصة (سنوحى) تحديداً، وهى قصة أدبية مشـهورة، دليـلاً قاطعـاً على أن (حائط الحاكم) قد أقيـم زمـن (أمنمحـات الأول)، أو أنـه كـان موجوداً فى آخر أيام هذا الملك، وبعد القضاء التام علـى آثـر (للعـامو حريشع) بمصر، فيحكى (سنوحى) بعد أن بلغه نبأ محاولة أغتيـال الملـك (آمنمحــات الأول)، ودون أسـباب واضحــة لـم تـزل شـاغلة للمهتمين من البـاحثين، يشـعر المحـارب (سـنوحى) بـالذعر الشـديد، ونظن السبب واضحاً مع رؤيتنا التى قدمناها، وموقف سـنوحى يشـير إلى كونه كان أحد القيادات الشعبية المتـآمرة علـى الملـك، بـل وكـان شريكاً مخططاً على الأقل، لذلك نجد سنوحى يهرب فوراً إلـى آسـيا بعد أن غافل حراس (حائط الحاكم) أو بالنص فـى قولـه : «وأعطيـت الطريق لقدمى ـ وهو يشبه تعبيرنـا: وأسلمت قدمـى للـريح ـ ولمـا اقتربت من حائط الحاكم المقامة لرد الآسيويين والقضاء على عـابرى الرمال، قعدت القرفصاء تحت أجمة خشبية، خشية أن يرانـى حـراس الأسوار أثناء تأديتهم لخدمتهم اليومية »[1] .

فالحائط قد أقيم إذن فى عهد (آمنمحات)، وقبل (آمنحتب) بستة قرون، وبه تسقط حجة (فليكوفسكى) المؤسسة على بردية (نفررحـو)

---

(١) بريتشارد : سبق ذكره، ص ٨٥، ٨٦.

لإعادة صياغة تاريخ العالم، مع زيادة يقين القارئ الآن، أن غزو الهكسوس كان أمراً يختلف تماماً، ومتأخراً تماماً، بالنسبة للتسلل الآسيوى الأول فى العصر المتوسط الأول، وأن غزو الهكسوس كان حدثاً، وغزو أولئك الذين انتهزوا فرصة الثورة للتسلل كان حدثاً آخر، وهم من أطلق عليهم المصريون (العاموحريشع).

٤ ـ تزييف دلالات نبوءة الخزاف :

فى عملية التأريخ التى قام بها العلماء لتاريخ مصر القديمة، كان ثمة خطأ بالفعل، لكنه ليس من نوع الخطأ الذى يسقط بموجبه ستة قرون كاملة من التاريخ كما يريد (فليكوفسكى)، إنه خطأ لا يسقط شيئاً إنما يؤدى إلى التباس فى حسابات سنى الملوك والأسر، ومدى دقة ضبطها مع توقيت محدد فى عام بذاته. وللتوضيح نقول: إن الخطأ لم يكن ناتج نقص أو تشويه للمستند التاريخى، لكنه كان عيباً فى التقويم المصرى ذاته، إذ أنه فى زمن بالغ القدم، كان المصريون قد وضعوا حساباتهم الفلكية التى بموجبها تزيد ربع يوم، أو مع زيادة يوم كامل إذا قارناه بالنسبة الفلكية، وعندما نسقط تلك الزيادة ـ كما نفعل اليوم فيما نسميه بالسنة الكبيسة ـ فإننا سنجد فارقاً فى حسابات السنة المصرية القديمة، بشهر زائد كل ١٢٠ سنة عن السنة الفلكية. ومع تراكم هذا الشهر كل ١٢٠ سنة يبدأ التناقص

بالظهور، مع أناس يعملون فى مواسم للزرع ومواسم للحصاد، وهو ما عبرت عنه بردية عصر الرعامسة التى تقول : " إن الشتاء يأتى فى الصيف، والشهور تنعكس، والساعات تضطرب..". ويبدو أن المصريين لم يحاولوا تلافى الخطأ لما يحوطه من قدسية تحريمية تقليدية، حتى جاء (بطليموس الثالث) عام ٢٣٧ق.م ليصدر مرسوماً بإدخال يوم إضافى للسنة، حتى يمنع أعياد مصر الوطنية من المجئ فى غير مناسباتها الزراعية، وحتى لا يأتى الشتاء فى الصيف [١]، لكن (فليكوفسكى) لا يجد مانعاً من الإتيان بنص البردية "ويعود موسم الشتاء إلى موقعه الصحيح من العام، وتستعيد الشمس مجراها الطبيعى " ليوحى أن الشمس كانت قد خرجت عن مدارها نتيجة الخلل الكونى ألذى اصاب كوكب الأرض وسبب كوارث الخروج. ثم يستمر "وتهدأ الرياح بعد أن كانت الشمس محجرية بسبب العاصفة "، بعد أن يكون قد مزج بين نص البردية المنسوبة لعصر الرعامسة بالأسرة التاسعة عشرة، وبين مرسوم كانوب المكتبوب بثلاث لغات منها اليونانية، والذى أمر به (بطليموس الثالث) عام ٢٣٧ ق.م.

---

(١) جاردنر (ىلن هنرى) مصر الفراعنة، سبق ذكره، ص ٨٢ : ٨٤.

وبعد ذلك يسرب فصلاً تحت عنوان (استفسارات) يقول فيه « **لا توجد معلومات قاطعة عن أى غزو آسيوى (عامو) أو (آمو) حدث** فى العصر المتوسط الأول الذى يقع بين الدولة القديمة والدولة الوسطى »، حتى لا يكون ثمة إمكان لغزو سوى غزو الهكسوس الذى حدث بعد الأسرة الثانية عشرة وهى مخالفة صريحة لكل ما تعارف عليه علم المصريات بكشوف أركيولوجية واضحة غير ملتبسة. وهذا التغافل عن تلك الحقيقة كان عموده العظيم الذى أسس عليه بنيان إعادة صياغة التاريخ، وبحيث انتهى إلى عدم صحة أو جواز نسبة بردية ليدن وبردية الأرميتاج إلى ما قبل الأسرة الثانية عشرة، ومن ثم تكون كل روايتهما والأحداث التى وردت بهما تتفق تماماً مع لحظة دخول الهكسوس ولحظة خروج الإسرائيليين، تلك اللحظة التى صاحبتها كوارث فلكية نادرة، أشرف على تنظيمها، ورتب الإخلال بنظام الكون خلالها، الرب (يهوه) بذاته، من أجل عيون شعبه الذى فضله على العالمين!!

لكن الثابت تاريخياً أن مصر كانت تتعرض دوماً وبشكل شبه دورى للغزوات الرعوية، والتسلل إلى البلاد، وخاصة مع أى لحظة ضعف أو خلل فى المركزية، وهو ما تشهد به الوثائق التاريخية، نضرب منه أمثلة سريعة: ففى عهد (بيومى الأول) بالدولة القديمة

(عصر بناة الأهرام) يحكى قائد الجيوش «وحين أراد جلالته أن يوقع العقوبة على الآسيويين والساكنين على الرمال، جمع جلالته جيشاً من عشرات الألوف .. وأرسلنى جلالته على رأس ذلك الجيش.. عاد هذا الجيش فى سلام.. بعد أن حمل معه جيوشاً كثيرة العدد كأسرى »[1].

وهناك تسلل آخر قوبل بردع سريع فى الأسرة الحادية عشرة، أو بالأحرى فى بدايتها، فى عهد (منتوحتب الأول) الذى سجل نصاً يقول أنه «أستولى على الأرض كلها، وأقدم على ذبح آسيوى دجاتى»[2]، كما علمنا بطرد (آمنمحات) لطرد بقايا العامو حريشع عندما كان قائداً على جيوش (منتوحتب الرابع)، ثم تبعه أبنه (سنوسرت الثالث) الذى طاردهم إلى مواطنهم خارج الحدود المصرية، وهو ما تسجله لوحة نسمونت «ارتحل الملك بنفسه للقضاء على الآسيويين ووصل إلى إقليم سكمم » وهو منطقة (شُشم) السامرية الجبلية بشمال فلسطين[3]، وهو امر ما كان ممكن التحقق لو كان أولئك الآسيويين هم الهكسوس الذين احتلوا المنطقة كلها بما فيها فلسطين ومصر. أما الملك (خيتى) فيسجل قبل ذلك بزمان، فى العصر المتوسط الأول « عامو التعساء إن سوء الطالع يحل حيث

---

(١) المصدر السابق ص ١١٤، ١١٥.

(٢) نفسه ص ١٤٢.

(٣) نفسه ص ١٥٣.

يحلـون، .. إنهم يقومـون بالمعـارك منذ عهد حــورس (يعنــى منــذ فجـر التـاريخ)، ومـع ذلـك فـإنهم لا ينتصــرون مطلقـاً، وهـم كذلــك لا يغلبـون »[1]، ثـم يوجـه النصــح لولـده (مـرى كـارع)، قـائلاً : « الأسيوى التعس لا تزعج نفسك بـه، إن هـو إلا آسيوى »[2]، وهـى بـالطبع صـورة لا تلتقــى أبـداً مـع الهكسـوس المحتليـن أصحــاب الإمبراطورية.

٥ ـ تزييف دلالات مقياس سمنة :

فيما وراء الجندل الثانى فى أقصى الجنوب، وفى وقت ما من التـاريخ المصـرى القديـم، أرسـى المصريـون حدودهـم الجنوبيـة عنـد قلعتين منيعتين تواجه كل منهما الأخـرى علـى القمـم الصـخرية علـى ضفتى النيل، واحدة اسمها (قمة) والأخرى اسمها (سمنة)، ومن هناك نحو الجنوب، ومـع بـدء الصـخور، تبـدأ أرض (كـوش) بـلاد الزنـج، وعلى الصخور المقام عليهـا قلعـة سمنة حفروا مقياسـاً لميـاه النيـل، ليتمكنوا من التنبؤ بالفيضان المرتفع أو المنخفـض، قياسـاً علـى الأثـر الذى يتركه ماء الأعوام الماضية من أثر، دون حاجة لفرعون حلــوم، كما قصت علينا التوراة، وبناء على ملاحظة (ليبسـوس) لأثـار الميـاه التـى تركهـا علـى المقيـاس، ربمـا يسـجل ارتفاعـاً يزيـد عـن اثنيـن

---

(١) نفسه ص ٥٤.

(٢) ولسن : سبق ذكره، ص ١٥٢.

قدماً على القياسات المعاصرة، يقدم (فليكوفسكى) وثيقته السادسة الدالة على الكارثة، حيث يزعم أن ذلك يعنى هبوطاً فى التكوين الصخرى وطبقات الأرض فى مصر آنذاك بمقدار اثنين وعشرين قدماً، لأنه لو كانت الأرض هى الثابتة، وأن التغير حدث فى كمية الماء المتدفق بالنيل، فذلك لا شك يعنى أن عدداً من المعابد والمساكن كان من المفروض أن تغطى بالمياه بانتظام كل عام زمن الفيضان.

ولا مشاحة أن الرجل هنا يمتلك قدرة التقاط عظيمة، وصبر على التفتيش وراء كل ما يدعم مذهبه، لكنه ربما لم يلتفت إلى النتائج التى تترتب على هبوط الصخور المقياس، والتى لابد أن تؤدى إلى هبوط المقياس بدوره بذات القدر، حيث إنه تم تسجيله حفراً فى شكل خطوط عرضية على خط رأسى على الجرف الصخرى عند (سمنة). وحجته هنا كما هو واضح واهية تماماً، لكنه على أية حال يسوقها ضمن مجموعة قرائن متضافرة، بحيث لا يظهر هذا الضعف إلا عند انهيار القرائن الأخرى؛ أما ما نعرفه نحن ابناء هذا الوادى يقيناً بالمعايشة والمعاينة، وفى طفولتنا قبل بناء السد العالى، أن الفيضان كان يأتى فى بعض المواسم مرتفعاً إلى حد نتحول فيه جميعاً إلى طوارئ من لون خاص بمصر، طوارئ الريف المصرى الذى

يتحرك ابناؤه فوراً، وكلٌ يعرف دوره تماماً دون تنظيم رسمى، للردم حول القرى لحماية البيوت المتطرفة، التى ستتعرض بحكم الدراية ــ خلال أسابيع للغرق الكامل. وكان الماء يرتفع إلى حدود هائلة، ولم يكن ذلك ليبهرنا نحن ابناء النيل كما أبهر الروسى (فليكوفسكى)، حيث كنا معتادين ــ فى غير فصل الفيضان ــ على التطلع من فوق أسطح منازلنا، على الأطراف العليا البعيدة لأشرعة المراكب النيلية تحتنا، وكنا معتادين أيضاً ــ فى فصل الفيضان ــ على الصعود إلى أسطح تلك المراكب واللعب فوقها عندما ترسو عند أبواب بيوتنا، أما المساعدة فى حمل (قفف) الأتربة والأحجار للبالغين وهم يقيمون الردم حول البيوت المتطرفة، فكانت مجالاً لسعادة طفولتنا وهذرها ومرحها، كانت لوناً من اللهو الدورى الجميل الذى ــ لا شك ــ لا يعرف (فليكوفسكى) طعمه، ولا علاقته بحميمية أبناء هذا الوادى وبعضهم، وبينهم وبين نيلهم الذى كان يتجرأ عليهم إلى إلى حد التدمير، لكنهم كانوا دوماً أسعد الناس به، وأشد من فى الكون فرحاً بجبروت فيضانه. أما أجدادنا فكانوا يحكون لنا فى طفولتنا عن ارتفاع أشد قسوة للماء لم نحظ نحن بمعايشته، وكان يحدث قبل إقامة سد أسوان الذى يبعد عن السد العالى إلى الشمال بمقدار سبعة كيلومترات. وكان الاجداد يشيرون إلى مواقع بيوتنا ويقولون: ما كان ممكناً أن تقام هذه البيوت هنا قبل إقامة سد اسوان، حيث كان الماء

يغطى هذه الأرض وقت الفيضان. أما أهل بعض المناطق وخاصة فى وسط الدلتا فقد أقاموا قراهم بكاملها فوق ردم مرتفع، جعل لتلك القرى الآن لوناً غريباً لكنه بديع، وعلى الردم أقام الأهلون السلالم الحجرية التى كانت تسمح للفلاحات بحمل أوانى الطهو والملابس لغسلها أمام أبواب البيوت مباشرة فى مياة النيل وقت فيضانه، بدلاً من جهد حملها الطويل أيام التحاريق الصيفية إلى مجرى النهر البعيد.

٦ ـ تزييف دلالات نقش حتشبسوت الحجرى :

يسوق (فليكوفسكى) نص هذا النقش كالآتى " إن مقر ربة كيس قد تحول إلى أنقاض، وابتعلت الأرض حرمها المقدس، ولعب الأطفال فوق معبدها، وقد أزلت عنه ما تراكم وأعدت بناءه، واستعدت ما كان أنقاضاً، وأكملت ما كان قد ترك بلا بناء، فقد كان هناك آمو فى وسط الدلتا، وفى حواريس، وكانوا هم من دمرت قبائلهم كل المبانى القديمة، وقد حكموا البلاد غير مؤمنين بالإله رع ".

وعندما يورد (فليكوفسكى) ذلك النص مباشرة، بعد حديثه عن مقياس سمنة الذى يقع أقصى الجنوب ودون أن يحدد أين يقع المعبد

المهدم، معتمداً على أنــه مكـان يسـمى (كيس)، حيث إن المعبـد كـان معبد (ربة كيس)، إنما يقوم بـتزييف آخر يذهـب بالقـارئ إلـى مكـان اسمه (كيس) قرب (سمنة)، وهنا لا شك سيراود القارئ وهـو يبنـى تصوراته أن الهكسوس قد حكموا مصر بكاملها حتى وصلوا حدودهـا الجنوبيـة قـرب (سمنة)، حتـى يلائـم ذلك أربعـة قرون حكمـوا فيهـا مصر. ولن يكون مستساغاً أن يحكموا أربعة قرون دون احتلال لكـل شبر فيها، لكن الحقيقة أن الهكسوس لم يصلوا إلى ابعد من (أشـمون) الحالية فى أبعد التقديرات، بل ربما لـم يصلوهـا إطلاقـاً، إنمـا رضـوا من حكامها بالجزية التـى ستسـمح لهـم بـالمرور شـمالاً إزاء إغلاقهـم للحدود الشمالية على البحر المتوسط والشرقية بسيناء. كما أن التعبـير (ربة كيس) فيه تلاعب واضح، لأنه (مقـر الربـة كيس) وليس (مقـر ربة كيس)، والنص عبارة عن نقش أمرت بكتابتـه الملكـة حتشبسـوت على واجهة معبد إقليمى، يوعز لنا (فليكوفسكى) إنـه كـان فـى سيناء ليتيسر له الزعم بهبوطه تحت الأرض أثناء الكارثة. رغم المعلوم أن المعبد المذكور فى منطقة اسطبل عنتر الحالية بمصـر القديمـة، وهـو الذى أطلق عليه اليونـان اسـم «سيبيوس أرتميدس» ويبدو أن معبد الإلـهة (كيس) أهمل زمناً أتاح للرمال أن تتراكم عليه «أزلت ما تراكم عليه»، وهى ظاهرة نعرفها فى بلادنا. أما التعبير الوحيد الذى استند إليه صاحبنا فى انخفاض الأرض المتزلزلـة بفعل رب التـوراة وقت

الكارثة، وهو تعبير مجازى واضح يشير إلى تراكم الرمال على المعبد، يقول « ابتعلت الأرض حرمها المقدس »، وليس هناك أية إشارة لانخفاض الأرض وإلا أشارت (حتشبسوت) للأمر بوضوح، أما كوننا نذهب إلى عدم تجاوز الهكسوس لسيناء وشرقى الدلتا، فهو واضح فى قول حتشبسوت « كان الآسيويون فى حواريس فى شمال البلاد، وكانت من بينهم حشود تقوم بهدم ما سبق تشييده، كانوا يحكمون بغير مشورة رع »[(١)]. ولعل القول بحشود تهدم ما سبق بناؤه لا تحتاج إلى تعليق.

وقبل أن ننتقل إلى القسم الثانى من نظرية (فليكوفسكى) نجدنا بحاجة إلى الإجابة عن تساؤلات مشروعة إزاء ما قدمه حتى الأن، فإذا كان بنو إسرائيل فى مصر منذ زمن طويل سبق نهاية الأسرة الثانية عشرة حين خرجوا ودخل الهكسوس، فهل لم يوجد فى مصر شخص واحد أمكنه أن يسجل لنا ولو إشارة عن بنى إسرائيل باسم إسرائيل أو باسم أى فرد من أعلامهم؟ وإذا كان الهكسوس قد حكموا مصر أربعة قرون متصلة لم يوجد بينهم من يعرف الكتابة ليسجل لنا شيئاً واضحاً عن إمبراطورية عربية عظمى قامت على الجهل والبربرية؟ أو لم يوجد مصرى فى عهدهم يدون لنا خلال أربعة

---

(١) انظر على سبيل المثال فقط جاردنر : سبق ذكره ، ص ١١٢.

قرون شيئا عنهم؟ إن عدم وجود مثل تلك المدونات إطلاقاً، كفيل وحده بهدم كل ما ذهب إليه (فليكوفسكى)، لكن وقفتنا معه كانت أمراً لازماً إزاء براعته القصوى التى تحسب له، والتى كانت تكفل له أن يهمل أى قارئ مثل تلك التساؤلات.

تزوير التاريخ

أقام (فليكوفسكى) رؤيته فى جنس الهكسوس وموطنهم على إشارة عابرة للمؤرخ المصرى (مانيتون)، والتى ساقها (مانيتون) فى صيغة عدم اليقين بقوله: "والبعض قالوا : إنهم كانوا عرباً" لكن (فليكوفسكى) يهمل تماماً إشارة (مانيتون) التأكيدية فى كون الملوك الستة الأوائل من الهكسوس، أصحاب الأسرة الخامسة عشرة ــ فيما يزعم ــ كانوا فينيقيين بالتأكيد [١] وهو ما أخذ به بعض المؤرخين وإن ذهب الأكثرية إلى قدومهم من مناطق بحر قزوين.

والمعلوم أيضا أن العامل الأخطر والذى ساهم بقدر فاعل فى غزوهم لمصر، ليس فقط حالة التفكك والفوضى التى صاحبت العصر المتوسط الثانى، بل أيضاً تفوقهم العسكرى الذى تمثل فى أمرين غاية فى الدلالة: الأول هو اكتشافهم لمعدن الحديد وتصنيعه، بحيث امتلكوا أسلحة مصنوعة من الحديد، أما الأمر الثانى فهو أنهم كانوا السابقين إلى ترويض حيوان لم يكن معروفاً فى منطقة الشرق الأدنى أصلاً هو الحصان، بل واختراع العجلات التى يجرها ذلك الحصان

---

(١) د. لويس عوض : مقدمة فى فقه اللغة العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٠، ص١٠.

واستخدامها فى النقل، وكـأداة حربيـة متطـورة للغايـة، تعـادل دبابـات اليـوم وطائراتـه، والثـابت تاريخيــاً وحفريــاً أن منطقتنــا لــم تعـرف الحصان بالمرة قبل قدوم الهكسـوس إليهـا، وإن جـاءت إشـارات إليـه مـن نصــوص الرافديـن المســمارية، مـن عهـد ســلالة أور الثالثـة (٢١١٢ ـ ٢٠٠٤ ق.م) باسم (آنشوكرا) أى (حمار الجبل) أو (حمـار البلد الأجنبـى)، ولـم يعـرف فـى الرافديـن إلا مـع الغـزو الكاسـى لهـا [١] حوالى عـام ١٦٠٠ق.م، ولنلحـظ أن غـزو الهكسـوس لمصـر جـاء حسب التاريخ المعروف حوالى عام ١٦٨٠ق.م.

وقد ظهر سلاح العجلات التى يجرها الحصـان لأول مـرة فـى مصـر، بعـد اكتسـابها تلـك المعرفـة مـن الهكسـوس، وإبــان حــروب التحريـر، وكـان أول ظهـور للحصـان والعجلـة الحربيـة فـى حـروب أحمس ضد الهكسوس مع بداية الأسرة الثامنـة عشـرة، وكـان سـلاحاً ابتدائياً، بحيث أن كبير ضباط الفرعون (أحمس)، والمعـروف بـدوره باسم (أحمس بن أبانا)، الذى عرفناه مدوناً لقصـة حصـار المصريين لحواريس عاصمة الهكسوس، كان يسير على قدميه إلى جـوار عجلـة الفرعون، فإلى هذا الوقت كان المصريون يستخدمون السفن كوسيلة

---

(١) طه باقر : الوجيز فى تاريخ حضارة وادى الرافدين، دار الشؤون الثقافية العامـة، بغـداد ١٩٨٦، ج١، ص٤٥٦.

نقل رئيسية، وكترسانة عسكرية متحركة، وهو ما وضح في قصة التحرير، حيث " أبحر المصريون لقتال الهكسوس " ولأول مرة تظهر رتبة قائد سلاح العجلات مع نهاية عصر الأسرة الثامنة عشرة، وتحديداً فى عصر (آمنحتب الثالث) الذى أصدر قراراً ـ لأول مرة ـ بتعيين حميه (يويا) قائداً لسلاح العجلات، بلقب "وكيل الملك فى سلاح العجلات " .

وهذا الأمر وحده كفيل بهدم السند الأساسى لفروض (فليكوفسكى) ، إضافة لفقدان الكتاب المقدس صفته كمعيار تام السلامة للتزمين، حيث أن الكتاب المقدس يشير إلى العجلات كسلاح معلوم، وكوسيلة انتقال إعتيادية عند دخول (يوسف) إلى مصر، والمفترض ـ حسب نظرية فليكوفسكى ـ أن هذا الدخول قد حدث منذ زمن سبق الأسرة الثانية عشرة، وجاء ذلك فى عدة نصوص توارتية، جاء فى تصرف الفرعون بعد إدراكه لقيمة يوسف التنبؤية "وأركبه فى مركبته الثانية، ونادوا أمامه : إركعوا، وجعله على كل أرض مصر ـ تكوين ٤١ : ٤٣ "، ثم جاء عند وصول يعقوب إلى مصر "شد يوسف مركبته وصعد لاستقبال يعقوب أبيه ـــ تكوين ٤٦ : ٤٩ " ، ثم عند موت يعقوب وخروج يوسف ليدفن أباه.. وصعد

معه مركبات وفرسان، فكان الجيش كثيراً جداً ـــ تكوين ٥ : ٧ ـ ٩ "، وغير ذلك كثير من النصوص التى تؤكد وجود العجلات كشئ اعتيادى فى مصر عند دخول الإسرائيليين إليها، وهو بالوثائق أمر باطل تماماً، إذا احتسبناهم قد دخلوا مصر قبل الهكسوس كما ذهب (فليكوفسكى)، لأن العجلات لم تعرف فى مصر إلا مع مقدم الهكسوس إليها، بل ظلت العجلات بعد طردهم زماناً شيئاً ابتدائياً، لم يكتمل ليمكن أن يكون نواة لسلاح مستقل بالجيش، إلا بعد ذلك بأكثر من قرنين من الزمان، وهو الفارق بين زمن (يويا) أو وكيل الملك لسلاح العجلات، وبين زمن (أحمس) محرر مصر من الهكسوس ومؤسس الأسرة الثامنة عشرة.

وعليه لا يمكن أن يكون الإسرائيليون قد دخلوا مصر فى زمن سابق لزمن الهكسوس، بل المرجح أن يكونوا، قد دخلوها زمن الهكسوس وكحلفاء لهم، وقد سبق لنا أن وصلنا إلى تحديد المنطقة التى قدم منها الهكسوس إلى المنطقة، ونشرناه فى كتابنا (النبى إبراهيم والتاريخ المجهول)[١]، وسجلنا مجموعة من القرائن كافية، تشير إلى أنهم يعودون بأصولهم إلى المنطقة الكاسية شمالى بلاد الشام والرافدين، فى أراضى (أرمينيا) جنوب بحر قزوين، وتحديداً

---

(١) سيد محمود القمنى: النبى إبراهيم والتاريخ المجهول، القاهرة ١٩٩٠.

حول بحيرة (فان)، ومن هذه المنطقة قدمت موجات ذات كثافة عالية في شكل موجات متتابعة، وكان أكبر هذه الهجرات وأخطرها الموجة الكاسية التي دونت أخبارها نصوص الرافدين بعد أن هبط الكاسيون في غزو كاسح على دولة بابل الأولى حوالي ١٦٠٠ق.م، وقد ذهبنا إلى أنه ضمن تلك الموجات جاءت موجة الهكسوس التي تعد جناحاً من أجنحة الهجرة الكاسية أتجه إلى مصر حوالي ١٦٨٠ق.م.

وقد سبق أن علمنا أن (يوسفيوس) فصّل كلمة هكسوس إلى مقطعين: (هك) بمعنى ملك و(سوس) بمعنى راعي، أي ملوك الرعاة، وفي كتابنا (النبي إبراهيم...) رفضنا ذلك التخريج، لأن كلمة (هكسوس) إذا احتسبناها كلمة واحدة لا تتركب من شقين فسوف تكون واضحة بذاتها ولا تحتاج إلى تخريجات وتقسيمات، و(برستد) يذهب إلى أن الهكسوس أراميون [1]، وقد رأينا ـ بالأدلة ـ أن الأراميين من أرمينيا الكاسية، ومع حذف التصريف الأسمي في آخر كلمة هكسوس (حرف السين الأخير) لا تحتاج التسمية إلى إثارة إشكاليات، حيث تصبح (الكاسو) أو (الكاسي)، وهو ما يلتقي مع مذهبنا في كونهم فرعاً أصلياً للهكسوس، أما موسوعة تاريخ العالم فتقول في حديثها عن أحداث تاريخ الرافدين عام ١٦٠٠ ق.م، قولها :

---

(١) برستد كتاب تاريخ مصر... سبق ذكره، ص ١٤١.

"عام ١٦٠٠ق.م، غزا الكاشيون بابل، ... حكموها لمدة ٤٥٠ عاماً، أصبح الحصان معروفاً في مصر وغرب آسيا "[١]، ومع ذلك لم تربط الموسوعة ولو بالإشارة بين الغزو الكاسى للرافدين، وبين الغزو الهكسوسى لمصر، وبين الأراميين وأرمينيا.

ولعل أهم ما يبطل تقسيم كلمة هكسوس إلى مقطعين (هك)، (سوس)، أنه لا يوجد فى اللغة المصرية القديمة لفظة بنطق (سوس) أو ما تفيده معناها، على وجه الإطلاق [٢]، وهو ما يبطل أيضاً أى تخريج يقسم الكلمة إلى مقاطع، ولا تبقى سوى (هـ ــ كاسى ــ س) أى الكاسيين، لكن (فليكوفسكى) كافح كفاحاً مستميتاً ليجد بالكتاب المقدس أى إشارة تتوافق مع معنى المقطعين (الملوك الرعاة) حسب التخريج الخاطئ، وهو ما يشير إلى تكلُّف وتلفيق واضح العمد، فيلجأ إلى سفر المزامير المتأخر بقرون طويلة عن زمن الخروج، ليجد فيه النص "قد أنزل عليهم الرب أشد غضبه وعقابه سخطاً وزجراً وضيقاً، **جيش ملائكة أشرار** ــ ٤٨ : ٤٩ "، ثم يعقب متغابياً فيما يبدو "فما الذى يعنيه ملائكة الشر؟ "، بينما هو يعلم جيداً تواتر

---

(١) وليم لانجر وسبعة عشر عالماً موسوعة تاريخ العالم، ترجمة د. مصطفى زيادة مع سبعة مترجمين، مكتبة النهضة المصرية، د.ت، ص٥٦.

(٢) العزب سبق ذكره، ص٤٥.

(ملائكة الشر) بالكتاب المقدس، واصطلاح ملاك الشر يشير إلى الملك الموكل من قبل (يهوه) مع جنوده لإنزال الدمار بأعداء إسرائيل، وهو اصطلاح اعتيادى تماماً لدى العارف بالكتاب المقدس، ثم يقوم (فليكوفسكى) بتفسير الاصطلاح (ملائكة أشرار) بحيث تلتقى مع (ملوك رعاة) بقوله إن الناسخ القديم للكتاب المقدس باللغة العبرية القديمة قد أضاف حرف ألف لكلمة (شرر) لتتحول عن معناها الأصلى (رعاة) إلى (أشرار)، بينما الشق الأول (ملائكة) يلتقى مع كلمة (ملوك) بلا فرق يذكر، وعليه فالأصل فى المقدس القديم، كان "جيش ملوك رعاة"، وليس "جيش ملائكة أشرار"، والواضح أن الرجل قد بذل جهداً لا طائل من ورائه، حيث لا تعنى كلمة هكسوس بالمرة (ملوك رعاة)، لعدم وجود كلمة (سوس) بمعنى (رعاة) ولا بأى معنى آخر ولاحتى بلفظها ضمن معجم ألفاظ المصرية القديمة، لأن الأصل فى اللسان المصرى كان (حقاوكاسوه) والتى ببساطة ـ لدينا ـ (الحكام الكاسيين) أو (الكاشيين).

ولو كان (فليكوفسكى) قد اقتصر على تزييف دلالات النصوص لهان الخطب، لكنه ـ كما رأينا في أكثر موضع ـ عمد إلى تزييف النصوص ذاتها، ومن ذلك التزوير ما فعله مع (بردية ساليه)، وهى عبارة عن تمرين مدرسى كتبه التلميذ (بيتاعور) كتدريب على

النسخ، وإن نسخها يعود إلى الأسرة التاسعة عشرة، بعد طرد الهكسوس بمئات السنين، والأصل مفقود. لكن المصرولوجيين استخرجوا من ملابساتها أنها كانت تحكى قصة شعبية متواترة، من ألوان قصص الفخر الوطنى وأشعار البطولة القومية، والقصة تتناول بداية حروب التحرير، وتحديداً بداية ما يمكن تسميته بالنزاع بين (سقننرع) الملك المصرى الطيبى، وبين (أبوب) الملك الهكسوسى، وتبدأ البردية بوصف حال الفاقة والبؤس، وكيف بعث (أبوب) رسالة تحدى (لسقننرع) فى طيبة مع رسول، تقول : « إخل البركة الواقعة شرقى المدينة من أفراس النهر، لأنها تحول بيننا وبين النوم ليلاً، ولأن ضوضاءها تملأ آذان سكان حواريس » .

ورغم أن (قليكوفسكى) يرى فى تلك الرسالة كثيراً من الازدراء والاحتقار من قبل (أبوب) للحكام المصريين الذين يحكمون فى طيبة (الأقصر)، فإن آخرين ذهبوا إلى أن الرسالة لوناً من (جر الشكل)، والاستفزاز، وهو استفزاز لامعنى له لو كانت الأمور مستقرة للهكوس فى الجنوب، لذلك ذهب آخرون إلى أنها نوع من الألغاز القديمة التى كان الملوك يخاطبون بعضهم البعض بها، وأن الأمر يشير إلى لون من الضجيج الثورى بدأ يتعالى فى طيبة، وأن الأمر (أزعج) أبوب مما دفعه لإرسال تلك الرسالة المتحدية، التى

تكاد تقول : إن المشاعر الوطنية التى ظهرت فى الجنوب تقض مضاجعنا وعليك ايها الحاكم إخمادها فوراً.

ثم يأتى (فليكوفسكى) بما يوحى أنه نص يقول : " وظل أمير المدينة الجنوبية صامتاً، ثم بكى لوقت طويل ولم يدرِ بما يجيب على رسالة الملك أبو فيس " ومن ثم " قبض على الأمير المصرى، وساقه رسول الملك أبوب الثانى إلى حواريس "، ونهاية البردية مفقود، (والتعقيب الأخير لفليكوفسكى)، أما الغريب فعلاً أن بردية (ساليا تقطع عند مشاورة الملك (سقننرع) لحاشيته وجنوده بشأن الرسالة وإن الاستكمال جاء من عند فليكوفسكى فى حديثه عن القبض على (سقننرع) وأخذه إلى حواريس، وهنا الأمر الخطير فى عمل ملفق كالذى بين أيدينا، والذى حاز شهرة عالمية لا تضارع، وربما عمد (فليكوفسكى) إلى عدم ذكر ظروف كتابة البردية، حتى لا يتساءل القارئ: كيف يمكن لتلميذ فى مدرسة، وكيف يمكن لمدرسة وطنية فى ظل حكومة إمبراطورية تفاخر العالم آنذاك، أن يتناول موضوعاً شعبياً يحكى كيف تم إهانة ملك يفخر به المصريون، وكيف سيق أسيراً لعاصمة الهكسوس، بينما الثابت من وصف (إلبرت سميث) ومن واقع الجراح التى وجدت فى مومياء الملك (سقننرع)، أن الرجل مات بعدة ضربات نافذة بالخناجر والبلط. وكان

ممكناً القول مع (فليكوفسكى) أن الملك المصرى أخذ إلى حواريس أسيراً، ولو بافتراء على وثيقة لم تقله، وأنه أعدم هناك، لولا أن جثمانه كان محفوظاً بوادى الملوك فى طيبة عاصمة الجنوب، والتى انطلقت منها عزمات التحرير، وهو مايشير إلى موت الرجل فى معركة شرسة، وقع فيها شهيداً وسط جنوده، الذين حملوا جثمانه من ساحة المعركة إلى مرقده الأخير فى مقر حكمه (طيبة ـ الأقصر)، ولن نفهم سر كل هذا التسفيه من شأن قواد التحرير المصريين إلا فى ضوء تزمين التاريخ الفليكوفسكى، الذى يصب فى النهاية كل البطولة والنجدة والشهامة والمروءة فى يد بنى إسرائيل الكرام، حيث يتزامن الخروج الإسرائيلى مع الدخول الهكسوسى، ويتزامن الملك الإسرائيلى (شاول) مع زمن تحرير مصر من الهكسوس، الذى قام به (شاول) ورجاله بعد ماثبت له أنه إزاء جبروت إمبراطورية عربية، وبنص (فليكوفسكى) " إن الإسرائيليين كانوا هم الشعب الوحيد الذى قام وقاتل ودخل حروباً وبإصرار شديد، كى يظلوا مستقلين وغير خاضعين لسيطرة العماليق .. **لقد كان زمناً بطولياً لإسرائيل أنفردت به دون سائر الأمم، فى الوقت الذى لم تقم فيه أية ثورة أو أى تمرد من أى نوع كان، لا فى مصر ولا فى غيرها**، ضد العماليق، فى تلك الإمبراطورية الواسعة، خلال القرون التى حكموا فيها تلك البلاد " .

ونفهم من ذلك أن الإمبراطورية العربية المتبربرة التى تحدث عنها كإمبراطورية عالمية تحكم جزيرة العرب ومصر وجزر البحر المتوسط وبلاد الشام بما فيها فلسطين، تغلب على سطوتها حفنة من الآبقين الخارجين من مصر هاربين ، بحيث كانوا الشعب الوحيد فى المنطقة الذى امتلك كرامة قومية دعته للمحافظة على استقلاله فى بقعة صغيرة بفلسطين، ضمن الإمبراطورية العربية العظمى. وهو مبرر واه تماماً لتفسير قيام حكم القضاة اليهود لأربعة قرون ف فلسطين فى ظل إمبراطورية عاتية وهمجية كالتى صورها ا (فليكوفسكى) ذاته، تم سحب زمن الهكسوس ليتزامن مع عصد (شاول) مع تحرير مصر، لأن (شاول) ـ فى رأيه ـ هو الذى أ ألوف الإسرائيليين إلى حواريس، وضرب عليها الحصار وهزمها ش هزيمة، وشتت العماليق الهكسوس الذين انسحبوا إلى شاروهين وترك الأرض المحررة لأصحابها المصريين (منتهى العدل؟! ومنتهى المروءة)، دون أن يفكر فى الاستيلاء على تلك الأرض، ولو من باب انتقام واجب من عبودية بنى إسرائيل بمصر قروناً، و يحاول بقواته العظمى التى هزمت أعظم الإمبراطوريات فى زمان أن يحتل مصر، كان همه الاوحد الانتقام من عماليق، لأنهم آذو الإسرائيليين عند الخروج، منذ أربعة قرون مضت، وظل الاسرائيليون يحتفظون بذلك الحقد حتى انتقموا بتدمير حواريس وتشتيت الهكسوس العماليق، هذا رغم (جيشان) الكتاب المقدس فى

كل إصحاح وكل سفر بحقد على مصر والمصريين، وكل ما كانت تملكه تلك الأسفار هو استنزال اللعنات المرتجاه من رب العالمين على رؤوس المصريين. لذلك من حقنا أن نبدى الدهشة والعجب من امتلاك إسرائيل تلك القوة الهائلة التى تهزم الهكسوس المحتلين أصحاب إمبراطورية الاحتلال الاستيطانى، ولا تنتقم من المصريين، فى وقت كانت فيه مصر أمام تلك القدرات الإسرائيلية مجرد ثمرة ناضجة تقع دون جهد يذكر فى يد (شاول) وجيوشه الجرارة.

ومن جهة أخرى، فإن مزاعم (فليكوفسكى) لا بد تفترض ـ ضمناً ـ أن بنى إسرائيل قد قضوا تماماً على كل أعدائهم الصغار مقارنة بالعماليق، وهو الأمر الذى يحتاج توضيحاً، لكن ليس قبل أن نقف مع النص المصرى الذى علم منه (فليكوفسكي) بقصة التحرير على يدل (شاول)، وهو المدون فى مقبرة الضابط (أحمس بن أبانا)، إضافة إلى نص آخر استشهد به هو حكاية العراف (بلعام) بالتورة.

ولنبدأ بنص التوراة، الذى يحكى لوناً فجاً من الخرافة، عن كيف استدعى (بالاق) ملك الموآبيين العراف (بلعام) المديانى، ليصب له اللعنات على بنى إسرائيل فيبيدهم، «فأجاب بلعام وقال لعبيد بالاق: ولو أعطانى ملئ بيته فضة، ولا ذهب ، لا أقدر أن أتجاوز قول الرب.. فأتى الله إلى بلعام ليلاً وقال له : أتى الرجال ليدعوك فقم أذهب معهم .. فقام بلعام صباحاً وشد على أتانه وانطلق مع

رؤساء موآب، فحمى غضب الله لأنه منطلق معهم (؟!) ووقف ملاك الـرب فـى الطريق ليقاومـه وهـو راكـب علـى أتانـه وغلامــه معــه، فأبصرت الأتان ملاك الرب واقفا فى الطريق وسيفه مسلول فـى يده (؟) فمالت الآتان عن الطريق.. فحمى غضــب بلعام وضرب الأتـان بالقضيب، ففتح الرب فم الاتان فقالت لبلعـام : مـاذا صنعـت بـك كـى تضربنى؟ .. فقال بلعام للأتان : لأنك ازدريت بى، لو كـان فـى يـدى سيف لكنت قتلتك الآن، .. ثم كشف الـرب عـن عينـى بلعـام فـأبصر ملاك الرب واقفاً فى الطريق وسيفه مسلول فى يده، فخر ساجداً علـى وجهه..إلخ ـ العدد ٢٢ : ١٩ ـ ٣١ " .

والمعتاد على قراءة ذلك الكتاب لن يجد آية غرابة فى تنـاقض الرب، ولن يعجب من حمار يتحدث مع صاحبه حديثـاً ودّيـاً فيعاتبـه، وصاحبه يلومه، لأن القارئ لن يجـد صفحـة بالكتـاب تخلـو مـن تلـك العجائب، لكن المهم أن (بلعام) بدلاً من أن يلعن بنى إسرائيل مدحهـم وأعطاهم بركاته، وتنبأ بأن مُلك إسرائيل سيتسامى على ملك (أجـاج)، وأن آخرة عماليق إلى هلاك (أنظر سفر العـدد ٢٤ : ٣٠ـ٧). وهنـ يقفز (فليكوفسكى) ليمسك (أجاج) بكلتا يديه منادياً : فلتشـهدوا أن هـذا هو (أبوب الثانى) ملك الهكسوس، ولا بد بالتالى أن يكـون الهكسـوس هم العماليق، وأن هلاك العماليق قد جاء على يد بنى إسرائيل، حسبما

تنبأ بلعام، وذلك فى الحملة التى قادها أول ملك لأول مملكة يتم فيها توحيد شراذم إسرائيل.

ولإثبات صدق بلعام والحمار والرب، يكتشف (فليكوفسكى) الدليل على ما حدث فى مقبرة الضابط المصرى (أحمس بن أبانا)، ولنقرأ كيف صاغ (فليكوفسكى) ذلك النقش الهام، الذى يقول فيه الضابط : «تابعت الملك سيراً على أقدامى حين ركب عجلته الحربية فى طريقه إلى خارج الولاية، وكانوا هم يحاصرون مدينة حواريس»، والإشارة (كانوا هم) لا تعنى سوى أن قوماً آخرين هم أصحاب الفضل الحقيقى فى التحرير، «كانوا هم يحاربون من جهة قناة المياه حواريس..استولوا هم على حواريس.. هم حاصروا شاروهين»، الرجل بهذا الشكل محق تماماً، لكن عندما نقرأ النص الأصلى سنكتشف إلى أى حد بلغت بالرجل الجرأة والقدرة على التزوير.

يقول الضابط (أحمس بن أبانا) فى النص الصادق : «تبعت الملك على قدمى عندما كان يركب عجلته الحربية، إنه حاصر مدينة حواريس»، ولنقف هنا مع أمرين : الأول زمن الفعل فى النص الصادق (حاصر) وزمنه فى النص المزور (يحاصرون)، والذى

ضبطه مع تزوير آخر، وبدلاً من الصيغة المصرية للفعل الماضى (إنه حاصر) تحولت (إنه) فى صيغة الإشارة المفخمة للغائب (الملك) إلى (كانوا هم)، ولأن استكمال العبارة جميعاً فى صيغة الماضى ستصبح غير ملتئمة (كانوا هم حاصر مدينة حواريس)، فكان لابد من تزوير الكلمتين لتتحول العبارة من (إنه حاصر) إلى (كانوا هم يحاصرون).

ولنقرأ النص كاملاً : «تبعت الملك سيراً على قدمى عندما كان يركب عجلته الحربية، إنه حاصر مدينة حواريس، وقد أظهرت فى قناة مياه بازدكو فى حورايس، ثم حاربت ملتحماً يداً بيد واستوليت على أحد الأسرى، ولما بلغ ذلك المسامع الملكية منحنى الملك ذهب الشجاعة، ثم تجدد القتال مرة أخرى فى ذلك المكان، وحاربت ثانية هناك يداً بيد، وحصلت على أسرى آخرين، ومنحنى الملك ذهب الشجاعة ثانية» .

وأثناء أنشغال الملك (أحمس) فى محاربة الهكسوس، حدثت قلاقل فى جنوبى البلاد، على بعد ما يزيد عن ألف كليومتر عند (الكاب)، فسارع الملك مع بعض جنود، وبضمنهم الضابط (أحمس)، الذى يروى تلك الواقعة أيضاً، ويقول «لقد حاربت فى مصر جنوبى مدينة الكاب، واستوليت على أسير حى حملته معى على صفحة

الماء، ولما بلغ هذا الأمر المسامع الملكية، منحنى هو الذهب بالمعيار المزدوج »، والسؤال الآن: هل كانت (هو) المفخمة هنا ــ بدورها ــ تشير إلى الإسرائيليين فهى تترجم حرفيا (منحونى)، وأنهم ذهبوا إلى أسوان مع (أحمس) الملك للقضاء على قلاقل منطقة النوبة، ومنحوا الضابط (أحمس) الأنواط الذهبية المزدوجة لشجاعته؟

وذات الأمر يكرره فى قصة انسحاب الهكسوس من حواريس إلى شاروهين بفلسطين، حيث حاصرها الملك ثلاث سنوات حتى استسلمت ورحلوا عنها بموجب اتفاقية أبرمت بهذا الخصوص، « لقد حاصر شاروهين ثلاث سنوات ثم استولى عليها، وأسرت هناك رجلاً وامرأتين »، لكن النص هنا لا يحمل اسم الإشارة المعتاد، بل الفعل (حاصر) فقط، مما يشير إلى الملك كقائد لجيس الحصار، وهى إشارة لمفرد متضمن داخل الفعل الماضى بالتقدير، ولا يشير إلى جيوش يمكن أن تكون عند (فليكوفسكى) جيوش أجداده الأفاضل، وهنا لايجد الرجل ما يناسب النص بالتوراة، فلجأ إلى أسطورة متداولة بين بنى جلدته تحكى عن القوة البدينة الخارقة فى أساطير منوعة عن (يوآب) قائد جند (داود) الذى خلف (شاول)، وضمنها أسطورة تقول أنه اخترق بمفرده أسوار مدينة عماليق، وعليه فإن (فليكوفسكى) يعلم أن (يوآب) هو صاحب الفضل الحقيقى فى هزيمة آلوف المحاربين

العماليق بمفرده، وأنه وفق العادة الكريمة لبنى إسرائيل، قد تركها هدية لأحمس المصرى، رغم أنها تقع داخل أرض فلسطين ذاتها، وفى عمقها، وجزء من مملكة إسرائيل؟!!!

وتبقى هنا عدة مسائل، تثيرها استفسارات بدهية، إزاء كل ما قدم (فليكوفسكى)، لإثبات سقوط ستة قرون كاملة من التاريخ المصرى وتاريخ العالم بالتالى، وإزاء ركونه الكامل إلى مصداقية مطلقة تتسم بها نصوص التوراة، وهو غرض آخر يتضمن فى ثنايا الغرض الأول، من أجل تحقيق عدة أهداف أهمها إيجاد موطئ قدم لبنى إسرائيل فى تاريخ المنطقة، وإثبات البراءة الكاملة والطهارة المطلقة لهذا الشعب من كل ما التبس بتاريخه من اتهامات، مع تأكيد العلاقات الحميمة بين بنى إسرائيل والمصريين إزاء العرب منذ التاريخ القديم، والتى أهدرها المصريون جانب واحد، مع إعاد تأسيس تاريخ العالم بحيث يتزامن مع الأساس المتين بالكتاب الإسرائيلى المقدس، وبحيث يكون العمل فى مجمله تنظيراً تاريخياً للقومية الصهيونية.

وهذه المسائل التى تنتج عن استفسارات، يمكن تحديدها فى العناصر التالية :

ـ إزاء المصداقية الكاملة التي يريد (فليكوفسكى) إثباتها لنصوص المقدس الإسرائيلى، والتى عمد وهو بسبيل ذلك الإثبات إلى الانتقاء من وثائق التاريخ القديم ما يراه أهلاً لتحقيق غرضه، مع تزوير دلالات تلك الوثائق، وإزاء حدث الخروج العظيم الذى انبنت عليه الكرامة القومية الإسرائيلية، وعليه أسس (فليكوفسكى) العلم كله، أقول : إذا كان الأمر كذلك فلا ريب أن الدهشة تأخذ المدقق مع استفسار بسيط تماماً يتساءل : لماذا لم تذكر النصوص المقدسة بالكتاب المقدس اسم ذلك الفرعون الذى سام شعب الرب العذاب، رغم كل تلك الدقة فى سرد المعجزات، ورغم خطورة الحدث وأهميته وأحتسابه حجر الأساس فى التاريخ الإسرائيلى؟

ـ ثم إذا كانت الكوارث التى أنزلها (يهوه) بالمصريين ليست من باب الأساطير، إنما تسجيل لوقائع حدثت بالفعل، وكان حدث انشقاق البحر هو قمة تلك الأحداث الكونية، وبعدها دخل بنو إسرائيل أرض الميعاد، فإن المدقق فى التوراة سيجد أن هناك أحداثاً أخرى تمت فى فلسطين بعد الخروج، تدخل فى عداد المبالغات الأسطورية وتهويلاتها، وغض (فليكوفسكى) الطرف عنها تماماً. لأن الكارثة التى يتحدث عنها كانت قد انتهت، فهذا مثلاً (يشوع بن نون) الذى خلف (موسى) على قيادة الإسرائيلين، وعند عبور نهر الأردن البعيد عن أحداث كارثة الخروج مكاناً وزماناً، تحدث له نفس المعجزة

« ولما ارتحل الشعب من خيامهم لكى يعبروا الأردن، والكهنة حاملو تابوت العهد (هو تابوت ينام فيه الرب ليحملوه معهم) أمام الشعب، فعند إتيان حاملى التابوت إلى الأردن، وانغماس أرجل الكهنة حاملى التابوت فى ضفة المياه، والأردن ممتلئ إلى جميع شطوطه كل أيام الحصاد، وقفت المياه المنحدرة من فوق وقامت نداً واحداً بعيداً جداً.. والمنحدرة إلى بحر العربة بحر الملح انقطعت تماماً، وعبر الشعب مقابل أريحا، فوقف الكهنة حاملو تابوت عهد الرب على اليابسة فى وسط الأردن راسخين، وجميع إسرائيل عابرون على اليابسة، حتى انتهى جميع الشعب من عبور الأردن ـــ سفر يشوع ٣ : ١٤ـ١٧ »، وبعد ذلك بخمسة قرون يأتى الرب ليقابل النبى (إيليا التشبى) ط فقال أخرج وأقف على الجبل أمام الرب، وإذا بالرب عابر وريح عظيمة وشديدة قد **شقت الجبال وكسرت الصخور** أمام الرب ـ ملوك أول ١٩٩: ١١» فهل كانت تلك كارثة أخرى، وخاصة أن (إيليا) قام بمعجزة فلق الأردن هو بدوره «فأخذ إيليا رداءه ولفه وضرب الما فانفلق إلى هنا وهناك فعبر كلاهما فى اليبس ـ ملوك ثانى ٢ : ٨ ». وبعدها ظل رداء (إيليا) يقوم بالوظيفة التى كانت تقوم بها عصى (موسى)، «فأخذ رداء إيليا الذى سقط عنه وضرب الماء وقال أين هو الرب إله إيليا؟ ثم ضرب الماء أيضاً فانفلق إلى هنا وهناك فعبر

أليشع ـ ملوك ثاني ٣ : ١٤» ومثل تلك الروايات تغص به كل صفحات الكتاب المقدس من بدئه إلى منتهاه.

ـ أما الاستفسار الأهم، فهو إذا كان الإسرائيليون مع أول ملوكهم (شاول) قد امتلكوا تلك القوة الحربية العظمى بألوف العربات ومئات الألوف من الجنود المدربين، بحيث تمكنوا بها من استئصال شأفة الهكسوس العرب وتحرير مصر، فإن ذلك يعني وجود نظام مركزي متماسك وقوي، بينما المطالع للكتاب المقدس لن يجد لأي من الفرضين أي تحقيق بالمرة :

«وأما اليبوسيون الساكنون في أورشليم فلم يقدر بنو يهوذا على طردهم، فسكن اليبوسيون. مع بني يهوذا في أورشليم إلى اليوم ـ يشوع ١٥ : ٦٣ ».

وكذلك سبط إفرايم لم يستطيعوا أن يطردوا الكنعانيين الساكنين في جازر، «فسكن الكنعانيون وسط إفرايم إلى اليوم ـ يشوع ١٦ : ١٠».

وكذلك أبناء منسى أخى إفرايم "ولم يقدر بنو منسى أن يملكوا هذه المدن فعزم الكنعانيون على السكن فى تلك الأرض ـ يشوع ١٧: ١٢".

كذلك سبط أشير لم يستطع الاستيلاء لا على " صيدون العظيمة ". ولا على " المدينة المحصنة صورة ـ يشوع ١٩ : ٢٨ ـ ٢٩ " .

" وكان الرب مع يهوذا فملك الجبل ولكن لم يطرد سكان الوادى لأن لهم مركبات من حديد ـ قضاة ١ : ١٩".

كذلك "زبولون لم يطرد سكان قطرون ولا سكان نهلون فسكن الكنعانيون فى وسطه ـ قضاة : ١ ـ ٣٣ " .

" وحصر الأموريون بنى دآن فى الجبل .. فعزم الأموريون على السكن فى جبل حارس فى إيلون وفى شعلبيم ـ قضاة : ١ : ٣٥ " .

والأمثلة غير ذلك كثيرة يمكن للقارئ الرجوع إليها بالكتاب المقدس. وتشير بوضوح إلى أمرين هامين : الأول أن الخارجين من

مصر ظلوا على انقسامهم قبائل وبطوناً وأفخاذاً، والثاني هو أنهم رغم البشاعة التى استخدموها فى حروبهم ضد سكان الأرض، فإن هؤلاء ظلوا فى أماكنهم ولم يتمكن بنو إسرائيل رغم المجازر الهائلة التى ارتكبوها ـ وسنأتى على ذكرها ـ أن يزحزحوا هؤلاء من بلادهم، فسكن الإسرائيليون بينهم.

أما الفرض الثاني، وهو قيام كيان متماسك، فمن الواضح أنه لم يتحقق طوال العصر الممتد من زمن الخروج إلى زمن (شاول)، وفى رواية المقدس التوراتى تفاصيل تؤكد أن بنى إسرائيل لم ينعموا بالاستقرار طول ذلك الزمن الذى امتد حوالى أربعة قرون كاملة، وإليك نماذج من تلك الروايات التى وردت فى سفر القضاة «فعمل بنو إسرائيل الشرفى عينى الرب ونسوا إلههم وعبدوا البعليم والسوارى، فحمى غضب الرب على اسرائيل فباعهم بيد كوشان رشعتايم ملك أرام النهرين، فعبد بنو إسرائيل كوشان رشعتايم ثمانى سنين ـ ٣ : ٧ ، ٨، وعاد بنو إسرائيل يعملون الشر فى عينى الرب.. فشدد الرب عجلون ملك موآب.. وضرب إسرائيل، فبعد بنو إسرائيل عجلون ملك موآب ثمانى عشرة سنة ـ ٣ : ١٢ ـ ١٤، وعاد بنو إسرائيل يعملون الشر فى عينى الرب.. فباعهم بيديا بين ملك كنعان.. فصرخ بنوا إسرائيل إلى الرب لأنه كان له تسع مئة مركبة من حديد، وهو ضايق بنى إسرائيل بشدة عشرين سنة

ـ ٤ : ١ ـ ٣ وعمل بنو إسرائيل الشرفى عينى الرب فدفعهم الرب ليد مديان سبع سنين.. بسبب المديانيين عمل بنو إسرائيل لأنفسهم الكهوف التى فى الجبال.. وإذا زرع إسرائيل كان يصعد المديانيون العمالقة وبنو المشرق.. ويجيئون كالجراد فى الكثرة وليس لهم ولجمالهم عدد، ودخلوا الارض لكن يخربوها، فذل إسرائيل جداً من قبل المديانيين، وصرخ بنو إسرائيل للرب ـ ٦ : ١ ـ ٦، وعاد بنو إسرائيل يعملون الشرفى عينى الرب، وعبدوا البعليم والعشتاروث وآلهة أرام وآلهة صيدون وآلهة موآب وآلهة بنى عمون وآلهة الفلسطينيين، وتركوا الرب ولم يعبدوه، فحمى غضب الرب جداً على إسرائيل وباعهم بيد بنى الفلسطينيين ويد بنى عمون فحطموا ورضضوا إسرائيل.. ثمانى عشرة سنة.. فصرخ بنو إسرائيل إلى الرب قائلين أخطأنا إليك ـ ١٠ : ٦ ـ ١٠، ثم عاد بنو إسرائيل يعملون الشر فى عينى الرب فدفعهم إلى يد الفلسطينيين وانكسر إسرائيل وهربوا كل واحد إلى خيمته، وكانت الضربة عظيمة جداً، وسقط من إسرائيل ثلاثون ألف رجل، وأُخذ تابوت الله ـ صموئيل أول : ٤ : ١٠ ـ ١١ »، وبعدها اجتمع الاسباط وطلبوا من الكاهن القاضى (صموئيل) أن يجعل لهم ملكاً فاختار (شاول)، الذى نجح فى استرداد التابوت من الفلسطينيين، فى غزو ما أسماه الكتاب المقدس مدينة عماليق، والتى افترض (فليكوفسكى) أنها كانت حواريس

عاصمة امبراطورية الهكسوس العربية، تلك الإمبراطورية التى كانت تحكم على منطقة حوض المتوسط الشرقى، بينما كان داخلها كل تلك الممالك وتلك الحروب، والتى لم يأت لها (فليكوفسكى)، على ذكر، إن معنى وجود ممالك متعددة فى المنطقة، وحروب إقليمية متتالية، بينها حروب شعب مثل بقية تلك الشعوب بالمنطقة والمعروف باسم العمالقة، يهدم الفرض الأساسى فى كتابه حول تلك المملكة العظمى المسيطرة خلال عصر القضاة المليء بالأحداث.

ـ ومسألة أخرى مازالت تطلب المناقشة، وتتأسس على مدى مصداقية الصفات البربرية التى نسبها (فليكوفسكى) للهكسوس العرب حسب فروضه، وفى هذه الحال لن يكون أمامنا مقياساً للفضائل ومعياراً للنبل سوى الشعب المقابل، الشعب التقى الورع الذى فدى الإنسانية جمعاً، وقضى على شر الهكسوس، وظلمته الإنسانية جمعاء، شعب اسرائيل، ولا شك أنه لا توجد شهادة للإسرائيليين أفضل من كتابهم المقدس.

تقول شريعة الكتاب المقدس العطرة والسمحاء لشعبها أثناء رحلة التيه، قبل دخول فلسطين: «أحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار ـ عدد ٣١ : ١٠، اقتلوا كل ذكر من الاطفال وكل امرأة ـ عدد ٣١ : ١٧، احرقوا حتى بينهم وبناتهم بالنار ـ تثنية

١٢ : ٣١، فضرباً تضرب سكانهم المدينة بحد السيف وتحرقها بكل ما فيها من بهائمها.. وكل أمتعتها كاملة للرب إلهك ــ تثنية ١٣ : ١٥ ، ١٦ وأما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة ما ـ تثنية ١٠ : ١٠ ـ ١٦ ".

ولن تجد سفراً واحداً يخلو من صورة (يهوه) وهو ينفث أوامره المتكررة بالحرق والذبح وتقطيع الأوصال، رجال أو نساء أو حتى الاطفال بل والبهائم أيضاً، وعندما كانت تحدث أى مخالفة لتلك الأوامر، حين يطمع الإسرائيليون فى الإبقاء على بعض النساء كسبايا، أو على المتاع والبهائم كغنائم، فإن الرب كان يصب نقمته على الاسرائيليين أنفسهم. والأمثلة كثيرة بالكتاب نستشهد منها بمثال واحد فقط اختصاراً للأمر، "وكلم الرب موسى قائلاً : انتقم نقمة لبنى إسرائيل من المديانيين... فكلم موسى الشعب قائلاً: جردوا منكم رجالاً للجند فيكونون على مديان ليجعلوا نقمة الرب على مديان، ألفاً واحداً من كل سبط من جميع أسباط إسرائيل ترسلون الحرب.. فتجندوا على مديان كما أمر الرب وقتلوا كل ذكر.. وسبى بنو اسرائيل نساء مديان وأطفالهم ونهبوا جميع بهائمهم وجميع مواشيهم وكل أملاكهم، وأحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار.. فخرج موسى.. لاستقبالهم .. فسخط موسى.. وقال لهم

موسى: هل أبقيتم كل أنثى حية.. فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال وكل امرأة ـ عدد ٣١ : ١ ـ ١٧ » . فلماذا تجاوز (فليكوفسكى) عن هذه المدونات التى لا شك كانت مصداق كل كلمة استشهد بها من قبل واعتبرها تقول ما تعنيه فعلاً؟ بينما حمل على الهكسوس تلك الحملة القاسية بعد أن احتسبهم عرباً من العمالقة، بينما فى مصر ذاتها لا توجد شهادة قديمة واحدة على قسوة الهكسوس بشكل يقترب من تلك البشاعة فى شرائع الحرب التوراتية؟ اللهم إلا فى نص (حتشبسوت)، وما جاء فى حديث (مانيتون) فى القرن الثالث قبل الميلاد.

هذا ما كان عن تزوير التاريخ لصالح التنظير التاريخى للقومية الإسرائيلية، ويبقى أن نعيد الأمور إلى نصابها الصحيح، ونكشف عن هوية الهكسوس بوضوح وعلاقتهم بالعرب وبالمصريين وببنى إسرائيل، وموقعهم الصحيح من التاريخ القديم! وهذا وعد نعمل حالياً ـ وربما لبعض الوقت ـ من أجل الوفاء به.

مصادر استشهادات البحث

الكتاب المقدس

القرآن الكريم

١- د. أحمد سوسة: **العرب واليهود فى التاريخ**، دار العربى للإعلان والطباعة والنشر، دمشق ، د.ت.

٢- د. أحمد شلبى : **مقارنة الأديان، اليهودية**، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣.

٣- إرمان (أدولف) : **ديانة مصر القديمة**، ترجمة محمد عبد المنعم أبو بكر، ود. محمد أنور شكرى، نشر مصطفى البابى الحلبى، القاهرة، د.ت.

٤- اسبينوزا : **رسالة فى اللاهوت والسياسة** ترجمة د. حسن حنفى، دار الطليعة، بيروت، ط٢، ١٩٨١.

٥- أنطون ذكرى : **مفتاح اللغة المصرية القديمة وأنواع وأهم إشاراته**، د.ت.

٦- د. أنيس فريحة : **دراسات فى التاريخ**، دار النهار، بيروت، ١٩٨٠.

٧- إيمار وإيوابة: **الشرق واليونان القديم**، ترجمة فريد داغر، وفؤاد أبو ريحان، دار عويدات، بيروت، د.ت.

٨- باقر (طه): **الوجيز فى تاريخ حضارة الرافدين**، دار الشؤون الثقافية العامة بغداد، ١٩٨٦.

٩- برستد (جيمس هنرى) : **كتاب تاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى الفتح الفارسى**، ترجمة د. حسن كمال، وزارة المعارف المصرية، ط١، القاهرة، ١٩٢٩.

١٠- بريتشارد (جيمس): **نصوص الشرق الأدنى القديم المتعلقة بالعهد القديم**، ترجمة وتعليق د. عبد الحميد زايد، هيئة الآثار المصرية، القديمة، القاهرة، ١٩٨٧.

١١- جاردنر (آلن هنرى) : **مصر الفراعنة، ترجمة د: نجيب ميخائيل**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ط٢، ١٩٨٧.

١٢- حتى (فيليب : **خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى**، الدار المتحدة ، القاهرة، ١٩٩٠.

١٤- روبنسون (تيودور). **إسرائيل فى ضوء التاريخ**، ترجمة عبد الحميد يونس، المجلد الثانى من تاريخ العالم، النهضة المصرية، القاهرة، د.ت.

١٥- الشهرستانى : **الملل والنحل**، تحقيق محمد سيد كيلانى، نشر مصطفى البابى الحلبى، القاهرة ، ١٩٦١.

١٦- صالح (د. عبد العزيز) : **الشرق الأدنى القديم**، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٧٢.

١٧- طعيمة (د. صابر) : **التاريخ اليهودى العام**، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٨٣.

١٨- على (د. جواد) : **المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام**، المجمع العلمى العراقى، بغداد، د.ت.

١٩- على (د. فؤاد حسنين) : **التوراة الهيروغليفية**، دار الكاتب العربى، القاهرة، د.ت.

٢٠- عوض (د. لويس) : **مقدمة فى فقه اللغة العربية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٠.

٢١- الفرج (محمد حسين) : **الحضارات العربية الكبرى فى العصور القديمة**، مجلة المنابر، بيروت، الأعداد من ٣٢ : ٤٠.

٢٢- فليكوفسكى (إيمانويل): عصور فى فوضى، ترجمة رفعت السيد، دار سينا، الطبعة الأولى، القاهرة.

٢٣- القمنى (سيد محمود) : **الأسطورة والتراث**، دار سيناء، القاهرة، ١٩٩٢.

٢٤- القمنى (سيد محمود) : **النبى إبراهيم والتاريخ المجهول** ، دار سينا، القاهرة، ١٩٩٠.

٢٥- القمنى (سيد محمود) : **أوزيريس وعقيدة الخلود فى مصر القديمة**، دار فكر، القاهرة، ١٩٨٨.

٢٦- لانجر (وليم) : مع سبعة عشر عالماً: **موسوعة تاريخ العالم**، ترجمة د. مصطفى زيادة وسبعة مترجمين، دار النهضة المصرية، د.ت.

٢٧- ماكلستر (راس) : **الأقوام الجدد**، ترجمة عبد الحميد يونس، مجلدات تاريخ العالم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت، المجلد الثانى.

٢٨- موسكاتي (سبتينو) : **الحضارات السامية القديمة**، ترجمة، د. السيد يعقوب بكر، دار الكاتب العربى للطباعة، القاهرة، ١٩٥٧.

٢٩- موسى (محمد العزب) : **أول ثورة على الإقطاع**، دار الهلال، القاهرة ١٩٦٦.

٣٠- هومل (فرتز) : **التاريخ العام لبلاد العرب الجنوبية**، ضمن كتاب التاريخ العربى القديم بإشراف (نيلسن)، ترجمة د. فؤاد حسنين على، د.ت.

٣١- ولسن (جون) : ضمن كتاب : **ما قبل الفلسفة**، بمشاركة آخرين، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، مكتبة دار الحياة، بغداد، د.ت.

المحتوى

الباب الأول

الباب الثانى

الباب الثالث

من أعمال المؤلف

الكتب المنشورة :

- الموجز الفلسفى ، دار السياسة ، الكويت (نفذد).
- مشكلات فلسفية، التربية الكويتية، الكويت (بمشاركة آخرين).
- أوزيريس وعقيدة الخلود فى مصر القديمة.
- الحزب الهاشمى وتأسيس الدولة الإسلامية.
- النبى إبراهيم والتاريخ المجهول.
- الأسطورة والتراث.
- إسرائيل : التوراة ، التاريخ، التضليل.
- حروب دولة الرسول.
- قصة الخلق.
- رب الزمان.
- السؤال الآخر.
- النبى موسى وآخر أيام تل العمارنة.

هـذا الكتـاب

ضمن مشروعه الكبير يتناول مفكرنا (سيد القمنى) فـى هذا العمل نقطة مفصلية وعلامـة فارقـة فـى تـاريخ المنطقـة، هي لحظة التماس بين القبيلة الإسرائيلية وبين مصر القديمـة. يناقش فيها على خطوات

أولا: الكتاب المقدس/ العهد القديم/ التوراة علـى محـك العلمية وحدها ليخرج بصورة بانورامية متكاملة لهذا الكتـاب وكيف تم تأليفه؟ ومن قام بتحريره؟ وبـأى لغـة؟ وبـأى أدوات كتابية؟ ولأى أهداف؟ .. الخ.

ثانيا: يتوقف مـع إشـارة التـوراة لدخـول بنـى إسـرائيل مصر وخروجهم منهـا، ليناقشـها علـى محـك معطيـات علـوم التاريخ القديم للكشف عن الوجه الأقرب لحقيقـة الأحـداث فـى حقلها الموضوعى آنذاك.

ثالثا: ثم يقف مفكرنا مع المنظومة العلمية التى تؤسـس لإسرائيل موطئ قدم فى تاريخ المنطقة، وتتمثل تلك المنظومة فى أخطر تنظيرة تاريخية للقبيلة الإسـرائيلية، فـى كتـاب فليكوفسكى (عصور فى فوضى).

نضع هذا الجهد بين يدى القـارئ ليستكمل بـه قـراءة سيد القمنى لتاريخ المنطقة، بعين على المـاضى، وعين علـى همـوم الحـاضر. مقدريـن لـه دوره فـى إعـادة قـراءة التاريخ معنا.

١٢/٠٠

عبده غريب